آمنت بالله

يتناول أدلة التوحيد العقلية والنقلية، وأمور الإيمان الغيبية
الإيمان باليوم الآخر، وبنعيم القبر وعذابه، وبالرسل، والملائكة،
وبالجنة والنار، والقضاء والقدر، وسائر أركان الإيمان

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني

طبع على نفقة
بعض المحسنين
مع رجاء خالص الدعوات

النادي الشبابي

آمنت بالله

يتناول أدلة التوحيد العقلية والنقلية، وأمور الإيمان الغيبية
الإيمان باليوم الآخر، وبنعيم القبر وعذابه، وبالرسل، والملائكة،
وبالجنة والنار، والقضاء والقدر، وسائر أركان الإيمان

بقلم
خادم الكتاب والسنة
الشيخ محمد علي الصابوني

الأفق
للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

[آل عمران: ١٩٠]

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[البقرة: ١٦٣]

تَأَمَّلْ في الوُجودِ بِعَيْنِ فِكْرٍ   تَرَى الدُّنْيا الدَّنِيَّةَ كَالخَيالِ
وَمَنْ فِيها جَميعاً سَوْفَ يَفْنَى   وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- أُهْدِي الكتاب لمن امتلأ قلبه بحبّ الله ويريد أن يرى آثار وحدانيّته .
- لمن يشكّ في وجود الله ، ويرغب أن يزيل العمى عن فؤاده وبصيرته .
- لمن تعلّق قلبه بالدُّنيا وفقد أطيب نعيمها ، الأُنس بمعرفة ربّه .
- لمن يريد أن يفقه معنى «القضاء والقدر» لتسلو نفسه عن الهموم والأحزان .
- لمن يحبّ أن يعيش جنّة النّعيم في الدُّنيا ، قبل جنّة الخلود في الآخرة .
- إلى هؤلاء جميعاً أُهْدِي هذا الكتاب ، تبصرةً وذكرى لأُولي الألباب .

خادم الكتاب والسُّنّة

الشيخ محمّد علي الصّابوني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

الحمد للَّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، أجمعين، وبعد:

فقد أرسل اللَّه تعالى جميع الأنبياء عليهم السلام برسالة واحدة، ودين واحد، يدعو إلى عبادته وحده، وهي (رسالةُ التوحيد) من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم.

فالتوحيد عقيدة جميع البشر، ورسالةُ جميع الأنبياء، ولا بد للمؤمن الموحِّد من أن يُصدِّق بكل ما جاء من اللَّه عزَّ وجلَّ عن طريق رسله، وأن يقرن قولَه بالعمل، فالإيمانُ قولٌ، وفعلٌ، وعمل.

والإيمانُ باللَّه أساسُ عقيدة التوحيد، كما يبين لنا فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني في هذا الكتاب، الذي بذل فيه جهداً مشكوراً، وذلك بتقديم العقيدة بأسلوب حديث ميسَّر، يفهمه العامّة والخاصّة، مُشوِّق بأسلوبه السهل الممتع، يجعل القارئ يستمتع في القراءة عن هذا الموضوع، الذي غالباً ما تناوله العلماء بأسلوب يصعب فهمه، وعبارة مكرَّرة مألوفة، فجَمَعَ فضيلته في هذا الكتاب أسس العقيدة، وأهمَّ ما على المسلم اعتقاده، ليكون كاملَ الإيمان، موحداً للَّه عزَّ وجلَّ، مؤمناً باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَر خيره وشره من اللَّه تعالى.

وقد جاء بالأدلّة والبراهين على وجود اللَّه ووحدانيته، الأدلّة العقلية، والأدلة الكونية، والبراهين الشرعيّة، التي تجعل الإنسان ـ مهما كان مُعانداً ـ يُذعن لِمَا جاء فيه من الحجج والبراهين.

فإذا تمكنت عقيدة التوحيد من المؤمن، فقد فاز في الدنيا والآخرة، فالعقيدة هي أهم ما على المؤمن التمسك به، لينجو من عذاب اللَّه يوم القيامة، ويفوز بسعادة الدارين.

نسأل اللَّه العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يثيب فضيلة الشيخ على ما بذل فيه من جُهْد، وأن يجعل ذلك في ميزان أعماله، وصلى اللَّه على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد للَّه رب العالمين.

الناشر

المقدمة

الحمد للَّه ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد: فإنَّ الواجب على العلماء، أن يبذلوا قُصارى جهدهم، لتبصير المسلمين بأمور دينهم، ومن أهمِّ هذه الأمور، التي ينبغي أن يَعْنوا بها، أمرَ أصولِ الدِّينِ، وفي مقدمتها (عقيدة التوحيد) التي هي أساس سعادةِ الإنسان، وفلاحِه ونجاحِه، إذْ هي أصلُ الأصول، لقبول سائر الأعمال، من صلاةٍ وصيام، وحجٍّ وزكاة ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] أي أيقنْ واثْبُتْ على ما أنت عليه من العلم (بوحدانية اللَّه تعالى) إذْ هي أصلُ دينِ اللَّه الحنيف ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وهذا الكتاب الذي أضعه بين يديك ـ أخي المسلم ـ مشاعلُ هدى ونور ـ تضيءُ أمامَك الطريقَ لفهم ما بُنِيتْ عليه (العقيدةُ الإسلامية) السمحةُ، من يُسْرٍ، وصفاءٍ، ونقاء، لا غموضَ فيها ولا تعقيد، وبما ارتكزت عليه من دعائمَ وركائزَ راسخة، يتقبَّلُها العقلُ، ويستنيرُ به الفكرُ، ويزدادُ بها الإيمانُ، بعظمة (دين الإسلام) وصفاءِ نَبْعِه، إذ هو موصولٌ بالوحي الإلٰهي، المنزل من عند الرحمن ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢].

أسألُ اللَّهَ تعالى أن يزيدك به نوراً، ويشرحَ صدرَك بما فيه من الحجج والبراهين الساطعة، لتعلم أنك على المحجَّة البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها إلَّا هالك، ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وأسأله تعالى أن ينفع به، وأن يجعلَ أعمالنا خالصةً لوجه اللَّه الكريم، لنفوز بسعادة الدنيا والآخرة، وهو حسبُنا ووليُّنا، وهو نعم المولى ونعم النصير.

خادم الكتاب والسُّنَّة
الشيخ محمد علي الصابوني

التعريف
بالعقيدة الإسلامية

التعريف بالعقيدة الإسلامية

عقيدتنا الإسلامية

- عقيدتُنا الإسلامية عقيدةٌ صافيةٌ نقيَّة، لا تعقيدَ فيها ولا غموض، ولا خَلَل فيها ولا اضطراب.
- تقوم على أساس الإيمان بالوحدانية (وحدانية اللَّهِ) عزَّ وجلَّ، منشئ الإنسانِ، وخالقِ الأكوان.
- عقيدةٌ يتوِّجُها العقلُ، ويُزيِّنها الجلالُ والكمالُ، وتتقبَّلُها الفطرةُ السليمةُ، التي فَطَر اللَّهُ عبادَه عليها. !

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

- إنها سهلةٌ تنفحُ القلبَ نوراً.. وتملأ الصَّدرَ سروراً.. وتزيِّنُ العقلَ بزينة الهداية والكمال، لأنها نابعةٌ من المعين الصافي (معين التوحيد والإيمان) الذي تنزَّلتْ به الشرائعُ السماويَّةُ، منذُ رسالةِ (نوح) عليه الصلاةُ والسلام، إلى أن خُتمتْ برسالةِ خاتم الأنبياء والمرسلين (محمد بن عبد اللَّه) عليه أفضلُ الصلاةِ والتسليم.
- إنها رسالةُ التوحيد الخالص (لا إله إلا اللَّه) اجتمعت عليها دعوةُ جميع الأنبياء والمرسلين، فما بعثَ اللَّهُ رسولاً إلى أمةٍ من الأمم، إلَّا كانت دعوتُه إلى توحيد ربِّ العزة والجلال، والإقرارِ له بالربوبية، والألوهيَّة، والوحدانية ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].
- هذه عقيدةُ المسلم، يعيش من أجلها، ويموت في سبيلها، ويجعلُ صلاتَه، ونُسُكه، وقصدَه، وجميعَ أعماله الصالحات، خالصةً لوجهه ربِّه الكريم، ليلقى جزاءَه في الآخرة، وينالَ مغفرتَه ورضوانه، ويدخلَ مع المقرَّبين

جنات النعيم ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٦٢، ١٦٣] وقد قال سيِّد ولد آدم محمد ﷺ **(من كان آخرُ كلامه لا إلٰه إلَّا اللَّهُ دخل الجنة)** رواه الحاكم وأبو داود.

أساسُ العقيدة توحيدُ اللَّه جلَّ جلاله

- **إنَّ عقيدة التوحيد عند المسلمين،** ناشئةٌ عن اعتقادِ إلٰهٍ واحد، لا شريكَ له، ولا شبيهَ ولا نظير، خالقٍ للكون، حكيم عليم، قادرٍ على كل شيء، متصفٍ بصفات الكمال والجلال، منزَّهٍ عن صفاتِ العجز، والنقص، والضعف ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۞ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٢، ١٠٣]. أي لا معبود بحقٍّ سواه، هو الخالق والرازق، والمدبّر لكل شيء، ففوّضوا أموركم إليه.

- **هذه عقيدةُ الفطرة (عقيدةُ التوحيد)** التي فَطَرَ اللَّهُ الناس عليها، منذُ خلقَ الخلق إلى أن يرثَ اللَّه الأرضَ ومن عليها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]. أي تمسَّكْ بالدين المتين القويم، دينِ الفطرة والتوحيد، الذي فَطَر اللَّه الناسَ عليه.

البشرُ مخلوقون على الفطرة

- **ودينُ التوحيد الذي نؤمن به ونعتقده،** هو ما قال عنه ربُّ العزَّة والجلال، في (الحديث القدسيِّ) الذي رواه عنه سيِّدُ الخلق ﷺ: (إنِّي خلقتُ عبادي حُنَفاءَ كلَّهم ـ أي مؤمنين بوحدانيتي على دينِ الفطرة ـ وإنَّ الشياطينَ اجتالَتْهم عن دينهم ـ أي صَرَفَتْهم وَحَرفَتْهم عن التوحيد الذي خلقتُهم عليه ـ وحرَّمَت عليهم ما أحللتُ لهم، وأَمَرَتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً..)[1] الحديث.

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه رقم/ ٢٨٦٥/ عن عياض المُجَاشعي، وفيه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قام في أصحابه خطيباً ذات يوم، فقال في خطبته (ألَا إن ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم، ممَّا علَّمني يومي هذا، إني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم... وهو حديث طويل فيه روائع وبدائع من الأحكام، انظره في جامع الأصول ١١/ ٧٥٠.

- **هذه عقيدةُ التوحيد**، أَوْجزَتْها سورةُ الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].
- **والمعنى**: اللَّهُ واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أفعاله، انتهت إليه السيادةُ والسُّؤدُدُ، ليس له أبناءٌ ولا بنات، وليس له والدٌ ولا آباء، وليس له تعالى شبيهٌ، ولا مثيلٌ، ولا نظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وسيأتي توضيح معنى هذه (السورة الجليلة)[١].
- **أمَّا عقيدةُ التثليث، التي اخترعها بعضُ أهلِ الأديان**، فهي عقيدةٌ منكرةٌ باطلة، مناقضةٌ للعقل، مناهضةٌ للحقائق العلمية الثابتة، إذ لا يمكن أن يتصوَّر أحدٌ من الخلق، أن العالَمَ تحكمه آلهةٌ ثلاثة، متباينةٌ في الذوات، مختلفةٌ في الصفات، تجتمع على رأيٍ واحد، وكلٌّ واحد مستقلٌّ عن الآخر، في الخلق والتدبير.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

توضيح معنى الآية: أي لو كان في الوجود والكونِ، إلهٌ غيرُ اللَّهِ سبحانه وتعالى، لفسَدَ نظامُ الكون، لِمَا يحدثُ بين الآلهة من التنازع والاختلاف، تنزَّه اللَّهُ ربُّ العرش العظيم، عمَّا ينسِبُه إليه السفهاءُ الجاهلون.!

- هل يمكن أن يكون في بلدٍ واحدٍ، مَلِكَان أو ثلاثة؟ وهل سمعتم في جمهورية من الجمهوريات الحديثة، أن يوجد فيها رئيس دولةٍ أو أكثر، كلٌّ منهم مستقلٌّ بالإدارة والحكم!؟
- من الممكنِ أن يكون في دولةٍ (مَلِكٌ) واحد، له نائب يُسمَّى (وليَّ العهد) وأن يوجد في جمهوريةٍ واحدٍ (رئيسُ وزراء) له نائب أو نائبان، أمَّا أن يكون في البلدة الواحدةُ، ثلاثةُ ملوك، أو ثلاثةُ رؤساءُ وزراء، فهذا مرفوضٌ عقلاً وشرعاً، وحُكماً ونظاماً!!
- ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] أي اللَّهُ الحقُّ لا يتعدَّد، فلا تعبدوا إلهين اثنين، بل خصُّوا ربكم وحده بالعبادة، وخافوا اللَّه دون من سواه، فهو الخالق، والمالِكُ، والرازق.!

---

(١) انظر بحث (وحدانية اللَّه) في الصفحة ٢٢ من هذا الكتاب.

• يقول الحقُّ جل وعلا، في الردِّ على من نسب إليه سبحانه البنينَ والذريَّة، أو التعدُّدَ في المُلْكِ والألوهية ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠ ـ ٩٢].

والمعنى: ليس له تعالى ولد، ولم يشاركه أحدٌ في المُلْك والألوهية، ولو فرضنا ـ جَدَلاً ـ بتعدُّد الآلهة، لانفرد كل إلهٍ بما خَلَقه، وأصبَح مغايراً لخلقِ الآخر، وما كان ينتظم نظامُ الكون، والمشاهدُ أَنَّ العالَم في غاية النظام والإبداع.

وأيضاً فإنه كان سيحدث التصارعُ والتنازعُ بين الآلهة، فيعلو بعضُهم على بعض، كما هو الحادث والجاري بين ملوك الدنيا، حتى يكون واحد منهم هو القاهرُ والغالبُ، فبطل بهذه الفَرَضية الأمران: أمرُ الولد، وأمرُ الإله والشريك.

عقيدة التثليث باطلة

• **إذاً فعقيدة التثليث من أصلها باطلة**[(١)]، لا يقبلها عقلٌ، ولا تهضمها معِدةُ إنسان، ولذلك اخترع المؤمنون بها فكرةَ (توحيد الثلاثة) فقالوا: اللَّهُ تعالى مجموعةُ أقانيم ثلاثة (الأب، والابن، والروح القدس) الثلاثةُ واحدٌ، والواحدُ ثلاثة، فزادوا الطِّينَ بِلَّةً، والعقلَ خَبَالاً وفساداً!!

هذه فكرةٌ (سفسطائية) باطلة، مناقضةٌ للعقل، لا يقبلها إلَّا شخص مجنون، ألغى عقله، وقَبِل بها من غيرِ بصيرة، ولا منطقٍ سليم.

• لو أنَّ (التركيبةَ المخترعة) لتثليثِ الألوهية، كانت متَّحدة، مثلَ أن نقول: عندنا ثلاث شمعات، لأمكن لنا أن ندمجها في شمعةٍ واحدة، فنقول: هذه الثلاثةُ واحدة، أمَّا أن تكون الكوكبة مختلفة، فكيف تتحد وتكون شيئاً واحداً؟ وأشخاصُها مختلفة ومتباينة!؟

• إذا كان عندنا (غزالٌ، وبقرة، وديك) فهل يمكن أن يقبل عاقل أن تتحدَّ الثلاثةُ فتصبح غزالاً واحداً، أو بقرة واحدة، أو ديكاً واحداً؟ (الأب غيرُ

---

(١) انظر بحث المقارنة بين (عقيدة التوحيد) و(عقيدة التثليث) صفحة/٨٦/ من هذا الكتاب.

الابن، والابنُ غير الأب، وروحُ القدس غيرهما) فمن المستحيل أن تندمج الثلاثة فتصبح إلهاً واحداً، لتقرير وحدانية اللّه تعالى!!

وقد أفردنا بحثاً خاصاً لفساد (عقيدة التثليث) التي ردَّها القرآنُ، وحَكم بكفر من اعتقد بها في قول الحقِّ جلَّ وعلا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

الفصل الأول

الإيمانُ باللّه واليوم الآخر أساسُ عقيدة التوحيد

الفصل الأول

الإيمانُ بالله واليوم الآخر أساسُ عقيدة التوحيد

العقيدة الإسلامية

معنى العقيدة: العقيدة هي: ما يستقرُّ في القلب من تصديق أو تكذيب، ومن إيمانٍ أو كفرٍ، وهي إمَّا أن تكون عقيدةً صحيحةً، أو عقيدةً باطلة.

فمن آمنَ بوجود اللَّه، وأيقنَ بوحدانيته، فعقيدتُه صحيحة، ومن كفر بوجود اللَّه، ولم يقرَّ له بالوحدانية، فعقيدته باطلة. !

والإيمانُ باللَّه تعالى يستلزم الإيمانَ بجميع الكتب، والرسل، وبالملائكة، واليوم الآخر، وأن يؤمن بالقضاء والقدر، كما بيَّنه الكتاب العزيز: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وكما وضَّحه (جبريل) عليه السلام، حين دخل على رسول اللَّه ﷺ في صورة أعرابي، ورسولُ اللَّه ﷺ جالس مع أصحابه، فسأله عن الإيمان وعن أركانه؟ فقال له المصطفى ﷺ: (الإيمان أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من اللَّه تعالى، قال: صدقتَ)، قال عمر: (فعجبنا له يسأله ويصدّقه)[(١)].

(١) الحديث رواه البخاري، وهو حديث طويل من رواية عمر رضي اللَّه عنه أنه قال: (بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد..) الحديث، وانظر جامع الأصول ١/٢١٦.

الإيمان بوحدانية اللَّه جلَّ وعلا

معنى الإيمان: الإيمانُ معناه: التصديقُ، وهو أن يؤمن الإنسانُ بالقلب، ويُقرَّ باللسان، ويُطبِّق هذا الاعتقاد بسلوكه وعمله، كما كان يقول علماء التوحيد:

الإيمانُ: هو التصديقُ بالجَنَان، والإقرارُ باللِّسانِ، والعملُ بالأركان.

فمن أخلَّ بواحدٍ من هذه الأمور، لم يكن صادقاً في إيمانه، وهو على خَطَر عظيم.

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ومعنى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ أي لم يداخلهم شكٌّ في هذا الإيمان والاعتقاد.

كيف يدخل الشخص في الإسلام؟

إذا نطق الشخص بكلمة التوحيد فقال: (أشهد أن لا إلٰه إلا اللَّهُ، وأشهد أن محمداً رسولُ اللَّهُ) مخلصاً، صادقاً من قلبه، فقد صار مسلماً، ودخل في دوحة (الإسلام)، وكوكبةِ (أهلِ التوحيد) فصار له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، من الحقوقِ والواجبات، وعليه أن يلتزم بأحكام الدين الإسلاميِّ الحنيف.

ففي الحديث الشريف: (من شهدَ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللَّهُ، وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسُولُه، وأنَّ عيسى عبدُ اللَّهِ ورسولُه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه[١]، والجنةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ، أدخلَه اللَّهُ الجنَّةَ على ما كان من العمل) رواه البخاري[٢].

---

(١) أي روح مستقلَّة مخلوقة بقدرة اللَّه تعالى، لم يُخلق من أبوين كسائر البشر، بل هو من (أمّ) بلا أب، وهذا مظهر القدرة الإلٰهية المبدعة، ولهذا أضاف الروح إليه على وجه التشريف.

(٢) رواه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٤٢.

وفي حديث مسلم (مَن شهدَ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللّهُ، وأنَّ محمداً رسولُ اللّهِ، حرَّم اللّهُ عليه النَّار)[١].

ولا يَخْرجُ الإنسان من الإسلام، إلّا (بالكفرِ البَوَاح)، أي الواضح الذي ليس فيه شبهة، كالذي يُنكر أمراً من أحكام الدين، مُجْمَعٍ عليه، أو يكذِّب بشيء من القرآن، فإنه ينسلخ عند ذلك عن الإسلام.

قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

سماحةُ هذا الدين

كان الأعرابيُّ يأتي من البادية، لا يعرف شيئاً عن الإسلام، فيسأل الرسولَ ﷺ: منْ أنتَ؟ وبمَ بعثَكَ اللّهُ؟

فيقول له المصطفى ﷺ: أنا عبدُ اللّه، وأنا رسولُ اللّه، بعثني له لهداية الخلق، وأمرني بكسر الأصنام، وعبادة الرحمن!!

فينشرح له صدر الأعرابي، فيؤمن به ويصدِّقه، وينطق بكلمة التوحيد فيقول:

(أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله) فيصبح مسلماً، ويبشره رسولُ اللّه بالجنة.

كما في رواية مسلم عن جابر رضي اللّه عنه أنه قال: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول اللّه: ما الموجبتان؟ - أي ما الذي يوجب دخول الإنسان الجنة، أو دخوله النار؟ - فقال ﷺ: (من مات لا يشركُ باللّهِ شيئاً دخل الجنَّة، ومن مات يُشركُ باللّه شيئاً دخل النار)[٢].

ركائز الإيمان الستُّ

ومن هنا يتضح لنا أن الإيمان بناءٌ راسخ، يرتكز على دَعَائمَ، وقواعدَ متينة ثابتة، وهذه القواعد[٣] ستة، إذا اختلَّ واحدٌ منها، اختلَّ البناء وتهدَّم،

(١) أخرجه مسلم في الإيمان رقم (٢٩).
(٢) رواه مسلم رقم (٩٣) في الإيمان.
(٣) هي: (الإيمان باللّه، والملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، وبالقضاء والقَدَر).

وأصبح الإنسان على حافَّة الخطر، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ويجب الإيمان بجميع الكتب السماوية، وبجميع الرسل الكرام، دون تفريقٍ بينهم، ومعنى (التفريق) أن يؤمن ببعض الرسل، ويكفر بالبعض، كما فعل اليهود والنصارى، فمن كفر بواحدٍ من الأنبياء والمرسلين، فقد تزعزع إيمانُه، لأنه كذَّب اللَّه تعالى في إخباره وكلامه، بأنه أرسل (نوحاً) و(موسى) و(عيسى) و(محمداً) وسائر الأنبياء الكرام.

وهذا هو التفريقُ بينهم، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

الأركان الستة لصرح الإيمان

أمَّا الأركان الستة لهذا الصرح الشامخ فهي:

١ ـ الإيمان باللَّه تعالى والاعتقاد بوحدانيته.

٢ ـ الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

٣ ـ الإيمان بالملائكة الأبرار الأطهار.

٤ ـ الإيمان بالكتب السماوية المنزَّلة من عند اللَّه تعالى.

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر (يوم القيامة) يوم الحساب والجزاء.

٦ ـ الإيمان بالقضاء والقدر.

وسنتحدث عن كلِّ ركنٍ من هذه الأركان، بشيء من التفصيل إن شاء اللَّه تعالى.

الركن الأول

الإيمان بوجود الله ووحدانيته

الإيمان بوجود اللَّه عَزَّ وجلَّ، فطرةٌ خُلِقَ عليها البشرُ، لا تخصُّ المؤمنين فقط، بل كلُّ إنسانٍ يستشعر من داخل نفسه، بوجود خالقٍ لهذا الكون ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولو تُرِكَ الإنسانُ وشأْنَه، دون أن يكون لأحدٍ تأثيرٌ عليه، لعاشَ على الإيمان، وبقي على الفطرة!!

ولكنَّ عَبَثَ العابثين من ذوي الأهواء الفاسدة، من الأشرار والملاحدة، هم الذين يفسدون على الناس طريق الإيمان، كما أخبر عن ذلك الرسول الكريم ﷺ بقوله: (كلُّ مولود يُولد على الفطرة ـ أي على الإيمان باللَّه ـ فأبواه يهوِّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجِّسانه ـ أي يجعلانه يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً ـ كما تُنْتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تجدون فيها من جَدْعاء)[(١)]؟

التمثيل الإبداعي في الحديث الشريف

انظر إلى التمثيل الرائع، الذي مثَّله عليه الصلاة والسلام، حيث صوَّر الطفل بالشاة، التي يخلقها اللَّه تبارك وتعالى، كاملةَ الخَلْق، جميلةَ الشكل والصورة، ولكنَّ الناس هم الذين يشوِّهون جمالَها، فيقطعون أنفها، أو أذنها، ويعبثون بها حتى تصبح ناقصة الخلْق، مشوَّهة التصوير.!

فالإيمان أصلٌ في الإنسان، والكفرُ عارضٌ فيه، والطفلُ عند ولادته يُخلق على (الفطرة السليمة)، وعلى الصفاء والنقاء، ولكنَّ المجتمع هو الذي يفسده، والبيئةُ السيئة هي التي تلوِّث فطرته، وتُفسد خُلُقه ودينه، لا سيما

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز رقم (١٣٥٨).

(أبواه) إذا كانا على فسادٍ في الدين، واعوجاج في العقيدة، فإنهما ينقلانه من الإيمان إلى الكفر، ومن الهدى إلى الضلال، فيجعلانه يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، كما وضّحه صلوات اللَّه وسلامه عليه في هذا الحديث الشريف.

وكان (أبو هريرة) إذا روى الحديثَ الذي سمعه من رسول اللَّه ﷺ يقول: اقرءوا إن شئتم قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ...﴾ الآية.

إنَّ الإنسان ليستشعر من قرارة نفسه، أن له ربًّا، خالقاً، مبدعاً، حكيماً، ولا ينكر وجودَ اللَّهِ إلَّا الأحمقُ المجنون، الذي عَمِيتْ بصيرتُه، وفَقَد عقْلَه، وما أبدع ما قاله القائل:

فيَا عَجَباً كيفَ يُعْصَىٰ الإلهُ ... أم كيفَ يجحدُهُ الجَاحِدُ
وللَّهِ في كلِّ تحريكةٍ ... وتَسْكينةٍ أَبَداً شَاهِدُ
وفي كلِّ شَيْءٍ لَهُ آيةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أنَّه وَاحِدُ

قصة أعرابي نشأ على الفطرة

رأى شخصٌ أعرابياً يعيش في الصحراء، يمدُّ يديه نحو السماء، يدعو ربه، سائلاً المولى أن ينزل المطر، ليسقي أنعامه ومواشيه، فاقترب نحوه وسأله: كيف عرفتَ ربك؟ وكيف آمنتَ بوجوده؟!

فقال الأعرابي: يا سبحانَ اللَّه!! أَوَيحتاجُ ربُّنا إلى دليلٍ وبرهان على وجوده!؟ أليس كلُّ ما في الكون يشهد بوجوده!؟

ثم أنشأ يقول: (البعرةُ تدلُّ على البعير، وآثارُ الأقدام تدلُّ على المسير، أفسماءٌ ذاتُ أبراج، وبحارٌ ذاتُ أمواج، وأرضٌ ذاتُ فِجَاج - أي طرق ومسالك - ألا تدلُّ على اللطيف الخبير؟)

قانونُ الأثَر يدلُّ على المؤثِّر

حقاً إنه منطق الفطرة، فهذا الأعرابي بسذاجته وبساطته، عرف الدليلَ الذي يرشده إلى اللَّه، ويعرِّفه بوجوده، فمن (الأثَر) يستدلُّ الإنسانُ على (المؤثِّر)، فإذا رأى في الطريق بعراً، عرف أنه مرَّ بهذا الطريق قافلة من الإبل

والبعير، وإذا رأى آثارَ خُطى أقدام، عرف أنه مرَّ بهذا الطريق مجموعة من المسافرين، الذين سلكوا هذا المكان، فإنه وإن لم يَرَهم بعَيْنه، لكنَّه يوقن بأنهم جازوا هذا الطريق، من آثارهم التي تركوها، كما قال القائل:

تلك آثارُنَا تدلُّ علينا فانظروا بَعْدَنا إلى الآثار

إننا نرى في أسفارنا قصوراً، ودوراً، ومعابد، ونرى أهرامات، شَادَهَا الفراعنة، فماذا توحي إلى عقولنا هذه الآثار؟

أَلَا تُنَبِّهنا إلى وجود أقوام، سكنوا هذه الدور والقصور، وشادوا تلك المباني الضخمة، والقلاعَ الحصينة، ثم رحلوا عن هذه الدنيا، رَحَلوا ولكنَّهم تركوا تلك الآثار، فنؤمن بوجودهم، وإن لم نعش الأزمان التي عاشوها!!

يقول الحقُّ جل جلالُه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٢١٨] (أولي النُّهى) أي أهل العقول.

ويقول سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢] فاللَّهُ جلَّ ثناؤه يأمرنا بالبحث والتفكير، والسَّيْرِ في الأرض، لنرى آثار الأمم المكذِّبه، التي طغتْ وبغتْ، وأفسدت في الأرض، وكذَّبت رسل اللَّه، ماذا حلَّ بهم من العقوبة؟ ألم يخرِّب اللَّه ديارهم، ويجعلهم عبرةً لمن يعتبر!؟

مناظرة بين الإمام (أبي حنيفة) وبعض الملاحدة

ذُكر في مناقب الإمام أبي حنيفة رضي اللّه عنه، أن جماعة من الملاحدة جاءوا إليه يطلبون منه أن يناقشهم في (وجود اللّه)، وتحدَّوه أن يقيم لهم الدليل على وجوده. !

فقال لهم: لا بدَّ أن تكون المناظرة على رؤوس الأشهاد، وأن يجتمع الناس ليسمعوا حجة كل فريق، ويحكموا من هو الغالب؟ ومن هو المغلوب؟

حدَّد لهم موعداً بعد شهرين في يوم معيَّن، ليحضر النَّاسُ من كل مكان، ويشهدوا تلك المناظرة.

ولمَّا كان اليوم المحدَّد، حضر جمعٌ غفير من البشر، جاءوا من كل حَدْبٍ وصَوْب، وجاء المنكرون لوجود الخالق جلَّ وعلا، وغصَّ المكان بالحاضرين، وتأخَّر الإمام (أبو حنيفة) عن الموعد ساعات، والناس ينتظرون حضورَه، حتى ضجَّ الحاضرون، وأخذ الملاحدة يلوِّحون بأن (أبا حنيفة) تهرَّب من لقائهم ومناظرتهم، لعجزه عن المناظرة. !

وبينما الناس في ذهول وحَيْرة، إذْ قدم عليهم (أبو حنيفة) يُسرع الخُطَى، فعاتبوه على التأخر، فقال لهم: اسمعوا قصتي وخبري، لتعذروني على تأخري عنكم هذه الساعات!!

قالوا: ما ذا جرى لك؟

اصطَنَعَ لهم عذراً لا يكاد يُصَدَّق، ابتكره من دهائه وفطنته، ليقيم عليهم الحجة، فيما يزعمون من عدم وجود خالقٍ لهذا الكون!!

قال لهم: أرجوكم أن تعذروني، فلقد كنتُ مسافراً إلى البصرة، واللقاءُ بيننا كان في بغداد، وحال بيني وبينكم نهر الفرات الكبير، ولم أر سفينةً تحملني إليكم، ولا أستطيع أن أقطع النهر سباحةً، وبينما أنا متحيِّرٌ في أمري،

كيف سآتي إليكم؟ إذْ بي أرى أخشاباً عظيمةً، تأتي من الغابة بنفسها، ثم ينضمُّ بعضُها إلى بعض، ثم تدخل فيها المسامير، ويصبح لها شراعٌ، وتصبح سفينةً، وتأتي نحوي فأركب فيها وآتي إليكم، فهذا هو سبب تأخيري.

بُهت السامعون، وأخذ المنكرون لوجود اللَّه يتضاحكون، وقالوا: يا أبا حنيفة: اعقِلْ ما تقول، ماذا أصابك؟ هل يُعقل أن سفينةً متقنة الصنع، تُوجد بنفسها، من مجموعة أخشاب بدون صانعٍ لها؟ أتهزأ بنا؟

كيف تصنع سفينةٌ نفسَها بنفسِها، دون صانع ودون مهندسٍ أبدعها؟ أهذا كلام مقبول؟

فقال لهم: ويحكم، إذا لم تصدِّقوا بوجود هذه السفينة الصغيرة، بدون رُبَّان سيَّرها، وبدون صانعٍ أوجدها، فكيف رضيَتْ عقولُكم بوجود هذه السفينة الضخمة (سفينة العَالَم) التي حوت البشَرَ، والأفلاكَ، والأنعامَ، والبحارَ، والأنهارَ، أن توجد بنفسها دون موجد؟ وأن تكون ظاهرة للعيان بدون خالق؟

كيف تقبلون مثل هذا الباطل على أنفسكم، وتقولون: إنَّ هذا الكون البديع، وُجد بنفسه دون خالق؟ فَبُهِتوا لهذا المنطق، وآمنوا واستسلموا، وأعظَمَ الناسُ هذه الحجة الدامغة من (أبي حنيفة) رحمه اللَّه تعالى.

وصدق اللَّهُ العظيم حيث يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾!! [الأنبياء: ١٨].

الأدلة على وجود الخالق جلَّ وعلا

إنَّ الأدلة على وجود (الخالق) جلَّ وعلا كثيرةٌ وساطعة، لا ينكرها إلَّا من فَقَد عقله، وسار به الشيطانُ إلى طريق العَمَى والضَّلال، وسأذكر من هذه (الأدلة العقلية)، بعضَ الأدلة والبراهين، التي لا يمكن أن يكابر فيها مكابر، ولا يجحد بها إنسان عاقل، سأذكر بعض هذه البراهين، ليظهر الصبحُ لذي عينين، فأقول مستمداً العونَ من اللّه:

الدليل الأول: دليلُ الخلق والإحياء.

الدليل الثاني: دليلُ الإبداع والإتقان.

الدليل الثالث: دليلُ الحدَث والمُحْدِث.

الدليل الرابع: دليلُ النظام والمنظَّم.

البرهانُ الأول

دليلُ الخلق والإحياء

أمّا البرهانُ الأول: دليل الخلق والإحياء، فإنَّ كلَّ عاقل يعلم علم اليقين، أن كلَّ مخلوق لا بدَّ له من خالق، كما قال تقدّستْ أسماؤه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢].

إننا نجد مخلوقات متنوعة، من (إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، وسهول، وجبال، وبحار، وأنهار، وأشجار، وأطيار) وعُدَّ ما شئتَ من أنواع المخلوقات، هل يقبل عقلٌ أنها وُجدت بنفسها دون خالقٍ؟

من المستحيل أن يوجد شيءٌ دون موجدٍ له، فمن زعم أن هذه (السيارة) التي نركَبُها، وهذه الطائرة (البوينج) التي تقطع بنا المسافات الشاسعة، وُجدت بنفسها دون مخترع اخترعها، أو مهندسٍ ابتكرها، نرميه بالجنون، إذْ كيف

توجد هذه الآلات الدقيقةُ الصنع، في الطائرة، أو السيارة، بهذه الدقة والإتقان، دون مهندسين بارعين، بذلوا جهوداً مضنية في صنعها واختراعها!؟

لا يُتصوَّر قصرٌ بدون مهندس

إذا شاهدتَ قصراً فخماً مشيداً، قد بُني على أحدث طراز، وبأبدع هندسة وتصميم، تبهر العقل، وتجعلك معجباً أشدَّ الإعجاب، بهذا المهندس البارع، والباني الذي بَنَى هذا القصر، وجاءك من يقول: إنَّ هذا القصر الفخم، لم يصمِّمه (مهندس)، ولا بناه (بنَّاء)، وإنما تدحرجت الحجارةُ من الجبل، ورُصف بعضُها فوق بعض، وحصلت فيها الأبواب والشبابيك، دون نجَّار، ولا حدَّاد، وصارت قصراً مشيداً، بهذا الشكل البديع!! ألَا ترميه بالسَّفه والجنون؟

هل عند إنسان ذرَّةٌ من عقل، أنْ يقبلَ بمثل هذا المنطق والهُراء؟

هذا البرهان هو الذي نبَّه عليه القرآن الكريم، حين أشار إلى (دليل الخلق والإيجاد) في آياته البينات، استمع إلى قولِ الحقِّ جلَّ وعلا، في مناقشة المنكرين لوجود الله، حيث يقول سبحانه:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؟ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وجود المخلوق دليلٌ على الخالق

الأسلوبُ أسلوبُ إفحام وتعجيز، وإنكارٍ وتوبيخ، يقول القرآن الكريم: هل وُجدوا بدون خالقٍ خَلَقَهم؟

هذا باطلٌ بالبَدَاهة والعقل، فإنَّ الصَّنْعةَ لا بدَّ لها من صانع، والمخلوقَ لا بدَّ له من خالق، فكيف يوجد شيءٌ من غير موجِد؟

أم هم خلقوا أنفسَهم دون خالق؟ هذا في البطلان أشدُّ من سابقه، فإنَّ المعدومَ، لا يمكن أن يخلق شيئاً، إذ هو غير موجود، وهم قبل ذلك كانوا في العَدَم، كما قال سبحانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ﴾؟ [البقرة: ٢٨].

فهل يتجرأ عاقل أن يقول: أنا الخالقُ لنفسي، لم يخلقني أحد؟

إنَّ هذا باطلٌ بالبداهة والعقل، لأنه لو كان ذلك بقدرته، لخَلَق نفسه بأجمل هيئةٍ، وأبدع شكل، فهذه الدعوى باطلةٌ من الأصل، لا يتجرأ أحدٌ أن يتفوَّه بها، أو يقولها حتى في نفسه، حتى ولو كان ملحداً، لا يؤمن بوجود اللّٰه تعالى!؟.

الاستفهام الثالث: أم يزعمون أنهم هم الذين خلقوا السموات والأرض؟ وهذا أشدُّ في البطلان من سابقَيْه، لا يستطيع أن يقوله أحد، مؤمنٌ ولا كافر، ولا يجرؤ مخلوقٌ من البشر، أن يقول: إنَّ السموات والأرض من خلقي، بل إنَّ الكفارَ الذين كانوا يعبدون الأحجار، إذا سئلوا من خلقكم؟ وخَلَق السموات والأرض؟ قالوا: اللّٰهُ، وما نعبد هذه الأصنامَ، إلَّا ليقرِّبونا إلى اللّٰه تعالى.!

كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧] أي كيف يُصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان؟

إنهم يقرُّون بأن اللّٰه هو الذي خلقهم ثم يعبدون غيره، وهذا أمر عجب.!بل هو أمر عُجَابُ، في منتهى الغرابة والاستعجاب!!

الافتراضاتُ الثلاثة حول الخلق

وفي هاتين الآيتين المعجزتين بأسلوبها المفحم، وَضَعَهم القرآنُ الكريم أمام ثلاث فَرَضيَّات:

الأول: أن يكون وجودهم هكذا صُدفةً، من غير خالق خَلَقهم، وهذا ظاهر البطلان، لأن المخلوق لا بدَّ له من خالق.

الثاني: أن يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم، وهذا أشدُّ من سابقه في البطلان.

الثالث: أن يكون لهم خالقٌ، حيٌّ، جليلٌ، قدير، خَلَقهم فأبدع خلقهم، وهو اللّٰهُ جلَّ وعلا، ربُّ العزة والجلال، الكبير المتعال!

فإذا بطل الفَرْضان السابقان ـ بمنطق الفطرة والعقل ـ ثبت الفَرْضُ الثالث، أن اللّٰه خالق كل شيء!!

هذه البراهينُ من حجج القرآن الباهرة، في إفحام الخصم، بمنطقٍ واضح، سهلٍ يسير، ولله درُّ هذا الكتاب المعجز، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

شبَّه تعالى الحقَّ بقذيفةٍ نارية ـ قنبلة ـ تُقذف على رأس الضلال والباطل، فتشدَخُه وتُرديه قتيلاً!!

البراهين على الخلق من القرآن الكريم

هذا البرهانُ (دليلُ الخلق) لفتَ القرآنُ الكريم أنظارَ البشر إليه، في آيات عديدة من الكتاب العزيز، لأنه (الأصلُ الأصيلُ) في إثبات وجود اللّه تعالى ووحدانيته، فلا تكاد سورةٌ من سور القرآن الكريم، تخلو من التذكير بالخلق والإيجاد، لينبّه تعالى العباد على عَظَمته ووجوده.

الأول: **اقرأ قوله تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] نبَّه بلفظ (الخلق) على الخالق، أي اعبدوا ربكم الذي خلقكم من العدم، وخلق آباءكم وأجدادكم، وخَلَق جميع المخلوقات، اعبدوه لتتقوا عذابه، فهو وحده الإلٰه الخالق، المستحقُّ للعبادة.

الثاني: **وفي إثبات وجوده سبحانه**، أقام تعالى البرهانَ على فساد عبادة الأوثان، فقال عزَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ [النحل: ١٧].

أي هل الإلٰهُ الخالق المبدع، الذي خلق هذه المخلوقات، وأوجدها من العدم، كالأصنام التي لا تخلق شيئاً، ولا تعرف من عَبَدها ممَّنْ دَحَاها أو دَحْرجها؟ لأنها جمادات لا تسمع ولا تبصر، ولا قدرة لها على فعل شيء أصلاً، فكيف تسوُّون بين الخالق القادر، وبين الضعيف العاجز؟

الثالث: **وقال سبحانه**: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢١] أي إنَّ هذه الآلهة المزعومة، مخلوقة نحتَها البشرُ بأيديهم، فكيف تَحْسُن عبادتها؟ وكيف تكون آلهة تُعْبَد من دون اللّه؟ وهم لا يخلقون شيئاً أصلاً!؟

التشنيعُ على من عَبَد الأصنامَ

الرابع: **وزيادة في التقبيح والتشنيع على من عبدها** من دون اللّه، قال سبحانه: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

أي هذه الأوثانُ أموات لا أرواح فيها ولا حياة، فكيف تعبدونها، وأنتم أفضل منها؟ لما فيكم من الحواس والحياة؟

الخامس: وفي سورة الأعراف، شنَّع سبحانه على المشركين في عبادتهم للأصنام، وترْكِهِم عبادةَ الواحد الأحد، الذي لا يعجز عن خلق أيِّ شيء أراده، في هذا الكون البديع، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴾[الأعراف: ١٩١ـ١٩٣].

تفسير الآيات الكريمة

ومعنى هذه الآيات الكريمة: أيعبدون من دون اللَّه أوثاناً، لا تقدر على خلق أيِّ شيء أصلاً، وهي ذليلة ضعيفة مخلوقة؟ ومن حقِّ الإلٰه المعبود، الذي يستحق العبادة، أن يكون خالقاً لا مخلوقاً، ثم إنَّ هذه الأصنامَ لا تستطيع نصرهم، ولا تقدر أن تدفع عن نفسها أذى، ممَّنْ أرادها بسوء، لأنها في غاية العجز والضعف، فكيف يليق بالعاقلِ عبادتُها!؟

السادس: وقد زاد في الإنكار والتوبيخ على من عَبَدها، وساوى بينها وبين الخالق الحكيم القدير، فقال سبحانه: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

والمعنى: هل لهذه المعبودات من الأحجار والأخشاب، أرجلٌ تستطيع المشي عليها؟ أم لها أيدٍ تقدر على البطشِ بمن أراد السوء بها؟ أم لها أعينٌ ترى من التجأ إليها وعَبَدها، لتستجيب له الدعاء؟

أم لها آذانٌ تسمع بها الكلام؟ فكيف يليق بالعاقل عبادتها، وهي صمَّاءُ، عمياءُ، بكماءُ، عاجزة عن فعلِ أيِّ شيء؟

مثلٌ رائع يضربه القرآنُ لعبدةِ الأوثان

السابع: وفي تمثيلٍ رائعٍ بديع، ذكر سبحانه في سورة الحج، سفاهة المشركين وقلة عقلهم وإدراكهم، في عبادة هذه الأصنام الحقيرة، التي لا تقدر

على خلق ذبابةٍ، أو بعوضةٍ، أو أقلَّ من ذلك، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

أي يا عبدة الأوثان والأحجار، لقد ضرب اللَّه لكم مثلاً فاعقلوه وتدبَّروه، إن هذه الأوثان التي عبدتموها من دون الرحمن، لن تقدر على خلق ذبابة، ولو اجتمعت واتَّحَدَتْ على خلق هذه الحشرةِ الضعيفةِ الحقيرة، ما قدرتْ على ذلك!؟ ولو أنَّ هذه الذبابة سلبت شيئاً من الطعام أو الطِّيب، الذي كانوا يدهنون به الأصنام، لما استطاعت تلك الآلهة المزعومة استرجاعَه.

ضعُف العابدُ الذي يطلب الخيرَ والنَّفعَ، من هذا الصَّنَم الحقير، وضَعُفَ المطلوب وهو الوثنُ الذي عُبد من دون اللَّه، فكلٌّ منهما حقير وضعيف.

يا له من تمثيل رائع، في ذروة البيان والإبداع، يدركه الذكيُّ والغبيُّ، والعالِم والجاهل!؟

لماذا اختار القرآنُ ذكرَ الذباب؟

تذكيرٌ وتبصير: لقد عَبَد المشركون حجارةً وأخشاباً، عمياءَ بكماءَ صمَّاءَ، لا تستطيع مجتمعةً أن تخلق ذُبابةً، فضلاً عن أن تخلق إنساناً، سميعاً، بصيراً، متَّصفاً بالعقل والإدراك، والقوة والإرادة؟

ويختار القرآن الكريم ذكر (الذُّباب) بالذات، لضعفه، ومهانته، واستقذاره، لم يقل سبحانه: لن يخلقوا جَمَلاً، أو بقرةً، أو فيلاً، لِيُبْرِز حقارة معبوداتهم التي جعلوها آلهة، وعبدوها من دون الرحمن؟

وإنَّما ذكَرَ الذبابةَ لحقارتها، ومعلومٌ أنَّ خلق الذبابة مستحيل، كخلق الجمل والفيل، لأن الذبابة تحتوي على ذلك السرِّ المعجز (سرِّ الحياة) الذي هو في (الذبابة) كما هو في الإنسان والحيوان، فالذبابة لها روح، وفيها حياة، وهي على صغرها ـ تأكل وتطير، وتقف على الأنجاس والقذرات، وتولِّد للإنسان الأمراضَ الوخيمة، فإذا عجزت الآلهةُ المزعومة (الأصنام) على خلق ذبابة، فكيف تقدر على خلق ما هو أعظم وأضخم؟

وينبغي أن نعلم أن أعدى عدوٍّ للإنسان الذُّباب، فإنه يحمل أفتك أنواع المرض الخطير، يحمل «ميكروب» مرض (السلِّ)، و(التيفوئيد)، و(الدسنتريا)، و(الرَّمد)، ويسلب نور العيون، فيَعْمَى الإنسانُ بسببه، وقد يسلب الحياة والأرواح، وهو الضعيفُ الحقير.

وهذا أعظمُ إنذار للبشر، على ما يحمله الذبابُ من خطر، فلا عجب أن يضرب به القرآن المثل، ليتَّقوا خَطَره وضَرَره!!

مخلوقات بديعة في الكون المنظور

وفي سورة (لقمان) نبَّه تعالى على بديع خلقه، في هذا الكون المنظور، وما أظهر فيه من بديع الخلق والصَّنْعة، فقال سبحانه مُشيداً بعظمته، وجميل خلقه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

ذكر تعالى من مخلوقاته، أنواعاً من الخلق البديع، الذي خَلَقَه اللّه لنا بقدرته، دون أن يُعِينَه على الخلق أحدٌ!!

- **ذَكَرَ أولاً خلْقَ السموات البديعة**، وهي بناء محكم رفيع، لا تستند على أعمدة، والناسُ يشاهدونها واقفة هكذا بقدرة اللّه جلَّ وعلا.!
- ثم خَلَق ما تحت هذه السموات، من كواكب مضيئة، وشمس، وقمر، ونجوم، ومجرَّات، كلُّها تسبح في هذا الفضاء الواسع.!
- **وذَكَر تعالى ما خلقه في الأرض من جبال ثوابت،** لئلا تضطرب بالبشر فتهلكهم.! ثم أتبعها بخلق أنواع الحيوانات، والدواب، والطيور، والزواحف، ومن كلِّ مأكول، ومركوب، ممَّا يحتاج إليه البشر.
- **ثم ذكر نعمة الماء الذي أنزله اللّهُ من السماء**، رحمةً بالعباد، لأن الماء عنصر الحياة الأساسي، فأنبتَ بهذا الماء من كل صنف من النبات، وكلِّ نوع من الأطعمة والأغذية.
- **ثم خَتَم الآيات بتذكير العباد بالخلق البديع**، الدالِّ على وحدانيته ووجوده فقال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؟

أي هذا خلْقُ اللّهِ وإبداعُه، وهذه مخلوقاتُه الدالةُ على وجوده، في (الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد)، فأروني ماذا خلقت الأوثانُ

والأصنام من مخلوقات؟ حتى نعلم استحقاقها للألوهية والعبادة؟

وهو سؤالٌ فيه (السخريةُ والتهكُّم) بالمشركين وآلهتهم المزعومة!!

هذه براهين خمسة في هذه الآيات الكريمة، تلفت الأنظار إلى وجود الخالق المدبّر العظيم، الذي أبدع جميع مخلوقاته، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير.!

دعاء: إلٰهي دَلَّنا بديعُ خَلْقك على وجودك!! ودَلَّنا جميلُ كرمك وعطائك على فضلك!! فارزقنا شكر نعمك يا أرحم الراحمين!!

البرهان الثاني

دليل الإبداع والإتقان

أما البرهان الثاني على وجود الخالق جلَّ وعلا، وتَصَرُّفِه في هذا الكون، فهو دليل **(الإبداع والإتقان)**: فإنَّ من نظَرَ إلى هذا الكون الفسيح، بعين العِظَة والاعتبار، تهديه بصيرتُه إلى وجود خالقٍ، مبدع، حكيم، أبدع الخلق، وأحسن الصُّنعة!!

خذ مثالاً على ذلك: خلقُ الإنسان في أحسن صورة، وأبدعِ إتقان، يقول الحقُّ جلَّ وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

أي خلقناه في أبدع صورة، وأحسن شكل، في غايةٍ من الإبداع والإتقان، يمشي منتصبَ القامة، مستوياً على قدميه، يأكل بيده، ويمشي على رجليه، بينما سائر الحيوانات تأكل بفمها، وتمشي على أربع، وهي منكوسة على وجهها.!

تصوَّرْ لو أنَّ اللَّه عزَّ وجل، جَعَل عينيْ الإنسان في رأسه، لا في وجهه كيف سيمشي؟ سوف يضطرُّ إلى أن ينكِّس رأسَه، ويمشي كالدابة، والحمار ليرى الطريق.!

إبداعُ الخالق في خلق الإنسان

وتفكَّرْ كيف أبدع اللَّه في الإنسان (جهاز الهضم) لتناول الطعام، كيف رتَّبها ترتيباً محكماً دقيقاً، فلو كانت الأضراس في المقدمة، لمضغ الإنسان شفتيه، وقَطَع لسانَه، عند تناول كل وجبةٍ من الطعام، ولكنَّ اللَّه بحكمته، وتدبيره وإتقانه، جعل الأسنان في مقدِّمة الفم، تليها الأنيابُ لتقطيع الطعام، ثم على اليمين والشمال جعل الأضراسَ، للمضغ وطَحْنِ الطعام، أفليس هذا من الإبداع والإتقان!؟

وانظر بعين الاعتبار، إلى هذه العمارةِ الضخمة العملاقة (البُنْيةِ الإنسانية)

كيف ركَّب اللَّه فيها هذه الأجهزة الدقيقة، أبدع تركيب، وجعلها تقوم بمهماتها على أكمل الوجوه، كلُّ جهازٍ يؤدِّي مهمَّتَه (جهازٌ للسمع) و(جهازٌ للبصر) و(جهازٌ للهضم) و(جهازٌ للتنفس) و(جهازٌ للدورة الدموية) وفي الإنسان معاملُ ومصانعُ، في غاية الدقة والإتقان. !

هذه **(الكُلْيَةُ)** التي هي بحجم (بيضة الدجاجة)، ماذا تقوم به من عمل جبَّار؟ إنها تُنَقِّي الدَّم من السُّموم، ليتخلَّص منها، ولولاها لفقد الإنسان حياته. !

وَلَوْ احتَجْنا إلى صنع (كُلْيةٍ صناعية) تقوم بعمل الكلية التي خلقها اللَّه، لاحْتَجنا إلى جهازٍ ضخم، في حجم غرفة كبيرة يسكنها الإنسان، كما نشاهد ذلك في بعض المستشفيات (لغسيل الكُلى) وهي على ضخامتها لا تقوم بواجبها على الوجه الأكمل، لأن المريض يحتاج إلى تكرار الغسيل في كل ثلاثة أيام أو يومين، ويحتاج إلى أن يبقى تحت رحمتها إلى ساعات، مع المراقبة الدقيقة، والتعب المضني. !

وقل مثْلَ ذلك في دِقَّة (الإبداع والإتقان)، في العينين، وفي النطق، والإحساس، والعقل، والبَصَر، وسائر ما خلق اللَّه في جسم الإنسان، لتشكر اللَّه على نِعَمه، وتتذكَّر قول اللَّه العليِّ الكبير.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ [الذاريات: ٢١، ٢٢].

في خلق البشر عظاتٌ وعِبَر

وفي أنفس البشر آياتٌ وعِبَر، من مبدأ الخلق إلى منتهاه، أفلا تبصرون قدرةَ اللَّه وإبداعَه، في خلقكم ووجودكم، من اختلاف (الصُّوَرِ، والألسنة، والألوان، والطبائع، والأشكال، والسمع، والعقل، والبصر)!!.

هذا اللسانُ قطعة صغيرة من اللحم، ماذا أودع اللَّه فيه من السرِّ الدقيق؟

إنه ينطق، ويتكلَّم، ويعبِّر عمَّا في ضمير الإنسان من خفايا وأسرار، الإنسانُ وحده هو الناطق الذي يتكلَّم، وسائر الحيوانات عجماوات لا تستطيع النطق!!

البقرةُ لسانُها أكبرُ من لسان الإنسان، فلماذا لا تتكلَّم؟

وكذلك الجَمَلُ وسائرُ الحيوانات والدوابِّ، لها لسانٌ ولا تستطيع النُّطْقَ والكلام.

إنه السرُّ الإلهيّ الذي أوجده اللَّه في الإنسان.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾؟ [البلد: ٨ ـ ١٠].

والمعنى: أَلَمْ نكرِّم هذا الإنسانَ، فنجعل له عينين يُبْصِر بهما؟ ولساناً يَنْطِقُ به، فيعبِّر عما في ضميره؟ وشفتين يطبقهما على فمه، ويستعين بهما على النطق، والأكل، والشُّرْب، والنفخ؟

أليس هذا الخلقُ والإبداعُ، من أعظم الدلائل والبراهين، على وجود اللَّه وحكمته وقدرته؟

وهنا يتذكر الإنسانُ نعمة اللَّه عليه، بخلقه في هذه الصورة البديعة، فيلهج لسانه بالشكر والثناء، ويقول ما قاله بعض العلماء: (سُبْحانَ من أنْطَق بلَحْمٍ، وأسْمَعَ بعَظْمٍ، وأَبْصَر بشَحْمٍ)!!

جميعُ ما في الكون براهينُ على وجود الخالق

- **ثم انظر إلى جميع ما حولك من عجائب ومخلوقات هي في غاية الإبداع والإتقان**، لتشهد وجود اللَّه وعظمته وجلاله، في (النبات، والشجر، والثمر)، فتحويلُ التراب مع الماء إلى غذاء، وتحويلُ الغذاء في جسم الإنسان إلى دماء، وتحويلُ الدماء إلى نُطَف، يخلق اللَّه منها الأنثى والذكر، كلُّها شواهد على وجود اللَّه ووحدانيته!!

اقرأْ قولَه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] أليس خلقُ الإنسان بهذا الإبداع والإتقان، معجزةُ المعجزات؟!

- **واستمعْ إلى قول اللَّه العلي الكبير، وهو يسوق الأدلة على وجوده ووحدانيته:**

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦٤].

خمسة براهين على الوحدانية

- **هكذا ساق القرآنُ خمسةَ براهين في هذه السورة**، على وجوده، وألوهيته، ووحدانيته، وكلُّها براهين ساطعة على (الإبداع والإتقان)، والتفرُّد بالخلق والإيجاد، لا يستطيع المشركون أن يكابروا فيها، أو يعاندوا!

فالسماءُ، والأرض، والجبال، والبحار، والأنهار، والمطر، والزرع، والشجر، والثمر، كلُّها حقائق من الطبيعة موجودة، لا يستطيع أحد أن يزعم أنه خَلَقَها، فلم يبق أمامهم إلَّا الإقرار، بوجود الخالقِ المبدع الحكيم ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ...﴾ [لقمان: ١١] أي هذا خلقُه تعالى وإبداعُه، وهذه مخلوقاتُه في الإنسان، والحيوان، والنبات، فأروني ماذا خلقت الأصنامُ والأوثانُ، حتى عبدتموها من دون الرحمن؟ وهو سؤالٌ فيه (السخريةُ والتهكم) بالمشركين، وآلهتهم المزعومة. وفي جميع هذه المخلوقات إبداعٌ في الخلقِ والصنعة ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

البرهانُ الثالث

دليل الحَدَثِ والمُحْدِث

- **من أحكام العقل البَدَهية، استحالةُ وجودِ شيءٍ من نفسه، بدون مُحْدِث،** فالصنعةُ لا بدَّ لها من صانع، والأثَرُ لا بدَّ له من مؤثِّر، والمخلوقُ لا بدَّ له من خالق. !

هذا هو قانونُ (الحَدَث والمُحْدِث) فإذا رأينا بيتاً في صحراءَ، واسعة شاسعة، لا يقبل عقلٌ أن يكون هذا البيت، حدث في هذا المكان بدون مُحْدِث له، بل يقضي العقلُ بأن هناك شخصاً بناه، لأن هذا البيتَ (حادث)، فلا بدَّ له إذاً من (مُحْدِث). !

الطفلُ الصغيرُ الذي لم يتجاوز سنَّ الخامسة من العمر، إذا كَسَر إناءً من الزجاج، وسألتَه: من كسر هذا الإناء؟ فلا يجيبك بقوله: إنه انكسر من نفسه، إنما يقول: أخي كسره، أو ابنُ عمي كَسَره، ولا يقبل عقلُه المحدود، أن يقول: هكذا حدث الأمرُ من تلقاء نفسه، وانكسر الإناء. !

- **حتى الحمارُ إذا ضربه أحد بعصا،** أو وَخَزَه بمسلَّة، يركض أو يرفس برجله، لأنه يعلم أن هذا الحَدَث لم يحدُثْ من تلقاء نفسِه، إنما بفعل فاعل، فكيف يقبل ملحدٌ على نفسه أن يقول: إنَّ هذا الكونَ، وهذه النجومَ والمجرَّات، والجبالَ والأنهارَ، والبحارَ، حدثت لنفسها، دون خالق مُبْدع حكيم؟ وأن يَتَصوَّرَ أنَّ الإنسانَ، والحيوانَ وسائرَ المخلوقات، ظهرتَ بطبعها بفعل عواملَ كونية، ولم يخلقها إلٰه قدير؟!

- **وهنا ندرك روعة حجة البدويِّ الأعرابي،** حين سُئل: كيف اهتديتَ إلى اللَّه؟ فقال ببساطة فائقة: (البعرةُ تدلُّ على البعير، وآثارُ الأقدام تدلُّ على المسير، أفسَمَاء ذات أبراج، وبحارٌ ذات أمواج، وأرضٌ ذات فِجَاج، ألا تدلُّ على السميع البصير)؟

إننا لا نبحث عن حدوث (المادة الأولى) للخلق، من أحدثها؟ وكيف

حدثت؟ وإنما نبحث كيف تحوَّلتْ هذه المواد الأولية، إلى مصنوعات مُتْقَنةٍ غاية الإتقان، ومُنَظَّمةٍ غاية التنظيم، لنعرف من صنعها وأبدعها!!

الساعة التي يحملها الإنسان في يده، ومصنع النسيج الدقيق الصنع، الذي يخرج أنواع الأنسجة الزاهية، والمطابع الحديثة التي تطبع الكتبَ، والصحفَ، والمجلَّات، بأحدث أنواع التقنية، وفيها ما يدهش العقول والألباب، هذه المخترعات المحْدَثة، هل وُجدت بنفسها، دون مخترعٍ مبدعٍ وصانع بارع؟

هل تقبلُ أن يقولَ لك قائل: هذه المخترعات لم يخترعها أحدٌ، إنما حدثت صُدفةً من اجتماع الأدوات الحديدية، والتقاء بعضِهَا مع بعض، صارت آلاتٍ ومكائنَ؟ لا شك أنَّك تتَّهمُه بعقله، وترميه بالسَّفه والجنون؟

قصَّةُ أولادٍ يسألون أباهم عن أمور شاهدوها

اجتمعَ ذاتَ يوم أطفالٌ مع أبيهم، فبادروه بالأسئلة الآتية:

كيف وُجدنا؟ ومن أوجدنا؟ من الذي يسيِّر الشمسَ فتشرق ثم تغرب؟ من يرعى النَّباتَ والشَّجَر؟ من ينبت الحبَّ والثَّمَر!؟ من يجعل القمر هلالاً، ثم يتدرَّجُ فيصبح بدراً، ثم يتناقص حتى يصبحَ دقيقاً كالخيط؟ ثم يغيب فلا يبقى له أثر؟

إلى غير ما هنالك من أسئلة كثيرة؟!

فقال لهم أبوهم: يا أبنائي الذي يفعل ذلك، هو (اللَّهُ ربُّ العالمين)، خالقُ كلِّ شيء، وهو على كل شيء قدير!

فسألوه: أين اللَّه؟ فقال لهم: إنَّ اللَّهَ كبيرٌ عظيم، لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفكار، إنَّما هذه الأمور التي ذكرتموها من آثاره، فنحن لا نرى اللَّه، وإنما نعرفه من مخلوقاته وآثاره، وتلا عليهم الآية الكريمة: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الروم: ٥٠].

الوالد يقصُّ على أبنائه قصة غريبة

ثم جَمَعهم أبوهم ذات ليلة، وقصَّ عليهم هذه القصة:

سار جماعة من أهل البادية، من القبائل النائية، البعيدة عن مواطن الحضارة، الذين لم يروا مراكبَ برّية، ولا جوّية، ساروا في صحراء، وبينما هم سائرون، عَثَرُوا على مركبة تشبه القُبَّة، ظنُّوها قبة مبنية في صحراء.!

بَحَثُوا عن باب هذه القُبَّة فلم يهتدوا إليه، ثم وقعت يد واحدٍ منهم صدفةً على (زُرٍّ) دون شعور، فانفتح الباب.

فقالوا: لقد انفتح بابُ القُبَّة، فتسارعوا إليها ودخلوا يبحثون عمَّا في

داخلها، فوجدوا فيها (آلاتٍ) و(أجهزةً) مختلفة، ولكنهم كانوا على حَذَرٍ أن يمسُّوا شيئاً منها، وكانت هذه المركبة من المراكب، التي تُسيَّر بواسطة (الرَّادار) من مركزٍ توجيهٍ بعيد. !

أحسَّ أصحابُ المركبة أنها مصحوبةٌ بصَيْدٍ ثمين، من البَدْو السُّذج البُدَائيين، فحرَّكوها عن طريق التوجيه من بُعد، فانطلقت المركبةُ صاعدةً نحو السماء، وفوجئ هؤلاء المساكينُ، بأنها تطير بهم، فأصابهم هَلَعٌ وفَزَع، ولم يستطيعوا الفرارَ، وقد صاروا في الجوِّ، ولو خرجوا منها لهَوَوْا إلى الأرض، واندقَّتْ أعناقُهم فتحطَّموا. !

ظنُّوا أنَّ الشياطين تُسيِّر هذه المركبة!!

وقال أحدهم: يمكن أن تكون هذه حيواناً عجيباً، أو طائراً له بطنٌ كبير، يصلح لركوبِ الناس.. ثم هبطت بهم المركبةُ، إلى جانب قصر عظيم، ليس فيه أحد من الناس، فخرجوا نحو باب القصر متسابقين إليه. !

انفتحُ باب القصر أمامهم بطريقة آليَّة ـ كهربائية ـ فلمَّا دخلوه رأوا فيه من كل أمر عجيب وغريب، رأوا فيه مقاعدَ للجلوس مريحة، وأسرَّةً مزخرفةً للنوم عليها، وقاعةً ضخمة للطعام، ومطبخاً فيه من أصناف الأطعمة والأغذية، وفيه ستائر تغطّي النوافذَ، وداروا في جنباته فرأوا قاعةً كبيرة للاستقبال، مفروشةً بأفخر أنواع السُجَّاد، وشاهدوا فيه قناديلَ معلَّقة في سَقْف البَهْو، وشاهدوا في هذا القصر من كل شيء مدهش وعجيب!

أخذوا يفكِّرون في أمرهم، فقال بعضهم: إنَّ شيئاً خفيًّا مغيَّباً عنَّا، هو الذي أوصَلَنا إلى هذا القصر، وهو الذي رتَّب كلَّ شيء فيه، وهو الذي نظَّم وأتقن كلَّ ما رأيناه، وشاهدناه من عجائب، ولا بدَّ أن يكون هذا القصرُ، بناه مهندسون بارعون، وعمَّالٌ متقنون، بَنَوْه على غاية من (النظام والإتقان)، بَنَوْا هذا القصر ليكون مجلساً للملِك. !

وقال بعض الحمقى المجانين: لا تَعْجَلوا في الأمر، فهذه الأمور التي شاهدتموها منظَّمة، وبديعة، ومتقنة غاية الإتقان، إنَّما حدثت من تلقاء نفسها على سبيل (المصادفة)، وليس هناك (بانٍ)، ولا (صانع)، ولا (مهندس)، وإنَّما ظهر هذا القصر في هذه الصحراء بمجرد الصُّدْفة!!

فيا أبنائي الأعزَّاء: الذين أثبتوا أنَّ هذا القصر، شَادَه عُمَّال ومهندسون بارعون، وأيقنوا أنه لم يوجد بنفسه، وإنما هناك قوة خفية صنعت هذا القصر، ونظَّمَتْه على غاية الكمال والنظام، نجحوا في الامتحان، وعرفوا الحقيقة، وإن لم يروا من صَمَّمَه وبناه. !

والذين اعتقدوا أن القصر، وُجد هكذا صُدفة من تلقاء نفسه، سقطوا في الامتحان، وثبت أنهم (حمقى مجانين)، لأنهم لم يفكِّروا بعقولهم، فأثبتوا حادثاً بدون مُحْدِث، وصنعةً من غير صانع، وقصراً مشيداً محكماً، بدون مهندسٍ بارع، أفلا يستحقون أن نضحك عليهم!؟

الذين فكَّروا بعقولهم، وأثبتوا أن هذا القصر العجيب، المنظَّم غاية النظام، والمتقن غاية الإتقان، لم يحدث بنفسه، وإنما له موجِدٌ وصانع، هم **(أهلُ الإيمان)**، فقد أُكْرِموا غايةَ الإكرام، وفُتِحت لهم أبواب الجِنَان، فقد عرفوا الحقيقة، ونجحوا في الامتحان!

وأمَّا الحمقى المجانين، الذين أنكروا أن يكون للقصر مهندس بارع، وصانعٌ لامع، فقد سقطوا في الامتحان، ثم وجدوا أنفسهم مطرودين من القصر، يُضْرَبون بالسِّياط، ويُجرُّون بالسلاسل، ويساقون إلى أقبية العذاب، أذلَّاء مهانين، فإنهم هم **(الكُفَّار)**، جَحَدُوا الصانعَ، وأنكروا الخالق، فاستحقُّوا عذاب النار!!

هذا يا أبنائي مَثَلُ المؤمنين العقلاء، الذين فكَّروا بعقولهم، فاهتدوا إلى الإيمان بالخالقِ، المبدع الحكيم، ومَثَلُ الكفار السفهاء، الذين عطَّلوا عقولهم، فكان مصيرُهم نارَ الجحيم(١). !

وصَدَق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] (ذرأنا): خلقنا.

والمعنى: لقد خلقنا خلائقَ كثيرينَ لنارِ جهنم، ليكونوا لها وقوداً وحطباً، لهم قلوب معميَّة، لا يفقهون بها الحقَّ، ولهم أعينٌ لا يُبْصِرون بها

(١) انظر كتاب براهين وأدلة إيمانية لفضيلة الشيخ حبنكة الميداني ص١٥٨.

طريقَ الرشاد، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها المواعظَ والنصائح، أولئك كالبهائم والحيوانات، بل هم أضلُّ منها وأسوأ حالاً، لأنَّ البهائم تُدرك منافِعها ومضارَّها، وهؤلاء الكفار لا يميِّزون بين المنافع والمضار، أفلا يكونون أسوأ حالاً من الدواب والبهائم!؟

لقد أثبت القرآن لهم القلوبَ، والأسماع، والأبصار، لكنهم لم يستفيدوا منها، فصاروا كالبهائم السارحة، تسمع ولكنها لا تفهم ولا تعي.

البرهان الرابع

وحدة النِّظام الكوني

انظر بعين البصيرة إلى ما حولك في هذا (النظام الكونيِّ) البديع، تجدْ فيه (وَحْدةَ النظام)، بَدْءاً من (عالم الذرَّات) إلى (عالم المجرَّات) وهي بوضوحٍ وجلاءٍ تدلُّ على (وحدة المنظِّم)، المبدع الحكيم. !

دليل الإبداع في خلق الإنسان

الإنسان من حيثُ هو إنسان، مخلوق بتركيب بديع عجيب، لا يختلف إنسان عن آخر، إلَّا في الهيئة، واللون، والطول، والقِصَر، أمَّا (الصورة الإنسانية) فواحدة، لا يختلف فيها إنسان عن آخر في التركيبة، والصورة. !

لا نجد مخلوقاً من البشر، صورتُه صورةُ إنسان، ورأسُه رأسُ حمار، ولا شخصاً يمشي على أربع بصورة إنسان، أو بصورة قرد، لأن الذي خلق هذا (النوع الإنساني) قد أبدع خَلْقه، فجعله متناسب الأعضاء، متكامل الصورة، متجانساً مع غيره من أبناء جنسه، فلا يختلف الإنسان (الصينيُّ) عن الإنسان (الأمريكي)، ولا الشرقيُّ عن الغربيِّ، إلَّا في اللَّوْن واللِّسان ـ اللغة ـ أمَّا الخلقُ والتركيب فواحد، ممَّا يدلُّ على أن الأمرَ يخضع لإرادة (منظِّم واحد) اختار لخلقه هذا الأسلوب من النُّظم، التي لا عدَّ لها ولا حصر!

إثبات وحدة الصانع

لو كان الصانعُ غيرَ واحد، لتنوعت الأشكالُ والأنفسُ والصُّور، ورأينا العجب العُجاب من المخلوقات المتباينة في البشر.

هل رأيتم إنساناً له ثلاثة رؤوس، وعدَّةُ أرجل يمشي عليها!

هل شاهدتم شخصاً له عينٌ كعين البقرة، وعينٌ كعين الغزال؟ هل يوجد بين البشر من له قلبان؟ أو له لسانان؟ أو فمه فوق أنفه؟ أو وجهُه إلى الخلف، يمشي على غير العادة، التي يمشي عليها البشر؟

أَلَا يدلُّ هذا التساوي في (الخلق والإبداع) على وجود منظِّم نظَّم شأن مخلوقاته، فساوى بينها في الخَلْقِ والتصوير، وأبْدَع خلقه!؟ وصدقَ اللَّهُ العظيم ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٥] أي في أجمل شكل وصورة.

كما قال سبحانه في موطنٍ آخرَ من كتابه العزيز: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

أي صوَّركم وخلقكم في أجمل صورة، وأبدع شكل، متناسبي الأعضاء، منتصبي القامة، ولم يجعلكم كالبهائم، منكوسين تمشون على أربع!؟

إثباتُ وحدةِ النِّظامِ الكونيّ

ومن هنا يَتَّضحُ لنا بكل جلاء، أن الكون خاضع (لوحدة نظام)، تهيمنُ عليه، وتملكُ كلَّ صغير وكبير فيه، وأنه سائرٌ بانضباطٍ تام، وتدبير مدهش، وهذا يدل على (وحدة المنظِّم) وهو الخالق جلَّ وعلا ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

هذا هو البرهان على وجود الخالق جلَّ جلاله، عرفناه من النظام الموحَّد في هذا الكون الرائع، الذي يسير بنظام محكم، وتدبير بديع ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٥، ٦].

أي الشمسُ والقمر يجريان بحساب دقيق منظَّم، لا يختلف ولا يضطرب، ولا يتوقف، لأنه تقدير العزيز العليم، فالنجوم الساطعة، والأشجار الباسقة، تسجد للّه الواحد القهار، النجوم بالتنقل في البروج، والأشجار بإخراج الثِّمار.

ومعنى السجود في الآية: ﴿يَسْجُدَانِ﴾ هو الانقيادُ لأمر اللّه، فهو سجودُ طاعة وانقياد، وارتباطِ المخلوق بخالقه، فالكونُ كلُّه مرتبطٌ في سيره ونظامه، وفي حركته وسكونه، بالخالق المبدع الحكيم.!

أمثلة على اضطراب النظام

تصوَّر أنَّ الشمس غضبت علينا، لكثرة معاصي البشر، وامتَنَعتْ أن تُشْرِق على أهل الأرض، واختفت عنا عاماً كاملاً، بل شهراً من الشهور، ماذا يحدث للناس؟ هل سيبقى أحد على سطح الأرض!؟

سنرى الكرةَ الأرضية كلَّها يلفُّها شَبَحُ الظلام، وتُعْدَم الحياةُ على سطحها، لأن كلَّ ما فيها يتجمَّد، فلا يبقى إنسانٌ، ولا حيوان، ولا نباتٌ، ولا شَجَر، ولا ثَمَر، إلَّا ويهلك ويفنى.!

ولو أنَّ الشمس اقتربت منا عُشْر المسافة، التي قدَّرها اللَّه بيننا وبينها، لاحترق كلُّ ما على وجه الأرض، ولم يبق فيها ناطقٌ ولا جامد.

ولو استمرَّ النَّهارُ بلا انقطاع لفسدت الحياةُ.

ولو استمرَّ الليل بلا انقطاع، لفسدت كذلك حياتنا على سطح هذا (الكوكب الأرضي)، فمن الذي أوجد هذا النظام؟ أليس الذي نظَّم هذا الكون، هو اللَّهُ المبدع الحكيم؟

ظاهرةُ الليلِ والنَّهارِ من الآيات الباهرة

لقد نبَّهنا الباري جلَّ وعلا على ظاهرتين كونيتين عظيمتين، هما (ظاهرةُ الليل) و(ظاهرة النهار) وهما من الآيات الكونية الباهرة، الدالة على قدرة اللّه ووحدانيته، ولكنَّ النَّاسَ أَلِفُوا رؤية الشمس، تُشْرِق عليهم في الصباح، ثم تغرب عنهم في المساء، وهي تدور في نظام محكم، وأَلِفُوا النَّهارَ يُقبل ثم يُدبر، واعتيادُ الإنسان للشيء وإلفُه له، يُفقده ما فيه من روعة الإبداع والجمال. !

اقرأْ معي وتمعَّنْ هذه الآيات الساطعات، والدلائل الباهرات:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ ـ ٧٣].

﴿سَرْمَدًا﴾ أي دائماً من غير انقطاع.

إن الناس يشتاقون إلى الصبح، حين يطول عليهم الليلُ قليلاً في الشتاء، ويشتاقون إلى الليل، حينما تُحْرِقهم الشمسُ بحرارتها الشديدة في أيام الصيف، وربَّما انقطعوا عن العمل في الصيف، وجعلوا عمَلَهم بالليل، فماذا يصنعون لو استمرَّتْ عليهم الشمسُ دائمةً، دائبةً بدون انقطاع؟

أَلَا تصبح الحياة كلُّها معرَّضةً للفناء والدمار؟

ولهذا امتنَّ الباري جلَّ وعلا على عباده بعد ذكر الآيتين بقوله جلَّ ثناؤه:

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

دعاءٌ: اللهمَّ عرِّفنا نِعَمَك بدوامها لا بزوالها، وارزقنا شكر هذه النِّعم، يا ربَّ العالمين!!

المقارنة بينَ الإيمان بالله أو الاعتقاد بالطبيعة

إذا سألتَ أحداً من الذين يزعمون أنهم من (المثقّفين)، ممَّنْ تأثَّروا بالأفكار الشيوعية الإلحادية: وسألتَه مَنْ أوْجدَ هذه العوالم؟ ومَنْ خلق هؤلاء البشر؟ إنه يُسارع لك بالجواب ويقول لك: أوجَدَتْهُ الأسبابُ، أو يقول: خَلَقَتْهُ الطبيعةُ!!

إنّه لا ينكر أنَّ هذه الحوادثَ لا بدَّ لها من (مُحْدِثٍ)، ولا ينكر أن وجودها ـ بعد أن كانت معدومة ـ لا بدَّ لها من (مُوجِدٍ)، ولكنه ينسب ذلك إلى (الأسباب)، أو (إلى الطبيعة).!

قل له: عرِّفْ لي الطبيعة ما هي؟ ما هي عناصرها ومقوماتها؟

يقول لك: أَمَا تعرف الطبيعة؟ إنها الكونُ الذي نعيشه ونراه: (الجبالُ، والبحارُ، والأنهارُ، والأشجار)، وكلُّ ما تراه حولك، وما تبصره بعينيك، هو الطبيعة!!

ما هي عناصر الطبيعة الأصليَّة؟

فقل له: ممَّ تتكوَّنُ عناصرُ هذه الطبيعة؟

قد يعجز عن الإجابة، أو يتضجَّرُ ويتبرَّم من هذا السؤال، ويقول لك: أنا لا أدري!

فقل له: أنا أُخبرُكَ عنها، وأوضّح لك حقيقة أمرها:

عناصرُ الطبيعة الأساسية هي أربعة كما يقول العلماءُ الطبيعيُّون:

١ ـ الماءُ الذي نشربه.

٢ ـ والهواءُ الذي نستنشقُه.

٣ ـ والترابُ الذي يخرج منه النباتُ.

٤ ـ والنَّارُ التي يَسْتَوقِد بها البشر.

فالماء والهواء أساسٌ لحياة كل مخلوق ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] والترابُ والنار أساسٌ لبقائه، واستمرارِ حياته، كيف يعيش الإنسان والحيوان بدون غذاء؟ ومن أين يخرج الزرعُ والنباتُ؟ أليس من تربة الأرض؟

حرارةُ الشمس ضرورية للنبات

هل يخرج النَّبَاتُ والثَّمَرُ، بدون حرارة تنبعثُ من الشمس!؟

إنَّ هذه هي العناصرُ الأساسية للطبيعة، ولهذا ذكَّرنا اللَّهُ في كتابه العزيز، بنعَمِه الجليلة علينا، بهذه النِّعَم، فقال عزَّ شأنه:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ الْمَآءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٧٤].

﴿تَحْرُثُونَ﴾ من الحرث بمعنى الزرع ﴿حُطَٰمًا﴾ هشيماً متحطِّماً كالتِّبْن ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتحسرون وتتفجعون على ما حلَّ بالزرع والثمر ﴿الْمُزْنِ﴾ السُّحب جمع مزنة ﴿أُجَاجًا﴾ مالحاً شديد الملوحة ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للمسافرين.

بعد هذا جابِهْه بهذا السؤال المُفْحم:

قل له: هل للطبيعة عقل؟ هل لها سمعٌ، وبصرٌ، وإدراك؟ هل تستطيع أن تخلُقَ إنساناً سميعاً بصيراً عاقلاً!؟

فاقد الشيء لا يُعطيه

إنَّ فاقد الشيء يستحيل أن يمنح شيئاً فَقَده من نفسه، أو يعطي ما لا يملكُهُ هو؟

هل رأيتم أعمى يدلُّ الناس على الطريق؟

أَعْمَى يَقُودُ بَصِيراً لا أَبَا لَكُمُ   قَدْ ضَلَّ من كَانَتِ العِمْيانُ تَهْدِيهِ

هل يوجد إنسان عنده ذرةٌ من عقل، يصدِّق (هذه الخرافة) فيؤمن بأنَّ هذه الطبيعةَ (العمياءَ، البكماءَ، الصمَّاءَ)، تخلق إنساناً سميعاً، بصيراً، عاقلاً؟

من الذي يتصرَّفُ في هذا الكون؟ هل الجبالُ، والبحارُ، والأنهار، والوديانُ والأخشاب والأحجار، هي التي تصرِّفنا وتسيِّرنا حسب إرادتها؟ أم نحن البشر نخرِقُ الجبالَ، ونقطعُ الأشجارَ، ونركبُ البحارَ، فنسيِّرها حسب رغبتنا وإرادتنا!؟ إننا نصنع الأعاجيب في هذه الطبيعة؟

فهل هناك خرافة أخرقُ، ممن يزعم أنَّ الطبيعة خلقتنا، ومنحتنا العقل والفهم؟

وهل هناك بطلانٌ أوضح من هذا البطلان؟

الحمارُ نفسُه لو نَطَق لَقَهْقَهَ ساخراً وقال: يا لَحَمَاقةِ من يقول بهذا القول!!

❁ ❁ ❁

حماقة من ينسب الخلق إلى الطبيعة

وما أبدع ما قاله بعض الشعراء، عن الذين ينكرون (وجود اللَّه) ويُثْبِتون الخَلْقَ (للطبيعة)!؟ استمعْ إلى هذه الروائع من الأشعار، حيث يقول ساخراً متهكِّماً:

هل في عُقُولِ المُلْحِدين غَبَاءُ ... أم في قلوب الملحدين عَمَاء؟
أيصحُّ عقلاً أنَّ (عَقْلاً) مُبْدِعاً ... قد أوجدَتْه «طبيعةٌ» بَلْهاء؟
وإذَا «الطبيعةُ» أدركتْ وتصرَّفتْ ... قلنا: الطبيعةُ والإلٰه سواء
اللَّهُ أحيا الكائناتِ بفضله ... فبصَمْتِها تتخاطبُ الأشياء(١)

❁❁❁

(١) هذا الكلام نذكره للمؤمنين العقلاء، الذين يصدِّقون بالغيب، ويعتقدون اعتقاداً جازماً قاطعاً بوجود الملائكة والجن، لأنه الخبر الإلٰهيُّ القاطع، أما الذين ينكرون الملائكة أو الجنَّ، زعماً منهم أنَّ العلم لم يثبتها، لعدم الرؤية لها، ويزعمون أنهم فلاسفة وعباقرة من (العلمانيين) فهم لا يؤمنون إلَّا بما يثبته العلم، فهؤلاء وأمثالهم جماعة مغفَّلون.
هل أحاطت علومهم بكل شيء؟ هل هم يعرفون حقيقة (الكهرباء) التي تسري في الأسلاك، وحقيقة (المغناطيس) و(الذرة)؟ وممَّ تتكون هذه الأمور!؟ إن كثيراً من المجاهيل الكونية، يقف العلم تجاهها خاضعاً، لا يدري حقيقتها ولا يعرف ماهيتها، وإنما يرى آثارها، وفي كل يوم يكتشف العلماء الجديد من المعارف.
إن العلم لا يزال وليداً يحبو، وطفلاً صغيراً أمام عظمة الغيب وجلاله، فلا يعلم العالمُ أسرارَ الموجودات التي بين يديه، والتي يستخدمها في تجاربه، فضلاً عن أن يعلم ما في هذا الكون الواسع الفسيح، في عالم المُلك والملكوت، وقد أخذ العلماء المتمكنون في (العلوم الكونية)، من الإقرار بعجزهم عن الإحاطة بما حولهم، حتى قال بعض كبار العلماء الغربيين: (إن التقدم العلمي، لم يتوصل بعدُ إلى قياس شيء، من بحر عالَم الغيب الكبير، بل ما زال عاجزاً حتى هذا العصر (عصر التطور المذهل) عن قياس أمور كثيرة تفوق الحصر، داخلة في العالم الماديّ، الذي هو مجال كلِّ أنواع التقدم العلمي، الذي انتهت إليه النهضةُ العلمية الحديثة).
وحقاً الأمر كما قال ربُّ العزة والجلال ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾!.

براهينُ إيمانية على وجود الخالق

يقول فضيلة الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني رحمه اللَّهُ، في كتابه القيِّم «براهينُ إيمانية»:

(يريد الملحدون منَّا، أن نلغي عقولَنَا، ونلغيَ أدلةَ العلم القطعيِّ الصحيح، فنعتقد معهم (اعتقاداً خُرَافياً) لا دليلَ عليه مطلقاً، بأن الأحداث الكونية، والتغيِّرات التي تحدُثُ في الكون، إنما تحدثُ بنفسِها بطريقةٍ ذاتية، دون أن يكون وراءَها إلٰه قويٌّ، عليم حكيم، ذو إرادة واختيار!

يريد الملحدون منَّا أن نعتقد مثلَهُم، بأنه لا وجود لرب خالقٍ لهذا الكون، دون أيِّ سَنَدٍ من العقل، ودون أي سَنَدٍ من العلم، مع أن قانون الوجود ينطق بأنه لا حدوث لشيء، ولا تغيُّر لشيء، إلَّا بسبب.

ويظهر أن (قانون السببيَّة) لحدوث شيء من العدم، هو من (القوانين البَدَهيَّة)، التي لا يقبل عاقل من العقلاء، بحال من الأحوال، احتمالَ أن شيئاً حَدَث بنفسه تلقائياً دون سبب!!

ثم يضرب مثلاً بديعاً، وهو مثلٌ بديعٌ رائع، فيقول رحمه اللَّه:

«تصوَّر لو أنك وضعتَ في صندوقك المقفل، كلَّ ما جمعتَه من ذهب وفضة، وضعتَ ذلك في صُرَّة، ثم غبتَ عنه شهراً أو يوماً، ثم رجعتَ إليه بعد ذلك، فلم تجد صُرَّة نقودك!!

وبعد البحثِ والتحرِّي الشديد، وجدتَ صُرَّة نقودك بأكملها، داخلَ صندوقٍ عند جارٍ لك، وطالبتَه بها، فادَّعى أمام القاضي أنها انتقلت إلى صندوقه بنفسها، وأنه لم يسرقها، وإنما رآها تمشي في الهواء بنفسها، متَّجِهةً إلى صندوقه المبارك الميمون!!.

وأخذ يدَّعي دَعاوىٰ يؤلِّفها من خَياله، تأليفاً خُرَافياً، فهل يصدّقه القاضي؟

وهل يوجد عاقل في الدنيا، يصدِّق مِثْلَ هذا الكلام؟

- إنَّ الناسَ كلَّما ازدادوا عِلْماً وخِبرةً، ازدادتْ لهم (الأدلَّةُ) و(البراهينُ) على الخالق العليم الحكيم، الذي أتقن كل شيء صُنعاً!
- **ندخل داراً فنرى أثاثَها، مرتَّباً بنظام حَسَن دقيق**، موافقاً للمصلحة، فنقول على البديهة: إن هذا الترتيب لم يأت عن طريق (المصادفة)، وإنما هو أثرُ فِعْلِ فاعلٍ، عليمٍ، متقنٍ، مختارٍ!
- **ونرى ثوباً محكمَ الخياطة والتفصيل**، فنحكم بداهةً أن (خيَّاطاً) ماهراً قد أتقن خياطته وصنعه.

ونرى آلةً كهربائية أو ألكترونية متقنة الترتيب، فنحكم أن صانعاً مهندساً ماهراً، قد أتقن صنعها، ولم توجد محكمةً بهذا الشكل البديع مصادفةً، ولم تَصْنَعْ نَفْسَها بنفسها، أفلا نؤمن بالخالق، العليم الحكيم[1]!؟

- **وصدق اللَّه العظيم حيث يقول**: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٤٣].
- يا سبحان اللَّه!! كيف نقبل قولَ من يقول: إنَّ الأخشابَ التي نقطعُها من الأشجار، فنصنع منها الكراسي، أو المقاعدَ والطَّاولات؟ وأحجارَ الرُّخام التي نبني منها الدور، أو نجعلها في بيت الخلاء ـ التواليت ـ عند قضاء الحاجة، هي التي أوجدتنا وخلقتنا!؟ أليست هذه أسفهُ من حماقةِ هَبَنَّقة؟
- أليست هذه الأخشابُ والأحجارُ من الطبيعة؟ التي يدَّعي الملحدون أنها هي سبب وجودنا، وهي مصدرُ حياتنا وبقائنا؟ وهي بقدرتها الفائقة، خلقَتْ هذا الكونَ البديع؟!
- **أليس هذا الكلام من الخَبَل والجنون**، الذي لا يقبله ولا يرضاه، من له أدنى مُسْكةٍ، من وَعْي أو عقل.!

❁❁❁

(١) انظر كتاب (براهين إيمانية: للشيخ عبد الرحمن حبنكَّة (٥٨).

كلمةٌ بديعة لسعيد النَّوْرسي

يقول الإمام (بديع الزمان سعيد النورسي) الذي نوَّر اللَّه بصره وبصيرته، في رسالته البديعة «رسالةُ الطبيعة» ردًّا على من زعم أن هذا الوجود من فِعْلِ الطبيعة، يقول رحمه اللَّه تعالى:

(إنَّ المشَاهَدَ أمامنا في هذا الكون، وما فيه من النظام والانسجام، إذا كان هذا الموجود، في غاية (الانتظام والميزان)، وفي منتهى (الدقَّة والإتقان)، فلا بدَّ أن يكون صادراً عن يدٍ واحدة، لإلهٍ واحد، حكيم قدير.

فإنَّ إسنادَ (المخلوقِ المنتظِم)، الموزون المتناسق، إلى (طبيعةٍ) عمياءَ، صمَّاءَ، جامدة، لا شعور لها ولا عقل، إنه مستحيلٌ مائةَ مرة، إذ هو بعيدٌ كلَّ البعد عن منطق العقل والفهم!!

يقول: إنك أيها الإنسانُ موجودٌ بلا شك، وأنت معْمَلٌ عظيمٌ، متقَنُ الصُّنْع، وجسمُك يشبه (قصراً فخماً)، عامراً بالزخارف، فيه أحجارٌ، مرصوصةٌ بعضها إلى بعض، في بناءٍ محكم، أفليس ذلك دليلاً على وجود إلهٍ مبدعٍ حكيم!؟

أضرب لك مثالاً واحداً، على استحالة أن يكون وجودك وخَلْقُك، إنما جاء (صُدفةً)، أو كان من إيجاد الطبيعة العمياء.!

إنسانٌ معزولٌ عن عَالَم الحَضَارة والمدنيَّة، يعيش في أعماقِ غابةٍ بعيدة عن العُمْران، كما تعيش وحوش الغاب وضواريه!!

يشاء القَدَرُ أن يجد نفسه أمام قصرٍ فَخْم بديع، يزهو بزينته، ويتلألأ بأنواره، في فلاةٍ ـ صحراء ـ خالية موحشة، فيقترب منه ويدورُ في أرجائه، فتدهشُه براعةُ بنائه، ونقوشُ جدرانه، وروعةُ إتقانه.!

وبكل سذاجةٍ يمنحُ القَصْرَ حياةً، ويُعْطيه قدرةً على تشييد نفْسِه بنفْسِه ـ

أي أنَّ هذا القصر بُني بنفسه ـ لا لشيء، إلَّا لأنه لم يجد أحداً خارج القصر، في تلكَ الفلاة، لينسبَ إليه بناءَ هذا القصر!؟

دَخَلَ يتحرَّى البانيَ داخلَ القصر، لعلَّه يعثرُ عليه، وما وقع بصره على شيء إلَّا وتردَّد فيه، وشكَّ في كونه قادراً، على إيجاد مثلِ هذا القصر، الذي يملأ أقطار العقل والنفس، بروعة صنعه، وجمال بنائه.!

ألَا ما أسخَفَ تفكيرَ هذا (الأحمق الجاهل)، إذْ نَسَبَ صُنْعَ هذا القصر، إلى شيءٍ لا يملك يداً يعمل بها، ولا بصيرةً يُبْصِر بها، ولا عَقْلاً يستطيع به إبداع هذا الجمال؟ فكشَفَ بذلك عن مدى عُمْقِ جهله، وتأصُّل حماقته!!

وهكذا تفكيرُ من يَدِينونَ (بصنع الطبيعة)، وينكرون (عظمة الألوهية) في صنع اللّه البديع.

أليس جديراً بنا أن نصف أصحابَ هذا المذهب (مذهبِ الطبيعة) بأنهم أسخفُ حماقةً من هَبَنَّقة[١]!!

فكرةُ (المُصَادفةِ) سخيفةٌ وباطلة

أمرُ الإيمان وطريقُه سهل يسير، ينفسح له القلبُ، ويتقبَّلُه العقل!!

وأمرُ الإلحاد والشركِ معضلٌ عسير، ينقبض له القلب، ويرفضه العقل!!

عندما ترى (كتاباً مطبوعاً) طباعةً أنيقةً فاخرة، وتتأملُ في صفحاته، فيدهشك ما فيه من كلام جميل منمَّق، وما فيه من منطِقٍ عقلي، وإبداعٍ في التعبير، تتيقَّنُ أنَّ مؤلِّفه شخصٌ عبقريٌّ ماهر، ويَسْري إلى قلبك هذا الشعور، دون تكلُّفٍ ولا عناء.!

وحين تقرأ (قصيدةً شِعْرية)، فاقتْ في الإبداع والجمال كلَّ خيال، تعتقد من قرارة نفسِكَ، أنَّ ناظمَها شاعرٌ مفْلِقٌ لامع، مَلأَ بإبداعه ناحيَةَ البيانِ!!

فإذا جاء إليك شخصٌ يزعم أنه «فيلسوف» يريد أن ينتزع من صدرك هذا اليقينَ والإعجابَ، ويقول لك: لا تصدِّق بهذا الكلام، هذا الكتابُ لم يؤلِّفْه

(١) هذا مَثَلٌ يُضرب لشدة الغباء والحماقة، فيقال: هذا أسخف وأشدُّ حماقةً من هبنَّقة، وانظر مجمع الأمثال للميداني.

أحدٌ، وهذه القصيدة الشِعرِيَّةُ لم ينظمها شاعر، إنما اختلطت الحروفُ في المطبعة، وتداخَلَ بعضُها ببعضٍ واجتمعتْ، فتألَّف منها الكتابُ، وظهرت هذه القصيدة المنمَّقة!!

هذا هو الفارقُ بين سبيل (الإيمان) وسبيل (الكفر)(١).!

جعفر الصَّادقُ يُسألُ عن اللَّه؟

سأل سائلٌ الإمامَ «جعفراً الصَّادقَ» ـ من أئمة بيت النبوة ـ عن اللَّه عزَّ وجل؟

فقال الإمام للسائل: ألم تركبْ البحرَ في حياتك؟

قال: بلى، ركبتُه مرَّاتٍ، ومرَّات.!

قال: هل حدث مرَّةً، أن هاجتْ بكم الريحُ عاصفةً، وشعرتَ بالخطر؟

قال: نعم.

قال: وانقطع الأملُ بربَّان السفينة، ووسائلِ النجاة؟

قال: نعم.

قال له الإمام: فهل خَطَر ببالك، وانْقَدَح في نفسك، أنَّ هناك من يُنْجِيك من هذا الكرب والبلاء إن شاء!؟

قال: نعم.

قال الإمام جعفر رضي اللَّه عنه: ذلك هو اللَّهُ جلَّ جلاله.

هكذا تتيَقَّظُ فطرةُ الإيمانِ في الإنسان، كلَّما حَزَبه أمرٌ، أو ضاقت عليه الشدائد، اسمعْ قولَ الحقِّ جلَّ وعلا حيثُ يقول:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر كتاب (رسالة الطبيعة) للإمام سعيد النَّورسي رحمه اللَّه.

قصَّةُ أوَّلِ رائدٍ للفضاء

من عجائبِ الأحداث والأخبار، أنَّ أوَّلَ تصريح لرائد الفضاء السوفيتي «جاجارين» ـ وهو أوَّلُ من دارَ حول القمر (بمركبته الفَضائية)، بعد دهشته ممَّا شاهد، ودهشته من هول أبعاد الكون، ورغبته في أن يعود إلى الأرض سالماً ـ أنه قال أمام عدسات المصوّرين ورجال الأنباء: (لمَّا علوتُ في أجواء السماء، بَهَرَتْني روعةُ الكون، وأدهشتْني عظمةُ الخالق، فأخذتُ أبحث عن اللَّه، وأتعرَّف عليه من هذا الكون الواسع)!!

وهكذا تفجَّرَتْ الفطرةُ في قلبه ـ فطرةُ الإيمان باللَّه ـ!!

غَضِبَ عليه أسيادُه الشيوعيون، وأمروه أن يغيِّرَ التصريحَ، فزاد في اللقاء الآخر أمام رجالات الأنباء، هذه العبارة: (أخذتُ أبحثُ عن اللَّه، فلم أجِدْه) فكانت العبارةُ الأخيرةُ (فلم أجِدْهُ) إرضاءً لأتباع مسيلمة الكذَّاب!

الأدلةُ الكونيةُ من القرآن الكريم
سبعةُ أدلَّةٍ على وجودِ اللَّهِ ووحدانيته

إنَّ تعلُّقَ الطبيعيين بالطبيعة، شيءٌ مَوْهومٌ، لا وجود له، إلَّا في مخيَّلتهم، فإنَّ هذا الكونَ الذي نراه، والوجودَ الذي نشاهده، إنَّما هو صنعةُ صانع، وحكمةُ حكيم، وإبداعُ مُبدع، هو اللَّهُ ربُّ العزة والجلال، الكبير المتعال، إقرأْ قولَه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٠ ـ ٢٥].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ أي من دلائل قدرته ووحدانيته، فالآية هنا بمعنى العلامة.

ذَكَر تعالى في سورة الروم سبعة دلائل وبراهين، على وجوده ووحدانيته وتدبيره، أي ومن علامات وجوده سبحانه، الدالة على وحدانيته، وكمال قدرته الباهرة، أن خلق أباكم وأصلكم ـ آدم عليه السلام ـ من تراب جامد، لم يشمَّ رائحة الحياة، ثم أصبحتم بشراً عقلاء، تسيرون في الأرض وتتحركون، أليست هذه آية باهرة؟ هذه النُّقْلةُ الضخمة، تُثير التأمل في صنع اللَّه وإبداعه، فالإنسان نطفةٌ من ماء مهين، هذه النطفةُ يتخلَّق منها إنسان، حيٌّ ناطق، سميع بصير!!

وخَلْقُ الإنسانِ أعظمُ برهان على قدرة الإله الخالق المبدع، أتستطيع

الطبيعةُ الجامدة البلهاء، أن تخلق مثل هذه (العمارة الربَّانية) الإنسان، وهي فاقدة للعقل، والبصر، والإدراك!؟

كما ذكر سبحانه من دلائل قدرتِه ووحدانيتِه، خلْقَ السموات في ارتفاعها واتِّساعها، وما فيها من الكواكب والمجرَّات، والشمسِ والقمرِ، وخلْقَ الأرض وما فيها من البشرِ، والبهائمِ والأنعامِ، والبحارِ والأنهارِ، واختلاف الألسنة أي اللُّغات، من (عربية، وإنجليزية، وألمانية، وتركية) وسائر اللغات التي لا تُحصى، واختلاف ألوانِ البشر، من أبيضَ وأسودَ، وأصفرَ وأحمرَ، بحيث لا يشتبه شخصٌ بشخص، ولا إنسانٌ بإنسان، ثم مَنَامُ الخلائقِ بالليل، ويقظتُهم بالنَّهار، ثم حادثةُ البرق والرعد، ونزول الأمطار، إلى غير ما هنالك من دلائل القدرة الباهرة، لو عَقَلها البشر لما بقي فيهم أحد ينكر وجود الخالق المبدع الحكيم[(١)].!

فيَا عابدَ الأسباب! أيها المسكينُ المفتون بالطبيعة، إرجع إلى رُشْدك وعقلك، قبل أن ينهق الحمار فيقول: أيُّنا المجنون؟ أنا الذي أقرُّ بجهلي، أم أنت الذي تنكرْ الخالق!؟

❁ ❁ ❁

(١) راجع كتاب التفسير الواضح الميسَّر ص١٠٠٢.

قصَّةٌ فكاهيةٌ ظريفة

يُحْكَىٰ أنَّ بدويًّا مرَّ في طريقه على رجلٍ جاهل، يدعو إلى عبادةِ (السيِّد المسيح)، ويقول للناس: اعبدوا الربَّ «يسوع» الذي خَلَقنا، وَرَزَقنا، وماتَ من أجلنا ـ أي صُلب ـ فضحَّى بنفسه من فَرْطِ محبَّته لنا!!

وكان هذا (الداعيةُ الجاهل) يُدعى (توما) وكان يركب على حِمَار، ويدور على النَّاس في القرى والأرياف، يدعوهم إلى عبادة الربِّ (يسوع) ويذكر لهم أقوالاً، لا يقبلها أحدٌ عنده ذرَّةٌ من عقل، فأنشد هذا الأعرابي ـ على لسان الحمار ـ هذه الطُّرافة والحكمة في بيتين من الشعر، قالها ارتجالاً:

يَقُولُ الحِمَارُ حِمَارُ (تُومَا) لَوْ أَنْصَفُونِي لَكُنْتُ أَرْكَبْ
لِأَنَّ جَهْلِي جَهْلٌ (بَسِيطٌ) وَجَهْلُ تُومَا جَهْلٌ (مُرَكَّبْ)

وجرت هذه الحكمة مَثَلاً، للتفريق بين (الجهل البسيط) و(الجهل المركَّب) فالحمارُ يعلم أنه حمارٌ بسيط، وأمَّا ذلك الأحمقُ فهو جاهل، ولا يدري أنه جاهل، فجهلُه مركَّب، أي أنه أحمقُ، وأجهلُ من الحمار.

غرابةٌ وعجب

يا عجباً لمن يَجْحَدُ وجود اللَّه، وكلُّ ذرة في الكون ناطقةٌ بوجوده!!

يا عجباً لمن ينكر عظمة اللَّه وجلالَه، وكلُّ ذرةٌ في جسمه شاهدة بعظمته!!

يا عجباً لمن يُغمض عينيه، حتى لا يرى النور الساطع، ويَصُمُّ أذنيه حتى لا يسمع صوتَ الحقِّ المجلجل، ولكنْ كما قال الحقُّ جلَّ وعلا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] صدق اللَّه العظيم.

الفصل الثاني

الإيمان بوحدانية اللّه
جلَّ جلاله

الفصل الثاني

الإيمان بوحدانية اللَّه جلَّ جلاله

من لوازم الإيمانِ بوجود اللَّه عزَّ وجل، الإيمانُ (بوحدانيته) تعالى، فمن آمن بأنَّ اللَّه موجودٌ، وأنه هو الخالقُ الرازق، ولكنه لم يؤمن بوحدانيته، فهو كافرٌ خارجٌ من (كوكبة) أهلِ الإيمان واليقين، قال اللَّه تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

لقد كان المشركون يُقرُّون بأن اللَّه هو الخالق، ولكنهم يعبدون معه غيرَه، من أوثان وأصنام، ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] فلم ينفعهم ذلكَ الإيمانُ بأنَّ اللَّهَ هو الخالق!؟

وكانوا يقرُّون للَّه (بالخَلْق)، ولكنْ لا يعترفون له (بالوحدانية) فكانوا يقولون متعجِّبين مستغربين: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] أي بالغُ العَجَب، وهو لفظٌ أبلغ من العجيب، لأن العُجابَ الأمرُ الذي لا مثيل له ولا نظير.!

قصة المشركين عند أبي طالب

روي أن المشركين اجتمعوا وذهبوا إلى (أبي طالب) عمِّ النبي ﷺ، الذي كان يَحْميه، ويدفع عنه شرَّ سفهاء مكة، فقالوا يا أبا طالب: كفَّ عنَّا ابن أخيك، فإنه يعيبُ دينَنَا، ويذمُّ آلهتنا، ويسفِّه أحلامنا ـ أي عقولنا ـ وإنَّا لا نصبر على ذلك!!

فأرسل أبو طالب إلى رسول اللَّه ﷺ يطلبه إليه، فلمَّا حضر ـ كان عنده زعماء قريش وصناديدُ الكفر ـ فقال له: يا ابنَ أخي! ما بالُ قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهَتَهُم، وتعيبُ دينهم، وتسفِّه أحلامَهم!!

فقال له رسولُ اللَّه ﷺ: يا عمّ، أريد منهم (كلمةً واحدة)، كلمةً يملكون بها العَجَم، وتَدينُ لهم بها العربُ!! ـ أي يعترفون بزعامتهم، ويدخلون في دينهم ـ!

فانتفض (أبو جهل) وقال له: أتريد منَّا كلمةً واحدةً؟ وأبيكَ نعطيكَ إيَّاها وعَشْراً معها!! ما هي هذه الكلمة؟

فقال لهم ﷺ: قولوا: (لا إِلٰهَ إلَّا اللَّهُ) فقاموا فَزِعينَ يَنْفُضون ثيابَهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥، ٦].

كلامُ الحافظ ابن كثير

قال الحافظ ابن كثير: أنكر المشركون قبَّحهم اللَّه أن يُقِرُّوا للَّهِ بالوحدانية، وتعجَّبوا من ترك الشرك باللَّه، فإنهم قد تَلَقَّوْا عن آبائهم عبادةَ الأوثان، وأُشْرِبَتْه قلوبُهم، فلمَّا دعاهم رسول اللَّه ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفرادِ اللَّهِ تعالى (بالوحدانية)، أعظموا ذلك وتعجبوا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾.

وقولُه سبحانه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ هم سادتهم وقادتهم ورؤساءهم من أهل الضلالة، يقولون: اسْتَمِرُّوا على دينكم، واصبروا على عبادة آلهتكم، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه (محمَّدٌ) من التوحيد، فإنَّ هذا أمر مدبَّر من محمد، ومكيدةٌ لصرفنا عن عبادة آلهتنا، لتكون له العزَّةُ والشرفُ عليكم (١).

لقد كان عند كفار مكة (٣٦٠) ثلاثمائة وستون صنماً، كلُّ واحدٍ منها إلٰه بمفرده، يُعْبَد من دون اللَّه، فلمَّا جاءهم رسولُ اللَّه ﷺ بدعوة التوحيد، قالوا يا محمد: تكلَّمْ بالمنطق والعقل!! فإنَّ عندنا الآلهة التي تقارب عدَدَ أيام السَّنَة، وهي لا تكفينا، أفنترك عبادتها ونعبد إلٰهاً واحداً؟ إنَّ أمرك لعجيب، فلذلك نفروا من دعوته ﷺ واستمروا على الوثنيَّة، والإشراكِ باللَّه تعالى.

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ٣/١٩٦.

قصَّةُ الأَعرابيِّ وآلهتِه السبعة

جاء أعرابي إلى رسول اللّه ﷺ، يريد معرفة دين الإسلام، وأخذ يسألُ النبيَّ ﷺ: إلى ما تدعو يا محمد؟ فقال له عليه السلام: أدعوك إلى الإسلام، وإلى توحيد اللّهِ عزَّ وجلَّ!! ـ وكان هذا الرجلُ يُدعى (حُصَيناً) ـ فقال له عليه الصلاة والسلام: يا حُصَين كم تعبدُ اليومَ إلهاً؟ فقال له حُصين: سبعةً!! ستةً في الأرض، وواحداً في السماء!!

فقال له ﷺ: إذا مسَّك ضُرٌّ، أو حلَّ بكَ بلاءٌ، أو كنتَ في فَلَاة ـ يعني صحراء ـ فضلَّتْ راحلتُكَ، فمن تدعو؟

قال: أدعو الذي في السماء!

فقال له عليه السلام: فماذا نفعتك آلهتك الستة التي في الأرض؟

ثم قال ﷺ: يا حُصَيْنُ: أَمَا إنك لو أسلمتَ، علَّمتُك كلمتَيْن تَنْفعانك!؟ فأسلمَ حُصَيْن رضي اللّه عنه، وطلبَ من الرسول ﷺ أن يُعلِّمه ما وَعَدَه به، فقال له ﷺ: قل: (اللّهمَّ ألهمني رُشْدي، وأعِذْني من شرِّ نَفْسي)(١).

اللّهُ عزَّ وجلَّ أيَّد الرسلَ بالحجج الدَّامغة
قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمروذ

قصَّ علينا القرآن الكريمُ، قصة الملكِ الجبَّار (النمروذ) الذي جادَلَ وخاصَمَ، في أمر (وجود اللّه) ووحدانيته، مع نبيِّ اللّه (إبراهيمَ) عليه السلام الذي عاش في عصره وزمانه.

كان النمروذُ قد ادَّعى الألوهيَّةَ، وزعَمَ أنه كالربِّ يحيي ويميت، بل وصل به الكفرُ والفجور، إلى إنكار وجود اللّه تعالى، ولْنستَمِعْ إلى قصَّته كما حدَّثنا بها القرآنُ الكريمُ، حيث يقول تقدَّستْ أسماؤُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٤٧٩) وقال: حديث حسن، وانظر جامع الأصول لابن الأثير ٤/ ٣٤٢.

إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

كان النمروذُ مَلِكاً طاغياً جباراً، دخل عليه (إبراهيم) عليه السلام، يدعوه إلى اللّٰهِ، وتركِ ما عليه من الظلم والجبروت، ودعوى الألوهية!! وجرت بينهما هذه المناظرةُ.

قال له إبراهيم الخليل: إنَّ الدليلَ على وجود ربي، أنه إلٰهٌ عظيم قدير، يُحْيي الخلْقَ من العَدَم، ثم يعيدهم إلى الحياةِ بعد الموت! وهذا أعظمُ برهانٍ على وجودِ الرحمٰن!؟

كان جوابُ الأحمق الفاجر له: وأنا ربٌّ أحيي وأميت!!

قال: وكيف ذلك؟ دعَا السَّجَّانَ عنده، فقال له: ائتني برجلين من السِّجنِ، محكوم عليهما بالإعدام، فأتاه بهما، فأمَرَ بإطلاق سراحِ واحد، ثم قال: هذا أحييتُه، وأمر بقطعِ عُنُق الثاني، ثم قال: هذا أمتُّه!!

لمَّا رأى (إبراهيم) عليه السلام، حماقةَ هذا السفيه، وشَغَبه في الدليل، عَدَل إلى أمرٍ آخر، هو أجدى وأنفع في إفحام الخصم، لئلا يجِدَ ذلك الطاغيةُ الفاجرُ، مجالاً للشَّغَب والتلاعب.

فقال له: إذا كنت حقًّا إلٰهاً تدَّعي الربوبية، وأنك تحيي وتميت كما يفعل ربُّ العالمين، فهذه الشمسُ أمامَكَ، تطلُع كلَّ يوم من المَشْرِق، وتغرب من المَغْرب، فأَرِنا عَظَمَتك وقدرتَك الباهرة، وغيِّرْ نظامَ الكون، فاجعلها تُشرق من المغرب، وتغرب من المشرق، ولو مرةً واحدة، لتُثْبِتَ للخلقِ عظمةَ ربوبيَّتك، ويعرفوا أنك إلٰه كربِّ العالمين، تقدر على فعل كل شيء، فيقرُّوا لك بالألوهية والربوبيَّة!؟

وهنا أُسقِط في يده، وأصبحَ الفاجرُ الأحمق، مبهوتاً أمام هذه الحجة الدامغة، وانقطعت حجته أمام الحاضرين.

قصَّة تمثيليّةٌ
محاورةٌ بين الإيمان والكفر

ذكر الإمامُ الداعيةُ (بديعُ الزمانِ سعيد النَّورسي) الذي نوَّر اللَّهُ بصيرته (قصةً تمثيلية) للتفريق بين الإيمان والكفر، فقال:

أخي الإنسان: إنْ كنتَ ترغب أن تفهم كيف أن الإيمان باللَّه واليوم الآخر، أثمنُ مفتاح يحلُّ لك لُغْزَ الكون، ويفتحُ أمامَك باب السعادة والهناء، فأنصتْ معي إلى هذه (القصة التمثيلية) القصيرة.

(وَقَعَ جنديٌّ في الحرب، في مأزق عصيب، إذْ أصبح جريحاً بجُرْح عميق، في يمينه وشماله، وخَلْفَهُ أسدٌ يوشك أن ينقضَّ عليه، وأمامَهُ مشنقةٌ يُعْدم فيها رفاقُه، وهي تنتظره. !

زدْ على ذلك، فقد صدر بحقِّه رحلةُ نفيٍ شاقة، إلى مجاهل (سيبيريا) ليقضي السجن المؤَبَّد هناك. !

نصيحة الرجل الصالح

وبينما كان هذا المسكينُ المبتلَى، مستغرقاً في أحلامه، في تفكير يائس، من واقِعِه المُفْجع، إذا برجلٍ صالح، يتلألأُ وجهُه نوراً، كأنَّه مَلَكٌ يظهر عن يمينه، ويخاطبه قائلاً:

(لا تيأسْ ولا تقنطْ، سأعلِّمك شيئاً إن أحسنتَ استعمالَه، ينقلبُ ذلك الأسدُ (مَرْكَباً) أميناً، مسخَّراً لخدمتكَ، وتتحوَّلُ تلك المشنقةُ (أرجوحةً) مريحةً لطيفة تأنس بها، وسأعطيك دَوَاءً يُصَيِّرُ جراحَك المنتِنَةَ، زَهراتٍ شذيَّة، تَعْبُق بالعِطْر، وسأزوِّدك تذكرةَ سفر، تستطيع أن تقطع بها في يوم واحدٍ، مسافةَ سنةٍ كاملة، لتصل إلى قصر فَخْم مَشِيد، تلقى فيه الأُنْسَ والرَّاحة، وجرِّبْ ذلك مرة واحدة، لِتَتَيَقَّنَ من صحَّتِه وصدقِه!!

الرجلُ الخبيث الماكر يدعوه للفجور

ثمَّ على حين غِرَّة، رأى رجلاً ماكراً خبيثاً، كأنه (الشيطان)، يأتيه من جهة اليسار، ومعه أنواع من الملابس، والحُلِيّ الفاخرة، وصورٌ جذَّابة لنساءٍ عاريات، ومآكل شهيَّة معها بعضُ المسكرات، وقَفَ يناديه ويدعوه هاتفاً:

إليَّ إليَّ يا صديقي، أَقبِلْ لنلهوَ معاً، ونستمتعَ بصُوَر الحسناوات الجميلات، ونطربَ بسماع الأغاني المتنوعة، ونتلذَّذ بهذه المأكولات اللذيذة!

ولكنْ ما هذه التَّمتمةُ التي تردِّدها يا صديقي؟

قال له الجريح: إنه تضرُّعٌ ودعاءٌ، لينقذني اللّه من هذا البلاء!!

قال له الخبيث: دَعْ عنك هذه الطَّلاسِمَ والخُزَعْبَلات، ولا تعكِّرْ صفوةَ لذتنا، وأُنْسَ نشوتنا!! وما ذلك الذي بيدك الذي تحملُهُ وهل هو شرابٌ لذيذ؟

إنه دواءٌ وَصَفه لي رجلٌ صالح، أشربُ منه كل صباح ومساء، **لأُشْفَى** من جراحتي.

ارْمِهِ عنك بعيداً، إنك سالمٌ صحيح، ما بك شيء، ونحن في ساعة طربٍ، وأُنسٍ، ومتعة.!

وهكذا حاول بكل مكرٍ وخديعة، أن يُقنع الجنديَّ الجريحَ، بأحابيلِ خُبْثه وَمكْره، حتى بدأ ذلك المسكينُ، يركن شيئاً قليلاً إلى كلامه.!

وفجأةً دوَّى صوتٌ كالرعد عن يمينه، يحذِّره قائلاً:

إيَّاك أيها الجنديُّ أن تنخدعَ!!

قل لذلك الماكر الخبيث: إنْ كنتَ تستطيع قتلَ الأسدِ الرابض خلفي.. وأن ترفعَ أعوادَ المشنقة من أمامي.. وأن تَشْفِيَني من جراحي.. وأن تَحُولَ بيني وبين رحلتي الشاقَّة، فهيَّا أرني ذلك، وهاتِ ما لديكَ!؟ ولكَ بعد ذلك أن تدعوني إلى اللهو والطرب.!

وإلَّا فاسكتْ أيُها الأحمقُ الفاجرُ، ليتكلَّم ذلك الرجلُ النَّاصحُ، الصادق!!

فيا أيتها النفسُ الباكيةُ على أيام شبابها، إعلمي علم اليقين:

أنَّ ذلك (الجنديَّ) المسكين، هو أنتِ، هو الإنسانُ المخدوع في هذه الحياة.

وأنَّ ذلك (الأسدَ الهصور) هو الأجلُ ،الذي لا بدَّ أن يذوقه كلُّ إنسان.

وأنَّ (أعوادَ المشنقة) هيَ الموتُ، والفراقُ للأحباب.

وأنَّ (النَّفْيَ والسَّفرَ الشاقَّ) هو رحلةُ الابتلاء والامتحان، للوصول إلى دار الخلود، في دار النعيم، أو دار الجحيم.![١]

❁❁❁

---

(١) رسالة الطبيعة للنّورسي.

العلاج الشافي في الإيمان باللَّه

وأنَّ (الدَّواءَ والعلاجَ الشافي) هو الإيمانُ باللَّه، واليوم الآخر.

نعم إن الإيمان باللَّه واليوم الآخر، يجعل هذا الموت كأنه بُرَاقٌ، يُخْرِج الإنسانَ المؤمنَ، من سِجْن الدنيا إلى رياض الجِنَان، ويُضفي على هذه الحياة، نعمة الرضا والاطمئنان، لأنَّ من يعتمد بهويَّة ضعفه وعجزه، على (سلطانِ الكون) ربِّ العزة والجلال، الذي بيده ملكوتُ كل شيء، والذي يقول للشيء: كن فيكون، كيف يَجْزَع ويضطرب؟ بل إنه يثبت أمام أشدِّ المصائب، واثقاً باللَّه ربه، مرتاحَ القلب، مطمئنَّ البال، وهو يردِّد ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وهكذا شأن الإيمان، وشأنُ الكفر، وصدق اللَّه حيث يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾[1] [الرعد: ٢٨، ٢٩].

---

(١) انظر رسالة (الطبيعة) لبديع الزمان النَّوْرسي رحمه اللَّه، وقد نقلنا هذه القصة الرمزية من رسالة (رسائل كليات النور) مع بعض التصرُّف اليسير.

بعثةُ الرسل الكرام بدعوة التوحيد

إذا تتَّبعنا دعوةَ جميع الرسل الكرام، منذُ فجر الرسالة، منذُ بعث اللَّه تعالى (نوحاً) عليه السلام إلى قومه، إلى أن ختَمَ اللَّهُ الرسالةَ، ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (محمد) ﷺ، نجد أن دعوتهم كانت واحدةً، هي الدعوة إلى (توحيد اللَّه) عزَّ وجل، والإقرار له بالألوهية، والوحدانية. !

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

نوح عليه السلام يدعو إلى توحيد اللَّه

الأول: **هذا (نوح) عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد اللَّه** ـ وهو أولُ رسولٍ أُرسل إلى الناس ـ يقول عنه القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

هود عليه السلام يدعو للتوحيد

الثاني: **وهذا رسولُ اللَّه (هود) عليه السلام**، وقد أُرسل إلى قوم عاد، وكانت مساكنهم بالأحقاف في اليمن، يقول عنه القرآن الكريم: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ [الأعراف: ٦٥].

أي ليس لكم إلٰه يستحقُّ أن يُعْبَد، غيرُ خالقكم وربِّكم، أفلا تخافون عذاب اللَّه تعالى إن عبدتم غيره! ؟

صالح عليه السلام يدعو إلى الوحدانية

الثالث: **وهذا رسولُ اللَّه (صالح) عليه السلام**، وقد أُرسل إلى قبيلة (ثمود) وقد كانت مساكنهم بالحِجْر، بين الحجاز والشام، يقول عنه القرآن الكريم:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ

جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

لِننظُرْ ماذا قال لقومه؟ وماذا دعاهم إليه؟

دعاهم إلى توحيد اللَّه عزَّ وجل وقال لهم: يا قوم وحِّدوا اللَّهَ، ولا تشركوا به، فليس لكم إلٰهٌ مستحقٌّ للعبادة غيرُه، وقد جئتكم بمعجزة واضحة، تدلُّ على صدقي، هي هذه (الناقةُ) تخرج من صخر أصمَّ، وأضاف الناقة إلى اللَّه (ناقةُ اللَّهِ) تعظيماً وتشريفاً لها، لأنها خُلقت من غير واسطة، بقدرة اللَّه تعالى من صخرة صمَّاء، بناءً على طلبهم، لمعجزة خارقةٍ منه!

دعوة شعيب عليه السلام إلى الوحدانية

الرابع: **وهذا نبيُّ اللَّه ورسولُه (شعيب) عليه السلام**، وقد أُرسل إلى أهل مَدْين، وهي مدينة في شرق الأردن قرب مَعَان، يدعو قومه إلى التوحيد، فيقول عنه القرآن الكريم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية [الأعراف: ٨٥].

قال لهم: وحِّدوا اللَّه واعبدوه، فليس لكم إلٰه غيرُه يستحقُّ العبادة!!

دعوةُ عيسى عليه السلام إلى توحيد اللَّه تعالى

الخامس: **وإذا تابعنا دعوةَ جميع المرسلين صلوات اللَّه عليهم وسلامه أجمعين**، نجد أن دعوتهم كانت واحدة، إلى (خاتم الرسل) من أنبياء بني إسرائيل، وهو سيدنا (عيسى بنُ مريمَ) فقد كَشَفَ لنا القرآن عن حقيقة رسالته، وما دعا إليه قومَه، من توحيد اللَّه عزَّ وجل، والكفِّ عمَّا زعموه في حقه من (الألوهية) ـ وحاشاه أن يدعوهم إلى هذا وقد جاءهم بدعوة التوحيد الخالص ـ حيث يقول عنه القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

السيد المسيح يتبرَّى من دعوى الألوهية

أرأيتُم أصرحَ من هذا القول، في الإيمان باللّه وتوحيده؟

وقد نَسَجَتْ طائفة كبيرة من النصارى، هذا النسيجَ العجيبَ الغريب، فزعموا أن اللّه تعالى، قد حلَّ في جَسَد عيسى، واتَّحَدَ به، فعيسى هو اللّه!! وهو ثالثُ ثلاثة!! ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٥].

اللّهُ جلَّ جلالُه ـ في نظرهم واعتقادهم ـ مكوَّنٌ من ذاتين: «اللَّاهوتية» و«الناسوتيَّة» أي حلَّتْ ذاتُ (اللّهِ) في ذات (عيسى)، فهو قد جَمَع بين كونه (إلٰهاً) وكونه (إنساناً) ولهذا اعتقدوا الألوهية في المسيح، فقالوا: إنَّ مريمَ ولدت إلٰهاً، تعالى اللّه عن ذلك عُلُوَّاً كبيراً!!

أمَّا السيد المسيح فيقول لهم بصريح العبارة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾.

أي أنا عبد اللّهِ مثلكم، فاعبدوا اللّه خالقي وخالَقكم، ثم يؤكِّد ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ أي ومن يشرك باللّه فيعبد غير اللّه، أو يعتقد بألوهيَّةِ أحد من البشر، فالجنَّةُ محرَّمة عليه، ولن يدخلها أبداً، ومصيرُه نارُ جهنم.!

السيِّدُ المسيحُ يعترفُ بالعبوديَّةِ للّهِ جلَّ وعلا

والعجيبُ في أمر النصارى، أنَّ أوَّلَ كلمةٍ نَطَق بها (عيسى) عليه السلام وهو في المهد، طفلٌ رضيع، أنه قال لأتباعه من بني إسرائيل: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].

وكان ذلك معجزةً تدلُّ على صدق نبوَّتِه، لأنه نَطَق بها وهو طفلٌ رضيع.!

ولا نجد في الأناجيل ذِكْرَ هذه المعجزة، وهي قولُه ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾[1]

---

(١) هذا هو نصُّ الآية الكريمة: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ۞ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩، ٣٠].

لأنها تُبطِلُ مزاعمَ النصارى في (ألوهيَّة) المسيح عليه السلام، ولهذا حذفوها من الأناجيل، مع أنها من سَوَاطعِ البراهين والمعجزات. !

براءة عيسى عليه السلام من دعوى الألوهية

وسوف يشاهد الخلائقُ جميعاً براءةَ السيد (المسيح) من هذه الدعوى، في مَشْهَدٍ حافل على رؤوس الأشهاد، يوم (الحشر الأكبر) حيث يلتقي جميع البشر، ويُدعى السيد المسيح «عيسى بن مريم» ويسأله ربُّ العزة والجلال، فيقولُ ما حدَّثنا عنه القرآنُ:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

هنا يعلن براءَتَه من دعوى (الألوهية)، ثم يقرِّر الحقيقة التي أمرهم بها، ودعاهم إليها، فيقول: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ... ﴾ [المائدة: ١١٧].

أي ما قلتُ لهم إلا ما كلّفتني به من أمر، وهي عبادتُك وحْدَك يا ربّ، وأنت شاهد على ذلك!

وهكذا تتجلى (دعوةُ التوحيد) في رسالة (عيسى) عليه السلام صافيةً خالصةً أنَّ اللَّهَ وَحْده، هو الإلٰهُ المعبودُ، وليس هناك إلهٌ غيرُ اللَّه! ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣].

توحيدُ اللّهِ عزَّ وجلَّ أصلُ الإيمان

التوحيد ـ اعتقاد أنَّ اللّهَ واحد ـ هو أصلُ الإيمان، وبه جاءت جميع الشرائع والأديان، بل هو الغايةُ الأساسيةُ من بعثة الرسل الكرام ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

وهذا ما تقتضيه الحكمةُ والمصلحةُ، من خلق هذا الكون، فالإلٰهُ الحقُّ لا يتعدَّد، بل هو واحد أحد، فردٌ صَمَد، لا يكون له شبيهٌ، ولا نظيرٌ، ولا مثيل ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

تصوَّرْ في مملكة واحدةٍ مَلِكان، كلُّ واحدٍ منهما ملِكٌ مستقلٌّ، يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، ماذا سيحدث؟

لا بدَّ أن تختلف الرغباتُ، ويكون بينهما التنازعُ والتَّخاصمُ، وهذا ما قرَّره القرآن الكريم، في سياق إثبات (وجود اللّه) و(وحدانيته)، حيث قال تقدست أسماؤه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۞ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢١، ٢٢] أي هل عبدوا آلهةً تقدر على إحياء الموتى؟ لو كان في الوجود إلٰهٌ غيرُ اللّهِ، لفسد نظامُ الكون، لِمَا يحدُث بين الآلهة المتعدِّدة، من الاختلاف والتنازع.!

۞۞۞

مثلان يوضّحان بطلان التعدُّد

نضرب مثلين اثنين لبطلان التعدد:

المثل الأول: في مملكةٍ واحدة مَلِكان، كلٌّ منهما يريد الاستقلال بالمُلْكِ، هذا يُصدر قوانينَ ومراسيمَ، والثاني يصدر ما يخالِفُها ويبطلها، والشَّعْبُ حائرٌ لمن يستجيب؟ ولمن يُطيع؟

في هذه الحالة لا بدَّ أن يقع التنازعُ بينهما، فيسعى كلُّ واحدٍ منهما للإطاحةِ بالآخر، والانقلاب عليه، حتى يتغلَّب أحدهما على الآخر ويقضيَ عليه، ويستقرَّ المُلْكُ له وحده.!

تابعْ معي وتصوَّرْ بأنَّ مجرماً اختطف طفلاً، ثم ذَبَحه بيده على مرأى ومَسْمع من جماهير الناس.!

المَلِكُ الأول: غَضِبَ غضباً شديداً، وقال هذا يحدُثُ في مملكتي؟ يجبُ إعدامُ هذا المجرم الأثيم، لنصونَ الدِّماءَ، ونحفظَ حياة البشر، ونصونَ هيبة الدولة!!

المَلِكُ الثاني: قال لا يجوز إعدامُ هذا، فإنَّ إزهاقَ روحِ إنسان (جريمةٌ بشعة)، لا أوافق عليها، ماذا تقول عنَّا الأممُ المتحضِّرة؟ ألَا يقولون: هذه (رجعيَّةٌ) وعملٌ وحشي!؟

إنما أسجنه عشْرَ سنوات، ثم أطلق سَرَاحه، فلعلَّه يتوبُ، ويصبح عضواً نافعاً في الحياة!!

هذا منطقُ الأوربيين اليوم، إلغاء (قانون الإعدام) رحمةً بالمجرمين!

كيف يستقيم أمرُ هذه الدولة، وفيها التنازعُ بين المَلِكَيْن الحاكِمَيْن!؟

المَثَلُ الثاني

المَثَلُ الثاني: مديران عُيِّنا في مدرسة واحدة، فيها طلاب كثيرون يزيدون

على الألف، دخلا المدرسة كرئيسين لها، بنفس العمل، ونفس الوظيفة والمرتِّب، على أنَّ كلّاً منهما مديرٌ، يدير شؤونَ المدرسة كما يشاء.

ظَهَر في المدرسة طالبٌ كسولٌ مشاغب، يُؤْذي الطُلَّاب، ويهدِّد الأساتذة، ويقوم بأعمال سفيهة، تُخلُّ بالآداب، ويجرِّئُ بعضَ الطلاب على الاستخفاف بالأساتذة.

ضجَّتْ منه المدرسة وضجَّ منه الطلاب.!

المدير الأول: اتخذ قراراً بفصله من المدرسة، لئلَّا تسريَ عَدْواه إلى الطُلَّاب، ويُجرِّأَهم على عصيانِ أوامر الإدارة.!

المديرُ الثاني: قال: لا، لا يجوزُ أن نحرمَهُ من العلم، فالعلمُ حقٌّ لكل طالب، سواءً كان الطالب مؤدَّباً أو غير مؤدَّب، وإنما نعاقبه كلَّما أساء!!

وقع بينهما نزاع شديد بسبب ذلك، كاد يفضي إلى أن يبطش أحدُهُما بالآخر، ووصلَ الأمرُ إلى وزير التعليم، فقضى بنقل أحدهما إلى التدريس في مدرسة أخرى، وثبَّتَ الأول مديراً لتلك المدرسة، لأنه كان مصيباً في قراره.!

أفرأيتم كيف يحصُلُ التنازعُ والتَّخَاصمُ في أمر بسيط، من أمور الدنيا، كرئيسين في دائرة، أو مديرين في مدرسة!!

فكيف يكون حالُ الدنيا، لو كان فيها إلهان اثنان؟ كلٌّ يُسَيِّرُ الكونَ حسْبَ مشيئته وإرادته؟

أَلَا يشتدُّ النزاع والصراع بينهما؟

ألم نسمع بالانقلابات العديدة، التي تحدث في البلاد بسبب التنازع على السلطة، فكيف لو كان للكون أكثرُ من إله؟ وهنا ندرك معنى قول الحقِّ جلَّ وعلا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي لفسد نظام السموات والأرض، وفَسَد نظامُ الكون بأجمَعِه.

❁❁❁

المقارنة بين عقيدة (التوحيد) وعقيدة (التثليث)

عقيدةُ التوحيد هي العقيدةُ النقيَّةُ الصافية المبسَّطة السهلة، التي يقبلها العقل، وتقتضيها الحكمةُ، وهي اعتقادُ أنَّ اللَّهَ الذي خَلَقَ الكونَ، ونظَّم شؤونه، هو إلٰهٌ واحد، ليس له شريكٌ في ملكه، ولا يشابهُه أحد لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، هذه العقيدةُ هي التي جاء بها جميع الرسل صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم أجمعين، اسمع قول الحقِّ جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

أمَّا عقيدة (التثليث) فباطلة وهي اعتقاد أنَّ الآلهة ثلاثة «اللَّهُ» و«عيسى» و«روح القُدُس» كما هي عقيدةُ النصارى، ولهذا اشتهر قولهم: (الآب، والابن، وروح القدس) فجعلوا اللَّهَ تعالى (ثالثَ ثلاثة)، وقد حكم القرآن الكريمُ عليهم بالكفر، والخروج عن (عقيدة التوحيد) التي جاء بها السيد المسيح (عيسى بن مريم) عليه السلام.!

اقرأ قول الحقِّ جلَّ جلاله فيهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤].

عقيدةُ التثليث يرفضُها العقل

لقد اخترعوا عقيدة لا يقبلها عقل، تدعو إلى الدهشةِ والاستغراب، فقالوا: إنَّ الإلٰه جوهرٌ واحد، حلَّ في ثلاثة أجسام: (آب، وابن، وروح قُدس) وهذه الثلاثة إلٰهٌ واحد!!

ومثَّلوا لذلك بالشَّمس تحتوي على ثلاثة أشياء (قرص، وشعاع، وحرارة) وهي واحدة، وهذا احتقار للعقل الإنساني، وضَحِكٌ على العَوَامِّ من

البسطاء، فالشمسُ واحدة، وإن كان فيها ما لا يحصى من الأشياء (نور، وحرارة، وعواصف، وانفجارات ذريَّة، وتفاعلات مغناطيسية، وبراكينُ تقذف بالحُمَم إلى آلاف الكيلومترات) إلى غير ذلك، ولكنها شمسٌ واحدة، أمَّا (الآب) فهو غيرُ (الابن)، وغيرُ (روح القدس)، وروحُ القُدُس غيرُ (الابنِ) وغيرُ (الآب)، فكيف تكون الثلاثةُ واحداً، والواحد ثلاثة؟ أليس هذا إزراءً بالعقل؟ وهو أظهرُ في البطلان من الشمس في وَضَح النهار!؟

وبعد هذا البيان يقرِّر القرآنُ الكريم، الحقيقةَ ناصعةً جلية، فيقول في حقيقة أمر عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

أي ليس السيد المسيح إلَّا أحدَ الرسل الكرام، وليس فيه من صفاتِ الألوهية شيء، وقد سبقه رسلٌ كثيرون، أتوا بمعجزات باهرة، فإنْ كان (عيسى) قد أحيا اللَّهُ الموتى على يده، فقد أحيا اللَّهُ العصا في يد (موسى) فصارت حيَّةً تسعى، وهي من خشب، وهذا أمرٌ أعجب، وإنْ خُلِقَ عيسى من غير أب، فقد خُلق (آدمُ) من غيرِ أبٍ ولا أم، وهذا أغرب، فلماذا يُضْفُون على سيِّدنا (عيسى) صفات الألوهية!؟

مع روعةِ التعبير المعجز

لقد كان عيسى عليه السلام وأمَّه كسائر البشر، يأكلان الطعامَ، ويُحدثان الحَدَث، فكيف يكونان إلٰهين؟

ولْنقفْ وقفة تأمُّل، أمام روعةِ التعبير القرآني المعجز، وأمام قوة حجته وبيانه، حيث يقول الحقُّ جلَّ جلالُه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥] فقد أشار بهذه اللفتة البديعة، إلى أنَّ من يأكلُ الطعامَ، ويشربُ الشَّرَابَ، يحتاج إلى إخراجِ الفَضَلات، يحتاج إلى التبوُّل والتغوُّط، والقرآنُ الكريمُ يتنزَّه عن ذكر الألفاظ القبيحة غير

المستحسنة، لذلك لم يقل: كانا يبولان ويتغوَّطان، ويُحدِثَان الحَدَث، ويذهبان إلى (التواليت) ولكنَّه كنَّى عن ذلك، بهذا التعبير الراقي، الذي يسمو به إلى ذروة (الإبداع والبيان) فقال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ للإشارة إلى أنَّ من يأكل الطَّعام، يحتاج إلى إخراج الفضلات، والربُّ ـ جلَّ جلالُه ـ منزَّهٌ عن ذلك، فكيف يكون عيسى وأمُّه إلهين؟ فافهم أيها الإنسانُ العاقلُ، وتدبَّرْ دقائق أسرار القرآن العظيم!!

الكون يشهد للَّهِ عزَّ وجلَّ بالوحدانية

إنَّ عظمةَ هذا الكون الفسيح، ودقَّةَ إبداعه وإتقانه، تدلُّ على وحدانيته سبحانه وتعالى، وباهرِ عظمته وسلطانه.

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

وتنبيهاً على أهمية (عقيدة التوحيد)، وتفخيماً لشأنها، فقد شهد تعالى لنفسه بالوحدانية، وشهدت الملائكةُ وأهلُ العلم له بذلك، لأن الاعتقادَ بوحدانية اللَّه عزَّ وجل، هو الأصلُ الذي قامت عليه السمواتُ والأرضُ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

آيات الوحدانية في القرآن العظيم

ويطالعُنَا القرآنُ في آياته الباهرات، بالأدلَّةِ القاطعة على (وحدانية اللَّه) عزَّ وجلَّ في كلِّ ما خلق وبَرَأ، اقرأ قوله تعالى:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقولَه سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ﴾ [محمد: ١٩].

وقولَه عزَّ شأنه: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

وقولَه جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ﴾ [النساء: ٨٧].

وقولَه تقدست أسماؤه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٤].

ولو ذهبنا نستقصي آيات الوحدانية، لضَاقَ بنا المجال، فإنها أكثرُ من أن تُحْصى، وهذه تسمى (الأدلة النقلية) على وحدانيته سبحانه وتعالى.!

الأدلةُ العقلية على الوحدانية

أما الأدلة العقلية: فقد ذكرنا بعضها فيما سبَقَ، ويكفي هنا أنْ نذكر منها دليلين اثنين: دليلَ (العناية والإتقان) ودليل (التنظيم والاختراع) فحين نرى الإتقان في كل ذرَّة من ذرَّات الوجود، في الإنسان، والحيوان، والنبات، والشجر، والثمر، نستيقن أن صانعها ومهندسها واحد، أبدع صنعته، وأتقن خلقه.!

ولو كان الصانع أكثر من واحد، لتباينت الأشكالُ والصُّوَرُ، واختلفت ملامحُ البشر، فمنهم قِزْم، ومنهم عملاق، ومنهم من صورتُه صورةُ إنسان، وهو بوجهِ قردٍ مثلاً.

ولكانت النُّطْفةُ التي يُلْقِيها الرجلُ في رحم المرأة، تأتي بعجائبَ وغرائبَ من أشكال المخلوقات المتباينة، ولكنَّ الخالق المبدعَ الحكيمَ، جعل خلْقَ الإنسانِ متناسباً، في أحسن هيئة، وأجملِ صورة، جعله سويًّا، سالمَ الأعضاء، وجَعَلَه معتدل القامة، في أبدع الهيئات والأشكال، يسمعُ، ويبصر، ويعقل، أليس في هذا برهاناً على الوحدانية؟

الإبداعُ في خلق الإنسان

استمع إلى قول الحقِّ جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الإنفطار: ٦ ـ ٨].

أي في أي صورة شاءها لك ربُّك، من الصور الحسنة العجيبة، اختارها لك فخلقك فيها، ولو شاء لجعلك في صورة كالقرد، وكالبهيمة، وكالخنزير، ولكنَّه بفضله وإنعامه، خَلَقَك في أحسن صورة، فجعلك معتدلَ القامة، متناسبَ الأعضاء، بحيث صارت كلُّ أعضاء الجسم متساوية، لا تفاوتَ بينها ولا تناقض، فلو كانت إحدى العينين، أوسعُ وأضخم من الأخرى، أو إحدى

الرجلين أطولُ من الأخرى، أو إحدى الأذنين تشبه أذنَ الأرنب، والأخرى تشبه أذن الفيل، لكان منظَرُ الإنسان مشوَّهاً غير مستحسن.!

فهذا الإتقانُ والإبداعُ، دليلٌ على وحدانية الخالق جلَّ وعلا ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ثم أمعنْ النظر في هذه السماء الجميلة، المزيَّنة بالكواكب المضيئة وبالشمس والقمر، وكلُّها تدور في هذا الكون الفسيح، في صَمْتٍ وسكون وهدوء، بأمر إلهٍ قدير، وبتدبيرِ واحدٍ حكيم، ولولا هذا (النظامُ المحْكَم) لكانت تلك الأجرام الهائلة، تُحدثُ بحَرَكاتها الرهيبة، أصواتاً مدوّيةً مخيفة، تَصُمُّ أسماعَ البشر، وتُحدث من الاضطراب والاختلاط، ما يجعل (الكرَة الأرضيَّةَ) مسرحاً للفزع والهَلَع، والهلاك والدَّمار.!

تصوَّرْ أنَّ عشرين ثوراً، أُطلقوا في حقلٍ من الحقول، فثار بعضُهم على بعض، وكان بينهم من الصِّدام، والهَرْج، والمرج، ما لا يتصوَّرُه مخلوق، فكيف بأجرامٍ سماوية، هي أضخم من كرتنا الأرضية، بمئات آلاف المرَّات، تنطلق في سرعة هائلة، هي أسرعُ من القذيفة بسبعين مرة ـ كما يقول علماء الفَلَك ـ كيف يكون حال الناس، لولا النظام المحكم الذي أوجده اللَّه، ورتَّب حركة الكون عليه؟ أفلا يدلُّ هذا النظامُ البديع، على (وحدانية) الخالق جلَّ وعلا؟

وهنا نتفكر عظمةَ هذا الإلٰه الجليل، ونتدبَّرُ قولَ اللَّه العلي الكبير:

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠].

ومن هذا النظام البديع، ندركُ سرَّ قول اللَّه عزَّ وجل، الذي يذكِّر بآياته، على وحدانيته ووجوده:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

أي لو فرضنا أن اللَّه تعالى تخلَّى عن إمساكهما، فمن يمسكهما غيرُه؟

ولو أبطل المولى جلَّ وعلا القانونَ والنظام، الذي تسير به هذه الأفلاك الضخمة، فمن هو القادر الذي يستطيع أن يعيد إليهما النظام والانضباط؟

ولعلَّ في هذه الآية المعجزة، ما ينبِّهنا به اللَّهُ تعالى على (حركة الأرض ودورانها)، كبقية النجوم والكواكب، وهي لفتة بديعة إلى حركة الكون كلِّه ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فالأرضُ، والشمسُ، والقمرُ، والنجومُ، كلُّها تسبح في هذا الفضاء الفسيح، ولو كانت الأرضُ واقفةً عن الحركة، أو ثابتةً على شيء، لَمَا احتاجت إلى الإمساك(١)!!

أفلا يدلُّ هذا النظام المحكم، على وحدانية اللَّه وجلاله وعظمته؟ وعلى سعة قدرة القدير، ومدى انقياد هذه المجَرَّات والنجوم، وخضوعها لأوامر الواحد الأحد؟ فسبحان ذي المُلْك والملكوت، والعزة والجبروت، الذي أبدع صنعه وخلقه!! ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) انظر كتابنا حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن الكريم.

صفة الوحدانية في سورة الإخلاص

سورة الإخلاص من السور المكية، التي نزلت لتوضيح صفات اللَّه تبارك وتعالى، وبيان وحدانيته وجلاله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

نزلت السورة الكريمة، حينما جاء بعضُ المشركين إلى رسول اللَّه ﷺ، فقالوا له يا محمد: صِفْ لنا ربك ـ أي بيِّنْ لنا من أيِّ شيء هو؟ ـ وما هي أوصافه؟ أمِنْ ذهبٍ هو؟ أم من فضَّة؟ أم من زَبَرجدٍ؟ أم من ياقوت؟ فنزلت هذه السورة الكريمة.

وإذا نظرنا إلى صيغة سؤال هؤلاء المشركين، عرفنا تَفَاهةَ عقولهم، وقِصَر نظرهم!؟

كيف لا، وهم عبدة أوثان وأصنام، نُحتت بأيديهم من الحجارة!؟ وهم حين عبدوا تلك الحجارة، ما كان تصوُّرهم إلَّا أنَّ ما يدعو إلى عبادتِهِ محمَّدٌ ﷺ، لا بدَّ أن يكون أعظَمَ ممَّا يعبدونه هم، من شيء أفخَمَ من الحجارة، فقالوا: (أمنْ ذهبٍ هو؟ أم من فضَّةٍ؟ أم من زَبَرْجَد؟ أم من ياقوت!؟).

هذا كلامٌ يدلُّ على سفاهةٍ وبلاهةٍ، ولهذا جاءَ الردُّ المحكَمُ على سؤالهم، من ربٍّ حكيم، في سورةٍ كاملة قصيرة، وضَّح تعالى فيها صفاته الجليلة.

توضيح معنى السورة الكريمة

ولْنشرحْ معنى هذه السورة الكريمة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾

أي قل لهؤلاء المشركين المستهزئين: إنَّ ربي الذي أعبده، والذي أدعوكم لعبادته، هو إلٰهٌ عظيمٌ جليل، متصفٌ بكل صفات الكمال، هو إلٰهٌ واحدٌ أحد، فردٌ صَمَد، لا شبيه له ولا نظير، ولا وزيرَ، ولا عديل، واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في أفعاله.

لَا ذَاتُـهُ تُـشْـبِـهُـهَـا الـذَّوَاتُ وَلَا حَـكَـتْ صِـفَـاتِـهِ الـصِّـفَـاتُ

ومعنى الصَّمَد: السيِّدُ الذي انتهى إليه العِزُّ والسُّؤْدُدُ، والذي يطلب النَّاسُ حوائجَهُم ومسائِلَهم منه، يحتاج الخلقُ إليه، وهو الغنيُّ عن العالمين. !

قال ابنُ عباس: (الصَّمَدُ) هو السيِّدُ الذي قد كَمُل في سُؤْدده ـ أي رفعته ـ والشريفُ الذي قد كَمُل في شَرَفه، والعظيمُ الذي قد كَمُل في عظمته، والعليمُ الذي قد كَمُل في علمه، هو اللَّه الذي ليس له كفءٌ، وليس كمثله شيء، وهو الواحد القهار[1].

ومعنى الكفء: الشبيهُ والمثيلُ، أي لا يشبهه تعالى أحدٌ من الخلق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقولُه تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي ليس له ذرية من بنين وبنات.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي إنه تعالى لم يُولد من والد، فإنه ليس له أب، ولا أمٌّ، لأن كلَّ مولودٍ حادث، واللَّهُ أزليٌّ قديم، وكلُّ حادث إلى الفناء، واللَّهُ باقٍ دائم لا يموت ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالجملة الأولى ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ نفيٌ للذريَّة والبنين. !

والجملة الثانية ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ نفيٌ للوالِدِيَّة، أي ليس له أبٌ، ولا أم.

والجملةُ الثالثة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفيٌ للشبيه، والمثيلِ، والنظيرِ. !

❁❁❁

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ٣١/ ١٧٥.

الردُّ على فِرَقِ أهل الضلالة

وهذه السورة الكريمة على وَجَازتها، قد أثبت صفات ربِّ العزة والجلال، الكبير المتعال، فنزَّهَتْه عن صفات العجز والنقص، وأثبتَتْ له صفاتِ العظمة والجلال، وردَّت بأسلوبها المعجز، على فِرَقِ أهل الضلالة جميعاً (اليهود، والنصارى، والمشركين) عبدةِ الأوثان. !

فاليهود قالوا: (عُزير بنُ اللَّه)، والنصارى قالوا: (المسيح ابنُ اللَّه)، والإلهُ مجموع من ثلاثة أقانيم (الآب، والابن، وروح القدس) والثلاثة واحد.

والمشركون قالوا: (الملائكةُ بناتُ اللَّه)، فكذَّبهم اللَّه جميعاً، وأثبَتَ في هذه السورة الوحدانية لنفسه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفكرةُ إثبات الولد للَّه عزَّ وجل، فكرةٌ سخيفة حمقاء، لا تصدر عن عاقل، ذلك لأنَّ الولَدَ لا يأتي إلَّا من زوجة، وتنزَّه اللَّه عن الزوجة والولد، ولهذا قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

دعوى ألوهيَّة المسيح باطلة

والأعجبُ من كل هذا، أنهم يعتقدون بألوهية المسيح، ثم يزعمون أنه صُلب، ولماذا صُلب؟ يقولون: ليكفِّر ذنوبَ بني آدم، عجباً واللَّه!! كيف يكون إلهاً ويُصلب؟

ويعتقدون بأنه وُلد من مريم، ويسمونه (عَامَ الميلاد) ويحتفلون به احتفالاً كبيراً، فكيف يكون إلٰهاً، وقد خرج من فَرْج امرأة؟ وَوُلد كما يولد البشر!؟ أفلا يخجلون على أنفسهم من هذا الزعم الباطل!؟

وإنْ قالوا: إنه (ابنُ اللَّه) قدَّمه اللَّه قرباناً من أجلنا، فصُلب من أجلِ الخطيئة التي اقترفها البشر!!

فنقول: هل هذا من العدل؟ أن يُعاقَبَ إنسانٌ من أجل ذنبٍ اقترفه غيره؟

أَمَا كان يستطيع الربُّ أن يكفِّر ذنوب بني آدم، من غير أن يُقدِّم وَلَدَه للصلب؟

ومن هنا جاءت براهين التوحيد، ساطعةً مستفيضةً في القرآن الكريم، بأساليبَ شتَّى، ومنطقٍ سليم، بعيداً عن الخرافات والأساطير، ليكون الإنسانُ على بيِّنةٍ من أمر دينه، فعقيدةُ التوحيد عقيدةُ جميع الأنبياء والمرسلين، وهي العقيدةُ الصحيحة التي يَقْبَلها اللَّه تعالى دون غيرها، لأنها تتفق مع المنطق والعقل. !

وهذه هي (عقيدة المسلمين) النقيَّةُ الصافيةُ التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين في قول الْحقِّ جلَّ وعلا: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولْنُصغِ السمعَ إلى ما جاء في الحديث القدسي حيثُ يقول اللَّه تعالى:

(كذَّبني ابنُ آدم، ولم يكن له ذلك ـ أي لا ينبغي له أن يكذِّب خالقَه ـ وشَتَمَني ولم يكن له ذلك!! فأمَّا تكذيبه إيَّاي؟ فقولُه: لن يعيدني كما بدأني ـ أي لا يستطيع أن يحييني بعد الموت ـ وليس أولُ الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته. !

وأمَّا شتمُهُ إيَّايَ؟ فقولُه: اتَّخذ اللَّهُ ولداً، وأنا الأحدُ الصَّمدُ، لم أَلِدْ ولم أُولد، ولم يكنْ لي كُفُواً أحد[(١)]). كُفواً: أي شبيهاً ومثيلاً.

حقاً إن هذا الاعتقاد بأن اللَّه تعالى له ولدٌ، شتيمةٌ ومسبَّةٌ للخالق جلَّ وعلا، ولكنَّ اللَّهَ تعالى حليمٌ بالعباد، لا يعجِّل لهم العقوبة، مع كثرة كفرهم وجحودهم لنِعَم اللَّه ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

وصَدَق ربنا العظيمُ الجليل، حين قال في كتابه العظيم، عن هؤلاء المفترين ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۞ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

(إدّاً) أي منكراً شنيعاً عظيماً من الافتراء.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة الصَّمد ٨/ ٥٦٨ فتح الباري.

الفصل الثالث

الإيمانُ بالرسل والأنبياء

صلوات اللّٰه وسلامه عليهم

الفصل الثالث

الإيمانُ بالرسل والأنبياء المرسلين

الرُّسُلُ الكرام صلواتُ اللَّه وسلامه عليهم، مجموعة من البشر، اختارهم اللَّه عزَّ وجلَّ، ليبلِّغوا الناسَ أوامرَ اللَّه إلى عباده، ويرشدوهم إلى طريق الخير والسعادة، حتَّى لا يبقى لأحدٍ من الخلق، عذرٌ عند اللَّه يوم القيامة، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير.!

وقد أرشد تعالى إلى هذه الحكمةِ والغاية بقوله جلَّ ثناؤه:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ولقد خصَّ اللَّه تعالى الأنبياءَ والمرسلين بالوحي، فَهُمْ وإن كانوا من البشر، إلَّا أن اللَّه تعالى اصطفاهم واختارهم من بين سائر الناس (بالوحي المقدَّس) الذي أوحاه إليهم، بواسطة أمين السَّماء (جبريل) عليه السلام، فهو الواسطة بين اللَّه تعالى ورسله، كما قال سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

أراد بالروح: الوحيَ الإلٰهي، وعبَّر عن (جبريل) بالملائكة، تعظيماً وتفخيماً لشأنه، ورفعاً لقدره، لأنه رئيسُ الملائكة، وهو المسمَّى بـ(روح القُدُس) و(الروح الأمين).

قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢] أي نزَّل هذا القرآنَ عليك يا محمد (جبريلُ الأمين) لتثبيت المؤمنين على الإيمان، وتعريفهم أنه كلام الرحمن.

وتأكيداً على أن (جبريل) عليه السلام، هو المكلَّف بنزول الوحي على الرسل الكرام، فقد جاء في سورة الشعراء قولُه سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

الرسولُ إذاً من البشر، ليس له من صفات الإلٰه الخالق شيء، إنَّما هو عبدٌ كسائر العباد، أوحى اللَّه إليه بالرسالة، وهذا ما أُمر به الرسولُ ﷺ وسائرُ من سَبَقه من الرسل، أن يعلنوه على رؤوس الأشهاد ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.! [النحل: ٤٣].

اللَّهُ عزَّ وجلَّ خصَّ الرسلَ بالوحي

إن الرُّسُلَ بشرٌ، وهم رجالٌ، ولكنَّ اللَّه ميَّزهم عن سائر الناس (بالوحي الإلٰهي) فمن زعم أنَّ لهم شيئاً من صفات ذي العزة والجلال، فقد أعظمَ على اللَّه الفِرْيَةَ، لأنَّ البشر جميعاً يموتون، واللَّهُ وحدَه هو (الحيُّ القيوم)، حتى السيد (المسيح) عيسى بن مريم عليه السلام، ما دعا أحداً إلى عبادته، إنما دعاهم إلى عبادة الواحد الأحد، وسيكون له موقف يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، يعلن فيه براءته ممَّا نَسَبه إليه أهلُ الضلال من (الألوهية) وأنه شريك مع اللَّه في (الربوبيَّة)، يُعلنُ ذلك في مشهد حافلٍ (يوم الحشر الأكبر) حيثُ يلتقي فيه جميع البشر، ويسأله ربُّ العزة والجلال، تَبْكيتاً لمن عَبَده من دون اللَّه، وإخزاءً لهم، يتوجَّه إليه هذا السؤال:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

السيد المسيح يعلن عبوديته للّٰه

ثم يعلن عبوديته للّٰه، في أوضح بيان، وأقطع برهان فيقول عليه السلام:

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهذا اعتذار منه وبراءة، من ذلك القول الشنيع، ومبالغةٌ منه في الأدب في حضرة ذي العظمة والجلال، يقول سيِّدنا عيسى: ما قلتُ لهم إلَّا ما كلَّفْتني به من أمر، قلتُ لهم: اعبدوا اللَّه خالقي وخالقكم، فأنا عبدٌ مثلكم،

وأنت يا رب الشاهد على ذلك مدة إقامتي بينهم، فلمَّا رفعتني إلى السماء، كنتَ أنتَ الحفيظَ على أعمالهم، والشاهدَ على أفعالهم، وأنت المطَّلع على كل شيء، لا يخفى عليكم أمر من أمور العباد.

وكفى بذلك خِزْياً وتكذيباً لمن عَبَد المسيحَ من دون اللَّه!!

لماذا كان الرُّسُلُ من البشر؟

لمَّا اقتضت حكمةُ اللَّه عزَّ وجلَّ إرسالَ الرسل لهداية البشر، أرسل لهم الرُّسُلَ والأنبياء، وجعلهم من البشر، ليمكن الأخذُ عنهم، والاقتداءُ بهم، لأن الجنس يأتلف مع جنسه، ولو كان الرسل من الملائكة، لَمَا أمكن اللقاءُ بهم، ولا الأخذُ عنهم، ممَّا لا يحقِّق الهدف المنشود. !

ولقد جهل المشركون هذه الحكمة، واعترضوا على رسول اللَّه ﷺ كيف يرسل اللَّه إليهم رجلاً مثلهم؟ وحكى القرآن عنهم ذلك الأمر الذي استبعدوه، فقال عزَّ شأنه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

المرادُ بالناس هنا: (كفَّار مكة)، الذين بُعث فيهم رسولُ اللَّه ﷺ، والآيةُ ردٌّ عليهم حين قالوا: اللَّهُ أعظم من أن يكون رسولُه بشراً!

أمَا وَجَد اللَّهُ من يرسلُه إلينا، إلَّا يتيمَ أبي طالب؟!

سفاهة المشركين وحماقتهم

لقد استبعدوا ـ لحماقتهم وجهلهم ـ أن يكون الرسولُ من البشر، ولم يستبعدوا أن يكون (الإلهُ) الذي يعبدونه من الحَجَر، حيث عبدوا الأوثان والأصنام!!

طلب المنكرون لرسالته ﷺ، أن يكون الرسولُ المبعوثُ إليهم من الملائكة لا من البشر ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] وقد ردَّ اللَّه عليهم هذا الاقتراحَ السخيفَ، ولَفَتَ أنظارَهم إلى أن الحكمة تقتضي أن يكون الرسولُ، من جنس المرسل إليهم، ليُمْكِنَهُم التحدُّث معه، واللقاءَ به، والأخذَ عنه، فلو أرسله من الملائكة، لكان من الضروري أن يرسله في صورة رجل، لعدم استطاعة البشر، رؤيةَ المَلَك في (صورته

المَلَكيَّة)، ولهذا عقَّب تعالى على الطَّلب، بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

والغرضُ من الآية تأكيدُ استحالة أن يكون الرسولُ من الملائكة، لأنه لا طاقة لهم برؤية المَلَك بصورته الملكية، التي خلقه اللَّه عليها!! وحين طلب الرسول ﷺ من جبريل أن يراه بصورته الملكية، فَتَحَ جناحين من أجنحته، فسدَّ ما بين المشرق والمغرب، فأُغمي على الرسول ﷺ من هول ما رأى!! ولهذا كان جبريلُ عليه السلام يأتي الرسولَ ﷺ بصورة إنسان من البشر، أو صورة (دحيةَ الكلبيِّ) أحد الصحابة الكرام، ولا يأتيه بصورته المَلَكية.!

اعتراض المشركين على رسالة خاتم الأنبياء ﷺ

لم يدرك المشركون هذه الحكمة الإلٰهية، من بعثة الرسل من البشر، فاعترضوا وأنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً إليهم، فقالوا: كيف يكون رسولاً؟ وهو رجل مثلُنا يأكل ويشرب، وينزل إلى الأسواق لقضاء حاجاته؟ هلَّا كان من الملائكة، أو مثلَ الملوك يعيش في رفاهية ونعيم، بين الحدائق الناضرة، والقصور الشامخة، لتظهر عليه آثار الأنبياء والعظماء، فنصدّقه في دعوى الرسالة!؟

هذا ما قصَّه علينا القرآن الكريم، حول اعتراضهم على نبوة محمد ﷺ فقال: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ٩].

نظرة الجهلاء إلى النبوَّة والرسالة

هذه هي نظرةُ الجهلاء والسفهاء، ينظرون إلى النبوة والرسالة، نظرة العلوِّ والكبرياء، فالرسول في نظرهم يجب أن يكون من الملائكة، أو من الملوك والعظماء، وأمَّا أن يكون من عامَّةِ الناس، فهذا نقصٌ في حقِّه وفي مقامه الشريف، وقد حكى اللَّه ذلك عنهم، بقوله تقدست أسماؤه:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ • أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢].

وما عرفوا سرَّ الاختيار والاصطفاء لهذا الأمر ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] بين الرسولِ والمرسلِ إليهم، فلو كان سُكَّانُ الأرض من الملائكة، لبعث اللَّه إليهم مَلَكاً من جنسهم، إذْ جرَت حكمةُ اللَّه تعالى، أن يبعث الجنسَ إلى جنسه، وهذا ما وضحته الآية الكريمة: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا • قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥].

والمعنى: أي ما منع هؤلاء الكفار من الإيمان بالقرآن، والتصديق برسالة محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، إلَّا اعتقادُهم استحالةَ أن يأتي الرسولُ من البشر، ولو كان أهل الأرض من الملائكة، لبعث اللَّه الرسولَ من الملائكة، ولكنهم بشر، فالرسولُ إليهم ينبغي أن يكون من البشر، لأن الجنس يألفه الجنس.!

مطالبُ تعجيزية يطلبها المشركون من الرسول ﷺ

وإمعاناً من المشركين في الضلال، وتكذيبهم لأشرف الخلق محمد عليه الصلاة والسلام، طلبوا منه مطالب تعجيزية، من أشنعها وأقبحها أن يأتيهم محمد باللَّه عزَّ وجلَّ، وبالملائكة معه، ليشهدوا بصدق رسالته، وأن يروا اللَّهَ والملائكةَ مقابلة وعياناً، دون سِتارٍ ولا حجاب، اقرأ هذه الآياتِ الكريمةَ:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا • أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا • أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا • أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

خمسة اقتراحات لكفار مكة

خمسةُ مطالبَ تعجيزية، طلبوها من رسول اللَّه ﷺ حتى يُصَدِّقوا برسالته:

الأول: أن يُخرج لهم في مكة عيناً غزيرةً من الماء، تتدفَّق بالماء السلسبيل.

الثاني: أن يكون لمحمد حديقةٌ غنَّاء، وبستانٌ فيه من أنواع النخيل والأعناب، تجري فيها الأنهار بقوة وغزارة، لتدلَّ على غناه وعظمته.

الثالث: أن يُسْقِط عليهم السماءَ قِطَعاً، قِطَعاً، ويأتي اللَّهُ ومعه الملائكة فيشهدوا لمحمد ﷺ بالرسالة.!

الرابع: أن يكون للرسول ﷺ، قصرٌ فخمٌ ضخم من ذهب، لا من حجر وطين، كبرهان على محبة اللَّه له.

الخامس: أن يصعد إلى السماء ويرى ملكوتها، ويخبرهم عمَّا شاهده من عجائب الكون، ثم يأتي لهم بكتاب مسطَّر من ربِّ العالمين، أن محمداً عبده ورسوله.

هذه هي اقتراحات المشركين ومطالبُهم، وما هي في الحقيقة إلَّا سفاهات وحماقات، تدلُّ على بالغ الغطرسة والكبرياء، ولذلك خُتمت الآيات الكريمة بقوله سبحانه: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾!؟

أي قل لهم يا محمد: يا سبحان اللَّه!! هل أنا إلهٌ حتى تطلبوا منِّي أمثالَ هذه الخوارق؟ ما أنا إلا رسول من البشر، بعثني اللَّه إليكم، فَلِماذَا هذا الجحود والعناد!؟

كم عددُ الرسل والأنبياء؟

لقد بعث اللّه إلى البشر، رسلاً وأنبياء، لا يَكادون يُحصَون عدداً، اختارهم اللّه واصطفاهم من بين سائر الخلق، فلم يرسل اللّه لعباده رسولاً واحداً أو اثنين، أو مائةً أو مائتين، وإنما بَعَثَهم كثرةً كثيرة، لهداية الخلق وإرشادهم إلى اللّه تعالى. !

أولهم (آدم) وآخرهم (محمد) خاتمُ الأنبياء والمرسلين، صلواتُ اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

أمَّا عدد الرسل فهم جمعٌ غفير/ ٣١٣/ ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، ذُكر منهم في القرآن الكريم/ ٢٥/ خمسة وعشرون رسولاً، ذُكروا مفرَّقين في سور عديدة من القرآن الكريم، وفي سورة الأنعام عدَّ اللّه منهم/ ١٨/ ثمانية عشر رسولاً، مجتمعين في آية واحدة، هي قوله تقدست أسماؤه:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

هذا عددهم (ثمانية عشر) رسولاً، وأمَّا بقيَّةُ الرسل السبعة، فقد وَرَد ذكرُهم متفرقاً في سُوَر عدة من القرآن الكريم.

وقد جمع بعضُ الفضلاء عَدَدهم في بيتين من الشعر، فقال:

في «تِلْكَ حُجَّتُنَا» مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُو
إِدْرِيسُ، هُودٌ، شُعَيْبٌ، صَالِحٌ، وكَذَا ذُو الكِفْلِ، آدَمُ، بِالمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

من يجب الإيمان بهم تفصيلاً؟

أقول: هؤلاء المذكورون في القرآن الخمسة وعشرون، يجب الإيمان بهم تفصيلاً، بمعنى أن من كذَّب واحداً منهم أو أنكر رسالته، اختلَّ إيمانه، وارتدَّ عن الدين، لأنه كذَّب اللَّه في خبره، فإن اللَّه تعالى يقول:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النساء: ١٦٣] فذكرهم تعالى بأسمائهم، وأخبر أنه أوحى إليهم، فالمنكِرُ لرسالةِ أحدٍ منهم، مكذِّبٌ للَّه تعالى، فمن كفر بنبيٍّ فقد كفَر بِسائر الأنبياء.!

بدأ تعالى بأفخم الأنبياء (محمد) ﷺ، ثم بشيخ الأنبياء (نوح) عليه السلام، ثم بأب الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام، وهو الذي تفرَّعتْ شجرة الأنبياء منه، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحديد: ٢٦].

ثم ذكر أكابرَ أنبياء بني إسرائيل (إسماعيل، وإسحق، ويعقوب، وعيسى، وأيوب، ويونس، وهارون، وسليمان، وداود) عليهم من اللَّهِ أفضلُ الصلاة والتسليم.

ثم عقَّب على ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ [النساء: ١٦٤] فدلَّ على أن هؤلاء المذكورين في القرآن، ليسوا جميعَ الرسل، إنَّما هناك رسلٌ غيرهم، بعثهم اللَّه إلى البشر، يجب الإيمان بهم إجمالاً، أي الاعتقاد بوجود رسل آخرين، لم يذكروا في القرآن الكريم، ويجب علينا أن نعتقد بهم، وهم بقية الرسل الذين أخبر الصادق المصدوق عنهم بأنهم/ ٣١٣/ ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولاً، وهؤلاء جميعاً رسل، يجب الإيمان بهم على طريق الإجمال لا التفصيل.!

عدد الأنبياء لا يكاد يُتصوَّر

أمَّا الأنبياء صلوات اللَّه عليهم، فحدِّثْ عنهم ولا حرج، فإن أعدادهم كثرةٌ كثيرة، لا يكادون يُحصون عدداً!!

وقد أخبرنا الرسول ﷺ بأن عددهم مائةٌ وأربعة وعشرين ألف نبي، في حديث صحيح، رواه أحمد في المسند وابنُ حبان في صحيحه، عن (أبي ذرٍّ

الغِفاريِّ) رضي اللَّه عنه أنه قال: (قلتُ لرسول اللَّه ﷺ كم الأنبياء؟ ـ أي كم عددهم ـ فقال لي: مائةٌ وأربعةٌ وعشرون ألفاً، فقلت: وكم عدد الرسل؟ فقال: ثلاثمائة وثلاثةَ عَشَر، جمّاً غفيراً)(١).

والرسلُ صلوات اللَّه عليهم، يمثّلون ذُروةَ الكمال، وذُروةَ العبوديَّةِ للَّه الواحد الأحد، ويقومون بأعظم مهمة، وهي الدعوة إلى اللَّه، لإنقاذ البشرية من ظلمات الكفر والضلالة، كما بيَّن الحقُّ ذلك لرسوله، بقوله سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ...﴾ [إبراهيم: ١] وكذلك حَكَى تعالى عن موسى عليه السلام، المهمَّةَ التي بعثه اللَّه بها إلى (بني إسرائيل)، وهي الوظيفة نفسُهَا التي بعثَ بها جميعَ الرسل الكرام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ...﴾ [إبراهيم: ٥].

الفارق بين النبيّ وبين الرسول

والرسولُ أعظمُ مقاماً، وأرفع شأناً من النبي ـ لأنه كما يعرِّفه علماء التوحيد ـ: الرسولُ: إنسانٌ من الرجال، أُوحي إليه بشرعٍ، وأُمر بتبليغه.

أَمَّا النبيُّ: فإنسانٌ من الرجال، أُوحي إليه بشرع، ولم يُؤْمر بتبليغه، أي لم ينزل عليه كتاب، وإنما هو كمرشدٍ عامٍّ، يرشد الناس إلى اللَّه تعالى، بخلُقه وسيرته وسلوكه، بينما الرسول فإنه مكلَّف بتبليغ دعوة اللَّه إلى عباده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبي رسولاً، فهما يلتقيان ويتَّحدان في الوحي، ويختلفان في أمر التبليغ، وأمر الكتاب المنزل، لذلك كان عدد الأنبياء كثرةً كثيرة/ ١٢٤/ مائةً وأربعة وعشرون ألفَ نبيٍّ، ويمكننا تشبيهَ الأنبياء (بالعلماء والدعاة المصلحين)، ففي مكان واحدٍ، وفي مجتمع واحد كان يوجد أنبياءُ متعددون، وقد قتل اليهودُ في يوم واحدٍ (ثلاثةَ وأربعين) نبياً، كما يقول ابن مسعود رضي اللَّه عنه، وعنهم قال اللَّه تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

---

(١) أخرجه أحمد، وابنُ حبان في صحيحه، وانظر تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٩.

التفاضل بين الرسل عليهم السلام

الأنبياء والمرسلون ليسوا بمرتبة واحدة من الفضل، بل هم مراتب ودرجات، يتفاوتون بقدرها من المكانة والمنزلة عند اللَّه، فهناك صفوةٌ من الرسل، هم أكابر الأنبياء والمرسلين، يسمون (أولي العزم) وهم خمسة رسُلٍ، فضَّلهم اللَّه على سائر الخلق، (محمدٌ، ونوحٌ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) عليهم من اللَّهِ أفضلُ الصلاة والتسليم.

وقد نظمهم البعض فقال:

أولوا العزم نوحٌ، والخليلُ بنُ آزر ... وموسى، وعيسى، والحبيبُ محمد

وهم الذين قال اللَّه عنهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] سمُّوا أولي العزم: لثباتهم وعزمهم، وتحمُّلِهم الشدائدَ والمشاقَّ في سبيل نشر دين اللَّه، وهم أصحاب أفخمِ الشرائع، وأعظم الرسالات السماوية، الذين اجتهدوا في تأسيسها وتثبيتها.

جاء ذكرهم في سورة الأحزاب، مرتَّباً حسب فضلهم، في قوله تقدَّس ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

قدَّم تعالى نبيَّنا في الذِّكر فقال: ﴿وَمِنكَ﴾ أي ومنك يا محمد أخذنا الميثاقَ، مع أنه آخرُ الأنبياء، تعظيماً له، وتفخيماً لشأنه، وبياناً على سيادته على جميع الأنبياء والمرسلين، ثمَّ عقَّب على ذكره ﷺ بذكر (نوح) شيخ الأنبياء، لأنه كان أطول الرسل عمراً وصبراً، ثم بذكر أبي الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام، ثم (موسى) و(عيسى) آخر أنبياء بني إسرائيل، وهم جميعاً أكابرُ الرسل، وأصحاب الرسالات السماوية.

الدليل على تفاضل الرسل

وممَّا يدل على التفاضل بين الرسل، قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ

فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ . . .﴾ [البقرة: ١٥٣] وضَّح تعالى أن الرسل متفاوتون في الفضل والمنزلة، والمراتب العالية، فمنهم من خصَّه اللّه بالكلام من غير سفير، مثل (موسى بن عمران) حيث قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

ومنهم من رفع اللّه قدره، وأعلى ذكره، وفضَّله على سائر المرسلين، كخاتم النبيين «محمد» ﷺ، حيث أخذ اللّه العهد والميثاق على جميع الرسل، إن أدركوا حياة الرسول أن يؤمنوا به، وينْضَوُوا تحت لوائه ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

إصري: أي عهدي.

قال ابن عباس: (ما بعثَ اللّه نبياً من الأنبياء، إلَّا أخذ عليه الميثاقَ، لئن بعث اللّهُ محمداً وهو حيٌّ، ليؤمُننَّ به ولينصُرُنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته)[(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥] فلا غرابة إذاً أن يكون بين الأنبياء تفاضل، وأن يكون خاتم النبيين أفضلهم، وأعلاهم منزلةً عند اللّه، كما وضَّح ذلك صلواتُ اللّه وسلامه عليه بقوله:

(أنا سيِّدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وما من نبيٍّ آدم فمن سواه، إلَّا تحت لوائي . .)[(٢)].

قوله ﷺ **(ولا فخر)** أي لا أقول ذلك افتخاراً واستكباراً، إنما أقوله تحدُّثاً بنعمة اللّه عليَّ، وشكراً له على ما أولاني من الفضل، ورفعة القدر.

ولا يتعارض هذا التفضيلُ مع قول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ . . .﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ١/ ٣٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣١٤٧).

ما المراد بالتفريق بين الرسل؟

ليس المراد بالتفريق بين الرسل: هو التفضيلُ بينهم، وإنما المعنى: لا نؤمن ببعضٍ، ونكفر ببعض، كما فعل اليهود والنصارى، إنما نؤمن بالجميع، دون تفريقٍ بين واحد وآخر.

وقد جاء توضيح هذا المعنى في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

قال المفسرون: نزلت الآية في (اليهود والنصارى)، آمنت اليهودُ بالتوراة وبموسى، وكفروا بمحمد وعيسى، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى، وكفروا بالقرآن ومحمد، وتركوا الإسلامَ دينَ اللَّهِ الذي بعث به رسله(١).

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ١/ ٥٠٩.

صفات الرسل الكرام صلواتُ اللَّه عليهم

إن صفات الرسل التي تميِّزهم عن غيرهم من البشر ـ هي الصفات العاليةُ الحميدة، التي أكرمهم اللَّه بها، وهذه الصفاتُ واجبة في حقهم، بمعنى أن الرسول والنبيَّ، لا بدَّ أن يكون متخلِّقاً بها، فلا يمكن أن يكون الرسول كذاباً، أو خائناً، أو بليدَ الذهن غير نبيه، أو كاتماً لشيء من أمور الوحي، أو أن يخوض في المنكرات والمعاصي، كغيره من سائر البشر، وهذه الصفات الجليلة، التي أكرمهم اللَّه بها خمسةٌ، وهي كالآتي:

١ ـ الصدقُ في الحديث.

٢ ـ الأمانةُ في الوحي.

٣ ـ التبليغُ للرسالة.

٤ ـ الفَطَانةُ في العقل والذَّكاء.

٥ ـ العصمةُ من الذنوب والكبائر.

وسنذكر هذه الصفات بشيء من التوضيح والبيان فنقول:

الصفةُ الأولى

صفةُ الصدق في الرسول

أولاً: صفةُ الصدق: يجب أن يكون النبي صادقاً، لا يجري على لسانه شيء من الكذب، بل لا يخطر على باله الكذب، لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

والآية الكريمة جاءت للردِّ على سفهاء مكة، وتبرئةً لساحة النبيِّ ﷺ ممَّا نسبه إليه المشركون، فقد اتهموه بتهمةٍ شنيعةٍ فظيعة، اتهموه بأنه ساحر، وأنه يفتري ويكذب على اللَّه، كما حكى القرآنُ ذلك عنهم، بقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

وكأن الآية تقول: ليس محمد برجل كذاب، لأن الكذب إنما يفتريه شرارُ الخلق، ولا يكذب على اللَّه، إلَّا من لم يؤمن باللَّه وآياته، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا من (محمد) النبيِّ الصادق الأمين، والكذبُ جريمة فاحشة، لا يُقدم عليها مؤمن، فضلاً عن سيد الأنبياء!

والعجيب في أمر المشركين، أنهم أنفسهم كانوا يسمُّون الرسولَ (الصادق الأمين) فكانوا يقولون عنه قبل النبوة: جاء (الصادق الأمين)، وقال (الصادق الأمين)، وما كانوا يقولون: جاء محمد، ولا ذهب محمد، فلمَّا نزل عليه الوحي، وقال لهم: أنا رسولُ اللَّه، اتهموه بالكذب، والافتراء على اللَّه، وقالوا عنه: ساحر مجنون.

دعوةُ النبي ﷺ لقبائل قريش

ولمَّا نزلت عليه الآية الكريمة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد ﷺ على جبل الصفا، وجعل ينادي بطونَ قريش، حتى اجتمعوا عنده، فقال لهم: (أرأيتَكم لو أنني أخبرتكم أن خيلاً بالوادي، تريد أن تُغير عليكم،

أكنتم مصدِّقي!؟ قالوا: نعم يا محمد، ما جرَّبنا عليك كذباً قطُّ، فقال لهم: إني لكم نذيرٌ بين يديْ عذاب شديد، فسكتوا، فقال له أبو لهب: تباً لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت السورة الكريمة: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وهذا إقرار منهم بصدق محمد ﷺ، أَلَا يكفيهم أن يقولوا: ما جرَّبنا عليك كذباً قطُّ، ما جربنا عليك إلَّا صدقاً!!

وهذا هو (هرقل) ملِكُ الروم، حين جاءه خطاب من الرسول ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام، جَمَع من كان عنده من العرب، الذين كانوا في بلاد الشام، وسألهم عن محمد ﷺ أسئلة عديدة، من جملتها قال لهم: هل جرَّبتم عليه كذباً؟! ـ أي هل كذب عليكم قبل دعوى النبوة؟ ـ قالوا: لا.

فكان جوابه الصريح القاطع لهم أن قال: (ما كان لِيَذَر الكذبَ على الناس، ويكذبَ على اللَّه)(١) أي لا يُعقل أن يترك الكذبَ على الناس، ثم يكذبَ على اللَّه، أعظم أنوع الكذب، ويدَّعي أن اللَّه بعثه رسولاً، واللَّهُ تعالى يقول: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]. فكلُّ هذه الأخبار والنصوص، تشير إلى أنَّ صفة (الصِّدق)، هي خصلة متأصِّلةٌ في الأنبياء والمرسلين، فلا يمكن لرسول أن يكذب بأيِّ وجهٍ من الوجوه، لئلا يدخل الشكُّ في الوحي، الذي أنزله اللَّه تعالى على عباده!!

❁❁❁

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري، انظر فتح الباري ١/ ٣٢.

الصفةُ الثانية

صفة الأمانة في الوحي

ثانياً: صفة الأمانة أن يكون النبيُّ أميناً على الوحي، فيبلِّغ الرسالة كما أنزلها اللَّه عليه، دون تقصير أو تفريط، أو زيادة أو نقصان، لأن الأمانة خُلُق الأنبياء والمرسلين، وقد اختارهم اللَّه واصطفاهم، لما فيهم من هذه الخصال الحميدة ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أي اللَّه جلَّ جلاله أعلمُ بمن هو أهلٌ للرسالة أن يجعلها فيه، وأن يخصَّه بهذا الشرف العظيم (شرف النبوة) فإنَّ النُبوَّةَ لا تأتي عن طريق الجاه والمال، والحَسَب والنسب، وإنما بصفاء النفس، وطهارة القلب.

ولقد اشتهر النبي ﷺ عند العرب، بصفة الأمانة في الدين، والأمانة في المال والودائع، فكانوا إذا أرادوا أن يستودعوا أموالهم أحداً من الناس، جعلوها عند رسول اللَّه ﷺ لما يعرفون من أمانته.!

الأمانة صفة كل نبيّ

إنَّ الأمانة صفة كلِّ نبيٍّ، لا سيما الأمانة على الوحي، وتبليغ رسالة اللَّه إلى عباده، فلا يُتصوَّر أن يكون الرسول خائناً، لأن الخيانة من أكبر الجرائم، وأقبحها وأشنعها، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] فمن لم تكن عنده أمانة، لم يكن عنده دين، ولقد نزل القرآن على الرسول ﷺ، فلم يُخْفِ منه حرفاً واحداً، ولا آية واحدة، وإنما نَقَله بكل نزاهة وأمانة، حتى الآيات التي فيها عتاب له ﷺ على بعض أمور صدرت منه، كحادثة عبوسه في وجه الأعمى، وحادثةِ إذنه لبعض المنافقين في عدم الخروج للجهاد، وأمثال ذلك.

ولقد عدَّ النبيُّ ﷺ من علامات المنافق أنه (إذا ائتمن خان)(١) فكيف لا يكون النبيُّ أميناً على أعظم شيء وأقدسه، أَلَا وهو (أمانة الوحي)؟

وممَّا يدلُّ على عِظَم أهمية الأمانة، وأنها شرطٌ لكمال الإيمان، ما رواه الشيخان عن (حذيفةَ بن اليمان) رضي اللّه عنه أنه قال:

(حدَّثَنا رسولُ اللّه ﷺ حديثين، رأيتُ أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدّثنا أن الأمانة قد نزلت في جَذْر قلوب الرِّجال - أي في أعماق قلوب أصحابه السابقين إلى الإسلام - ثم نزل القرآنُ، فعلموا من القرآن، وعَلِموا من السنة - أي طَّبقوا ما تعلَّموه من الكتاب والسنة - ثم حدّثنا عن (رفع الأمانة)، فقال: ينام الرجل النَّوْمَة فَتُقبضُ الأمانة من قلبه، فيظلُّ أثرُها مِثْلَ الوَكْت - أي يبقى لها أثر قليل في نفسه - ثم ينام فتُقبضُ الأمانةُ من قلبه، فيصبحُ الناسُ يتبايعون، فلا يكاد أحد يؤدِّي الأمانة، حتى يُقال: إن في بني فلانٍ رجلاً أميناً. !

حتى يُقال للرجل: ما أجلَدَه؟ وما أظرَفَهُ؟ وما أعقله!! وما في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان.

ولقد أتى عليَّ زمانٌ وما أبالي أيكم بايعتُ، وأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلَّا فلاناً، وفلاناً)(٢).

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١/ ٨٣ بلفظ: (آيةُ المنافق ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كذَبَ، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا ائْتُمِن خَان) وأخرجه مسلم رقم (٥٩) وزاد فيه (وإن صامَ، وصلَّى، وزعم أنه مسلم) وانظر جامع الأصول ١١/ ٥٦٩.

(٢) هذا طرف من حديث رواه البخاري في الرِّقاق رقم (٦٤٩٧) ومسلم رقم (١٤٣) باب رفع الأمانة والإيمان.

الصفة الثالثة

صفة التبليغ

ثالثاً: الصفة الثالثة من خصائص وسماتِ الأنبياء (التبليغ) أي تبليغ (الوحي الإلٰهي) على أكمل الوجوه للناس، فهذه صفة كلِّ نبيٍّ بعثه اللَّه إلى قومه.

هذا هو (نوح) عليه السلام، بلَّغ قومه رسالة ربه، وقصَّ علينا القرآنُ قصته في سورة كاملة، تسمى (سورةَ نوح) وشهد اللَّه له بذلك ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ الآيات [نوح: ١ ـ ٣].

وهذا نبيُّ اللَّه (شعيب) عليه السلام يقول عنه القرآن الكريم: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

وهذا سيِّدُ الرسلِ وخاتمُ الأنبياء، يأمره ربُّه أن يبلِّغ الرسالة التي أرسله اللَّه بها، وأن لا يخاف على نفسه أحداً من الكفار، فاللَّه له ناصر وحافظ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

أي بلِّغْ رسالةَ ربك جميعها، فإن كتمت شيئاً فما أدَّيتَ الأمانة، ولا تخش أحداً من الأعداء، فإن اللَّه عاصمُك من شرِّهم!! وهذه ضمانةٌ من اللَّه لرسوله بالحفظ والعصمة.

عصمةُ اللَّه عزَّ وجلَّ وحفظُه لرسوله ﷺ

رُوي أن النبيَّ ﷺ كان يحتاط لنفسه من الأعداء، من كفار مكة، ومن اليهود، فكان له حَرَسٌ يحرسونه بالليل، فقد روى الترمذيُّ عن عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت:

(كان رسول اللَّه ﷺ يُحرس ليلاً، فلما نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ أخرج رأسه من القُبَّة ـ أي قُبَّة الدار ـ وقال: يا أيها النَّاسُ انصرفوا، فقد عصمني اللَّه تعالى)[1].

ولقد خصَّ اللَّه أمَّة محمد ﷺ بخصوصية كريمة، هي الشهادة على الأمم يوم القيامة، بأنَّ رسلهم قد بلَّغوهم دعوة اللَّه ورسالته، رفعاً لقدر هذه الأمة المحمدية!

روايةُ الإمام البخاري

روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ (يُدعى نوحٌ يومَ القيامة، فيقول: لبَّيْك وسعْدَيْك يا ربُّ!!

فيقولُ اللَّهُ له: هل بلَّغْتَ؟ فيقول: نعم يا ربّ! فيقال لأمته: هل بلَّغكم نوحٌ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير!!

فيقول اللَّه لنوح: من يشهد لك؟

فيقول: محمد وأمته، فَيُؤْتى بنا فنشهد أنه قد بلَّغ الرسالة، فذلك قولُه جلَّ ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ...﴾[2] [البقرة: ١٤٣].

(وَسَطاً): أي خياراً عدولاً، لتشهدوا على الأمم يوم القيامة أن رسلهم بلَّغتهم، ويشهد عليكم الرسول، فيشهد بصدقكم ويزكّيكم.!

شهادتنا على الأمم بخبر اللَّه القاطع

وقد يقول قائل: كيف نشهد يوم القيامة، أنَّ نوحاً والأنبياء، قد بلَّغوا أممهم الرسالةَ، والوحيَ الإلٰهي، ولم نحضر زمانهم!؟

والجواب: أن الكفَّارَ حين يطعنون في شهادتنا، ويزعمون أنها (شهادة زور) لأننا لم نشهد نوحاً، ولا غيره من الأنبياء، فنقول يا ربنا: إنك بعثتَ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في كتاب التفسير رقم (٣٠٤٩).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير ٨/ ١٣٠ والترمذي رقم (٢٩٦٥).

إلينا رسولاً، وأنزلتَ عليه كتاباً، وقلتَ لنا فيه: بأن نوحاً قد بلَّغ قومَه رسالة ربه، في كتابك العزيز: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢، ٣] فنحن نشهد بشهادة اللَّه عزَّ وجلَّ، وكفى بها شهادة!

يستحيل على الرسل عدم التبليغ

ثم نقول من المستحيل أن يكتم أحد تبليغ الدعوة، لأنها أمانةٌ ائتمنهم اللَّهُ عليها، فكيف يكتم أحد من الأنبياء، تبليغ كلام اللَّهِ عزَّ وجلَّ إلى عباده، واللَّهُ تبارك وتعالى يلعن من يكتم شيئاً من الوحي، ويقول متوعداً ومهدِّداً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩] فهل يُتصور بعد هذا الوعيد الشديد، أن يكتم أحد من الرسل والنبيين، شيئاً من الوحي المنزَّل؟ هذا شيء مستحيل!!

الرسول ﷺ لم يكتم شيئاً مِن الوحي

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي اللَّه عنها: (لو كتم محمد ﷺ شيئاً ممَّا أوحي إليه من كتاب اللَّه تعالى، لَكَتَم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ . . .﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧].

فقد كانت عتاباً له ﷺ وقد بلَّغها رسول اللَّه ﷺ ولم يكتمها عن أحد من الناس، أليس هذا أعظم برهان على تبليغ الرسول ﷺ، لكلِّ ما أوحاه اللَّه له، حتى ولو كان فيه العتاب له؟

والآية نزلت في قصة زواج النبي ﷺ بالسيدة (زينب) رضي اللَّه عنها بعد أن طلَّقها (زيد بن حارثة) الذي كان قد تبناه الرسول ﷺ، حتى كان يُدعى (زيدَ بن محمد) وقد أمر اللَّه رسولَه أن يتزوج بها، بعد أن يطلِّقها زيد، لإبطال (حكم التبني) الذي كان سائداً عند العرب، وقد أوحى اللَّه إلى رسوله، بأنها ستكون زوجتَه، بعد فراق زيد لها، ولكنَّ الرسول أخفى هذا الأمر، حياءً وحِشْمةً، وصيانةً لعرضه من ألسنة السفهاء المنافقين، أن يقولوا: إن محمداً تزوَّج بزوجة ابنه، فاللَّهُ عاتبه على هذا، وزوَّجه بها بنفسه، بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ولهذا كانت السيدة (زينب) تفخر على سائر زوجات النبي ﷺ، وتقول لهنَّ: زوجكنَّ أهاليكنَّ، وزوَّجني ربي من فوق سبع سمواته. !

وكذلك بلَّغ الرسول ﷺ عتاب اللَّه له في قصة (عبد اللَّه بن أم مكتوم) وقد كان رجلاً ضريراً، جاء يسأله عن بعض أمور الدين، فعبس في وجهه وأعرض عنه، لأنه كان مشغولاً مع بعض زعماء قريش، يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يُسلم بإسلامهم غيرُهم، فنزلت هذه السورة الكريمة: ﴿عَبَسَ

وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ الآيات [عبس: ١ ـ ٣]. ويُقال: إنَّ رسول اللَّه ﷺ لم يغتمَّ في عمره، كغمِّه حين أُنزلت عليه سورة (عبس) لأن فيها عتاباً شديداً له، ومع ذلك بلَّغ هذا الوحي، مع ما فيه من العتاب الشديد. !

قال ابن زيد: (لو كان محمد ﷺ كاتماً من الوحي شيئاً لكَتَم هذا)(١).

الرسول ﷺ بلَّغ كلَّ كلمة وكلَّ آية

وممَّا يدلُّ دلالة قاطعة ساطعة على أن رسول اللَّه ﷺ بلَّغ كل آية، وكلَّ كلمة، بل كل حرف من كتاب اللَّه تعالى، دون تغيير ولا إسقاطٍ لشيء من كلامه سبحانه، ما جاء في بعض الآيات والسور، من لفظةِ ﴿قُلْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ...﴾ [الجن: ١] فبلَّغها كَمَا نزلت عليه، ولم يقل: (أوحيَ إليَّ) ولا (يا أيها الكافرون) ولا (اللَّه أحد) وهكذا أُمر رسولُ اللَّه أن يقول للناس ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] فأُثبتت في القرآن، كما نزلت عليه ﷺ، ولم يُحْذَف منها حرف واحد.

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه الحافظ الطبراني، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٩.

الصفةُ الرابعة

صفةُ الفَطَانة

رابعاً: الصفة الرابعة: الفَطَانة، أن يكون الرسول ذا فطنة ونباهة، وذكاءٍ شديد، لأنه سيواجه طغاةً فجرة، وكفاراً معاندين للحقِّ، فلا بدَّ أن يكون مسلَّحاً بالنباهة والذَّكاء، والحجة المُفْحِمة، التي يقصم بها ظهر الباطل.!

انظر إلى الخليل (إبراهيم عليه السلام) في مناظرته للطاغية الجبار (النمرود) الذي ادَّعى الربوبية، وزعم أنه إلٰه يعبد من دون اللَّه، وبلغ به الفجورُ والطغيانُ، أن يجادل ويخاصم، في أمر وجود اللَّه ووحدانيته.

اقرأ قصته في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

دخل إبراهيمُ عليه السلام على الطاغية الجبَّار (النمرود) الذي ادَّعى الألوهية، وتقمَّصَ ثوب الربوبية، فدعاه إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، وأخذ يجادله في أمر دعوى الربوبية، فقال له إبراهيم: إن الدليل على وجود ربي، أنه إلٰه عظيم قدير، ينشئ الخلقَ من العدم فيحييهم، ويخلق الحياة والموت، فيحيي ويميت، وهذا أعظم برهان على وجود الرحمن، الذي أدعوك إلى الإيمان به!

فكان جواب الفاجر له: وأنا أيضاً إلٰهٌ أُحيي وأُميت!! قال: كيف؟ دعا برجلين من السجن، كان قد حُكم عليهما بالإعدام ـ فأطلق سراح الأول، وقال: هذا أحييتُه، وأمر بقطع عُنق الثاني وقال: هذا أمتُّه!!

حماقة النمروذ وشَغَبُه في الدليل

لمَّا رأى إبراهيم حماقَةَ هذا السفيه، وشَغَبه في الدليل، عَدَلَ إلى أمر آخر، أجدى وأنفعُ في إفحام الخصم، لئلا يجدَ ذلك الطاغية مجالاً للتمويه

والتلاعب، فقال له: إن كنت تدَّعي الربوبية كما تزعم، وأنك تحيي وتميت كما يفعل ربُّ العزة والجلال، فهذه الشمس أمامك، تطلع كلَّ يوم من المشرق وتغرب من المغرب، فأرنا قدرتك الباهرة، اجعلها تطلع من المغرب بدل المشرق ولو مرةً واحدة، لتثبت لنا عظمة ربوبيتك!!

فأصبح الأحمقُ، المتطاول على مقام الربوبية مبهوتاً، لا يستطيع الجواب، وانقطعت حجته أمام الحاضرين، وظهر كذبه للناس، فهل رأيتَ فطنةً ودهاءً، وحجةً أبلغ من هذه الحجة، التي قَصَم بها (إبراهيم) عليه السلام ظهر الباطل، وكشف بها زيف هذا الطاغية الفاجر!؟

إقامة إبراهيم الحجة على عبدة الأصنام

وانظر إليه وهو يقيم الحجة على قومه، عبدةِ الأوثان والأصنام، حيث كسَّر أصنامهم في غيبتهم، وترك الصنم الكبير، وعلَّق في عنقه الفأس، ليستدرجهم إلى أن هذا الصنم، هو الذي فعل ذلك، ليعترفوا بأنفسهم بحقارة ما يعبدون من حجارة صمَّاء بكماء، لا تنفع ولا تضرُّ، إقرأ معي هذه الآيات البينات:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧ ـ ٦٣].

الصفةُ الرابعة

صفةُ الفَطَانة

رابعاً: الصفة الرابعة: الفَطَانة، أن يكون الرسول ذا فطنة ونباهة، وذكاءٍ شديد، لأنه سيواجه طغاةً فجرة، وكفاراً معاندين للحقِّ، فلا بدَّ أن يكون مسلَّحاً بالنباهة والذَّكاء، والحجة المُفْحِمة، التي يقصم بها ظهر الباطل.!

انظر إلى الخليل (إبراهيم عليه السلام) في مناظرته للطاغية الجبار (النمرود) الذي ادَّعى الربوبية، وزعم أنه إلٰه يعبد من دون اللَّه، وبلغ به الفجورُ والطغيانُ، أن يجادل ويخاصم، في أمر وجود اللَّه ووحدانيته.

اقرأ قصته في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

دخل إبراهيمُ عليه السلام على الطاغية الجبَّار (النمرود) الذي ادَّعى الألوهية، وتقمَّصَ ثوب الربوبية، فدعاه إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، وأخذ يجادله في أمر دعوى الربوبية، فقال له إبراهيم: إن الدليل على وجود ربي، أنه إلٰه عظيم قدير، ينشئ الخلقَ من العدم فيحييهم، ويخلق الحياة والموت، فيحيي ويميت، وهذا أعظم برهان على وجود الرحمن، الذي أدعوك إلى الإيمان به!

فكان جواب الفاجر له: وأنا أيضاً إلٰهٌ أُحيي وأُميت!! قال: كيف؟ دعا برجلين من السجن، كان قد حُكم عليهما بالإعدام ـ فأطلق سراح الأول، وقال: هذا أحييتُه، وأمر بقطع عُنق الثاني وقال: هذا أمتُّه!!

حماقة النمروذ وشَغَبُه في الدليل

لمَّا رأى إبراهيم حماقَةَ هذا السفيه، وشَغَبه في الدليل، عَدَلَ إلى أمر آخر، أجدى وأنفعُ في إفحام الخصم، لئلا يجدَ ذلك الطاغية مجالاً للتمويه

والتلاعب، فقال له: إن كنت تدَّعي الربوبية كما تزعم، وأنك تحيي وتميت كما يفعل ربُّ العزة والجلال، فهذه الشمس أمامك، تطلع كلَّ يوم من المشرق وتغرب من المغرب، فأرنا قدرتك الباهرة، اجعلها تطلع من المغرب بدل المشرق ولو مرةً واحدة، لتثبت لنا عظمة ربوبيتك!!

فأصبح الأحمقُ، المتطاول على مقام الربوبية مبهوتاً، لا يستطيع الجواب، وانقطعت حجته أمام الحاضرين، وظهر كذبه للناس، فهل رأيتَ فطنةً ودهاءً، وحجةً أبلغ من هذه الحجة، التي قَصَم بها (إبراهيم) عليه السلام ظهر الباطل، وكشف بها زيف هذا الطاغية الفاجر!؟

إقامة إبراهيم الحجة على عبدة الأصنام

وانظر إليه وهو يقيم الحجة على قومه، عبدةِ الأوثان والأصنام، حيث كسَّر أصنامهم في غيبتهم، وترك الصنم الكبير، وعلَّق في عنقه الفأس، ليستدرجهم إلى أن هذا الصنم، هو الذي فعل ذلك، ليعترفوا بأنفسهم بحقارة ما يعبدون من حجارة صمَّاء بكماء، لا تنفع ولا تضرُّ، إقرأ معي هذه الآيات البينات:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ • فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ • قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ • قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ • قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ • قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ • قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧ ـ ٦٣].

تحطيمُ إبراهيم عليه السلام للأصنام

رجعوا من عيدهم، فوجدوا الأصنام محطَّمة مهشَّمة في المعبد، وهنا طار رشدُهم وعقلُهم، وبدأت المحاكمةُ لإبراهيم عليه السلام، وُضع في قفص الاتهام، وتوجَّهوا إليه بهذا السؤال: هل أنت حطَّمت هذه الآلهة يا إبراهيم؟

إنهم لا يزالون يصرُّون على أنها آلهة، وهم يرونها مهشَّمة محطَّمة، ملقاة على الأرض!

وبأسلوب بارع، مع السخرية والتهكم اللاذع، يجيبهم إبراهيم الخليل، بحجةٍ لا يستطيعون لها دفعاً، ممَّا يجعلهم مدهوشين متحيّرين في الجواب: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾؟ يقول لهم الخليل: إن الذي كسر الأصنام وحطَّمها، هو هذا الصنم الكبير، فقد غضب أن تُعبد معه هذه الآلهةُ الصغار فكَسَرها، وإن كنتم تشكُّون في كلامي، فاسألوا الأصنام من كسرها؟

والبرهان على صدق كلامي، أنه بعد أن كَسَرها علَّق الفأس في عنقه، فها هو أمامكم فاسألوه، واسألوا الآلهة من الذي كسرها!!

إقرارهم بأن الأصنام لا تنطق ولا تسمع

قالوا يا إبراهيم: لقد علمتَ أنَّ هذه الأصنام لا تُبصر، ولا تنطق، ولا تسمع، ولا تعقل، فكيف نسألها؟

لقد أقاموا الحجة على أنفسهم، دون شعور ولا تبصُّر، ودون عقلٍ أو إدراك حين قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ وأية حجة لإبراهيم عليهم أقوى، من أن يقولوا بألسنتهم؛ إنَّ آلهتنا لا تسمع ولا تنطق، وهي جمادات لا تُجيب!

وهنا أمسك الخليل بخناقهم، وجعل يُعنِّفهم ويوبخهم، ويقول لهم:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ ولـمَّـا عـجـزوا عـن الـردِّ، وأُفْحِموا بالحجة، عَدَلوا عن المحاورة إلى البطش والفتك، كما هو عادة الطغاة حين يفقدون الجواب، يلجأون إلى قوة النار والحديد ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

هذا نموذج عن نباهة الأنبياء، وقوة ما أُيِّدوا به من البراهين والحجج، وهكذا كلُّ نبيٍّ بعثه اللَّه، أمدَّه بالذكاء الخارق، والنَّباهة والفطانة، واستمع في كتاب اللَّه إلى قصة موسى مع فرعون الجبار، وقصة شعيب مع قومه الأشرار، وإلى جميع قصص المرسلين، ليتبيَّن لك كيف كان جدالهم مع أقوامهم، بالحجة الدامغة، والبرهان الساطع ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

❁ ❁ ❁

الصفة الخامسة

العصمة عن الذنوب والكبائر

خامساً: الصفة الخامسة: العصمةُ عن الذنوب والمعاصي، فالرسل والأنبياء، معصومون عن الذنوب والمعاصي، ومقارفة الجرائم، وهذه خصوصية لهم، لأن النَّاسَ مأمورون بالاقتداء بهم، وسلوك طريقتهم، كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] أي قُدوة حسنة، تقتدون به في سيرته، وسلوكه، وجميع أقواله وأفعاله، فلو حدثت منهم معصية، لكان الناس مأمورين باتِّباعهم، وكانوا معذورين عند اللّه في فعل المنكرات، لذلك عَصَمَهم اللّه عزَّ وجلَّ عن اقتراف الجرائم والآثام، لتبقى سيرتهم عطرة، ويكونوا مثلاً أعلى للبشر في الطاعة للّه، والبعد عن محارمه. !

ولو كان الأنبياء صلوات اللّه عليهم، يقعون في المنكرات والمعاصي، لما بقي هناك من يُقتدى به، ولأصبحت المعصيةُ طاعةً، لأمر اللّه للبشر بطاعتهم.

وما جاء من نسبة بعض الذنوب إلى الأنبياء، فلا يراد به المعاصي والمنكرات، لأنهم معصومون عن مقارفة الجرائم كما بينًا، ولكنْ ما يفعلونه عن غير قصد، أو ما يحدث منهم عن اجتهاد، لا يُقرُّهم اللّه عليه.

العتاب في أخذ الفداء

مثالُه: أخذُ الفداء من أسرى المشركين في بدر، نزل فيه العتاب لرسول اللَّه ﷺ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ ...﴾ الآية [الأنفال: ٦٧] أي يُكثر فيهم الجراحات والقتل، حتى يُقلِّم أظافر الشرك، فرسولُ اللَّه ﷺ لم يَعْصِ أمرَ اللَّه في هذا الموضوع، بل استشار أصحابه، في السبعين من أسرى المشركين، فأشار عليه (أبو بكر) بأخذ الفداء منهم، وإطلاقِ سراحهم، وأشار عليه (عمر الفاروق) بقتلهم لأنهم صناديد الكفر والطغيان، فمال قلبُ النبيِّ الرحيم، إلى رأي أبي بكر الصدِّيق، فنزل العتابُ للرسول ﷺ في هذه الآية الكريمة، ذلك لأن (غزوة بدر) كانت أولى الغزوات، فكانت الحكمة تقتضي معاملة المشركين بالصَّرامة والحزم، ولذلك نزل العتابُ على أخذ الفداء!

وكاجتهاده ﷺ للإذن لبعض المنافقين، في التخلُّفِ عن الجهاد، فنزل العتاب له عليه السلام، ولم يقرَّه اللَّه على ذلك الاجتهاد، في قول اللَّه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

العتابُ في ترك الخروج للجهاد

لقد كان المنافقون يأتون إلى رسول اللَّه ﷺ، فيستأذنونه في عدم الخروج معه للجهاد، ويعتذرون بمعاذير واهية كاذبة، فكان يأذن لهم في البقاء وعدم الخروج، فعاتبه اللَّه على ذلك، لأن اللَّه يعلم كذبهم فيما يقولون!!

ولْنمعن النظر في هذا اللطف الإلٰهي بالنبي ﷺ، حتى في العتاب، فقد بشَّره اللَّه بالعفو، قبل أن يخبره بالخطأ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾؟

ومن هذه المعاتبة اللطيفة، يتبيَّن لنا بوضوح مكانةَ الرسول ﷺ، وعلوَّ قدره عند ربه، فلم يجابهه بالعتاب على الإذْن لهم، وإنَّما قدَّم العفو والمسامحة على ذلك، ثم بيَّن الحكمة له في خطأ ذلك الاجتهاد، فقال:

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ وكأن اللَّه تعالى يقول لرسوله ﷺ: سامحك اللَّه يا محمد، لمَ أذنتَ لهؤلاء المنافقين؟ وهلَّا توقَّفتَ في أمرهم، وتركتهم حتى يظهر الصادق منهم في اعتذاره عن الكاذب؟ فقد كانوا مصرِّين على عدم الخروج، سواءً أذنتَ لهم أم لم تأذن!!

قال سفيان بن عُيينَة: انظروا إلى هذا اللطف الإلٰهي، بدأ بالعفو قبل المعاتبة!! فهل سمعتم بمعاتبةٍ ألطفَ ولا أحسن من هذا(١)؟

العتاب في الاستغفار للمشركين

ومثلُ هذا استغفارُه ﷺ لعمه (أبي طالب) حين دخل عليه وهو يجود بأنفاسه، وعنده صناديد الكفر، كأبي جهل، وأميةَ بنِ خلف، فقال له: يا عمّ، قل لا إلٰه إلا اللَّه، كلمةً أشهد لك بها عند اللَّه!!

فقال له أبو جهل: أترغب عن ملَّة عبد المطلِّب يا أبا طالب؟ فلم يزل رسولُ اللَّه ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخرَ ما كلَّمهم به: هو على ملَّة عبد المطلب!!

وأبى أن يقول (لا إلٰه إلا اللَّه) فقال رسول اللَّه ﷺ: لأستغفرنَ لك ما لم أُنه عنك، فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ثم بيَّن اللَّهُ لرسوله، أن استغفار إبراهيم لأبيه (آزر) لم يكن إلَّا من أجل وعدٍ وعَدَ به أباه، بقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ﴾ [مريم: ٤٧] بناءً على رجاء إيمانه، فلمَّا تبيَّن لإبراهيم أن أباه مصرٌّ على الكفر، تبرَّأ من أبيه، وقطَعَ صلته به، وامتنع عن الاستغفار له(٢)، فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤].

وأمثال هذه الاجتهادات، لا تُعتبر معصيةً للَّه، ولا ذنوباً يستحقُّ عليها العقابَ، بل هي مغفورةٌ له، ولكنها بالنسبة لمقام الرسول ـ أيِّ رسولٍ كان ـ تُعتبر كأنها ذنبٌ، بالنسبة لمنصبه الجليل، ولا يجوز أن نعتقد أن أحداً من

(١) انظر التفسير الواضح الميسَّر (سورة التوبة) ص٤٦٨.
(٢) أصلُ القصة مرويٌّ في صحيح البخاري في كتاب التفسير ٨/ ٣٤١ فتح الباري.

الأنبياء يعصي أمر اللَّه، أو يرتكب جناية وذنباً متعمِّداً للمعصية، فالعصمةُ من صفات الرسل، وهذه كما يقول المفسِّرون من باب (حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين) أي ما يفعله عامةُ المؤمنين من طاعات وعبادات، تعتبر بالنسبة لمقام الأنبياء، كأنها سيئات ومعاصي يُؤاخذ عليها الإنسان.

انظر إلى صَلَاتنا وما فيها من تقصير، لعدم الخشوع فيها، وعدم استحضار عظمة اللَّه وجلاله، لو صدرت من أحدٍ من الأنبياء، لكانت ذنباً يؤاخذ عليه النبيُّ، فلقد كان رسول اللَّه يصلِّي من الليل حتى تورَّمتْ قدماه، فلمَّا قيل له: لِمَ تشقُّ على نفسك وقد غفر اللَّه لك؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟

كلامُ الحافظ ابن كثير حول الموضوع

قال الحافظ ابن كثير: في قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢] **نزلت هذه الآيات على رسول اللَّه ﷺ، مرجعَه من صلح الحديبية**، حين صدَّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، فأجابهم إلى ذلك، على كُرهٍ من جماعةٍ من الصحابة، منهم (عمر بن الخطاب) رضي اللَّه عنه، وجعل ذلك (فتحاً) باعتبار ما فيه من المصلحة، حتى قال ابن مسعود: إنكم تعدُّون الفتح (فتح مكة) ـ وقد كان فتحُ مكة فتحاً ـ ونحن نعدُّ الفتحَ (بيعةَ الرضوان) يوم الحديبية!!

ثم قال: وقولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام، التي لا يشاركه فيها غيرُه، وهذا فيه تشريفٌ عظيم لرسول اللَّه ﷺ، وهو في جميع أموره على الطاعة والبِرِّ، والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكملُ البشر على الإطلاق، وسيّدهم في الدنيا والآخرة، ولمَّا أطاع اللَّهَ في ذلك، وأجابهم إلى الصلح، قال اللَّه تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ...﴾(١).

(١) انظر تفسيرَ ابن كثير (سورة الفتح) ٣/ ١٦٥.

التحقيقُ فيما نُسب إلى بعض الرسل من المعاصي

قصَّةُ ما جاء في معصية آدم عليه السلام

أمَّا ما ورد في معصية آدم عليه السلام، في قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] فقد قال بعض المفسرين: إن هذا كان قبل اختياره واصطفائه للنبوَّة، بدليل قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي اختاره تعالى ليكون نبياً، فجعله من المقربين إليه، وتاب عليه من الزلَّة، ولا يجوز أن نقول عن (آدم) إنه عصى أمر اللَّه، بعد أن شرَّفه اللَّه بالرسالة!!

وقال آخرون: إنما أكل آدم من الشجرة اجتهاداً، فقد نهاه ربُّه عن شجرة معيَّنة أن يأكل منها، فتركها وأكل من شجرة أخرى من جنسها، فَحَمَل النَّهْيَ على أن المراد شجرة بعينها دون جنسها، كمن دخل على بستان فيه شجر كثير من الرمَّان، فنهاه صاحب البستان وأشار إلى شجرة معينة فقال: لا تأكل من هذه.

والصحيحُ في هذا الموضوع أنَّ آدم إنَّما أكلَ من الشجرة ناسياً، ولم يتعمد مخالفة أمر اللَّه، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أي وصَّيناه وأمرناه أن لا يأكل من الشجرة حين أسكناه الجنة، فنسي الوصية، ولم نجد له عزماً على ارتكاب المعصية، ومخالفة أمر اللَّه، واللَّهُ تعالى لا يؤاخذ أحداً على النسيان، كما قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾!! [البقرة: ٢٨٦].

قال الحسن البصري: واللَّهِ ما عَصَى آدمُ عن قصدٍ وعمد، إنَّما كان عن غفلة ونسيان[(١)]!.

❁ ❁ ❁

---

(١) تفسير ابن كثير (سورة طه) ٣/ ١٦٠ وذكر قصة محاجَّة (موسى مع آدم) وهي مذكورة في الصحيحين.

قصَّةُ قتل موسى عليه السلام للقبطي

وفي قصة قتل موسى للقبطيِّ من أتباع فرعون ـ وقتلُ النفس كبِيرةٌ من الكبائر ـ إذا قيل: كيف حصلت من (موسى) عليه السلام؟ أليست ذنباً ومعصية؟ أليست تخلُّ بعصمة الأنبياء؟

فالجواب عن ذلك: أن موسى عليه السلام، ما أقدم على قتل الرجل متعمداً وإنما وقع القتل خطأً، ولْنرجع إلى القصة من بدايتها، لنرى أن القتل منه إنما وقع خطأً وليس عمداً، وهذا ما وضَّحته الآياتُ الكريمة، اقرأ معي قول اللَّه تعالى:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦].

تفصيل القصَّة في مقتل القبطيّ

وتفصيلُ القصة كما ذكرها المفسرون: أنَّ موسى عليه السلام دخل مدينة مصر ـ القاهرة ـ خارجاً من قصر فرعون، الذي تربَّى فيه، حتى كان النَّاسُ يسمونه (ابنَ فرعون) لأنَّ الملك تبنَّاه!

دخلَ وقت الظهيرة عند راحة الناس، وقد خلت الطرق من المارَّة، فوجد رجلين يقتتلان، أحدهما (إسرائيلي) من جماعة موسى، والآخر (قبطي) من جماعة فرعون وحاشيته، فاستنجد الإسرائيليُّ بموسى، وطلب منه أن يغيثه، فأقبل ليدفع أذاه عن هذا الرجل المظلوم، فلمَّا لم يمتنع، ضربه موسى بِجُمْع يده ـ أي لَكَمَه كلمةً واحدة ـ فخرَّ القبطي ميتاً لا حراك به، ومعلوم أن ضربةً باليد لا تُميت، ولكنها كانت القاضية.

ثم إنَّ الآية صريحة في أن الضربة كانت خفيفة ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ لم يقل تعالى: ضربه بالسيف، أو بعصا غليظة فقتله، وإنما قال (فوكزه) والوكزُ: الضربُ باليد مجموعة وهي لا تقتل في العادة.!

وإنما استغفر ربه من هذا الصنيع، لما يترتب عليه من الفتنة، لأن القتيل كان من حاشية فرعون، والشيطان تُفرحه الفتن! ولا حاجة لنا إلى القول، بأن قتله للقبطي كان قبل النبوَّة، فإن الأنبياء معصومون عن الكبائر، قبل النبوَّة وبعدها، فتدبر هذا واللّه يرعاك!!

قصَّةُ يونس عليه السلام وابتلاع الحوت له

وما ذُكر في القرآن الكريم، من مخالفة نبي اللّٰه (يونس) عليه السلام لأمر اللّٰه تعالى، ومعاقبته بابتلاع الحوت له، في قول اللّٰه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي آتٍ بما يُلام عليه ـ ومعناه المخالفةُ والمعصيةُ ـ وهذا يُثبت أنه عصى أمر اللّٰه تعالى.!

والجواب عن ذلك: أن الملامة له، لم تكن بسبب ارتكابه لمعصية، أو منكرٍ شنيع فَعَله، وإنما لخروجه عن قومه بدون إذن ربه، وهذا بالنسبة لمقامه الشريف تقصير، يؤاخذ عليه ويُلام.

غضَبهُ على قومه ومفارقتُه لهم

لقد قاده غضبه على قومه، أن يهجرهم ويذهب إلى شاطئ البحر، ويركب في سفينة مملوءة بالرجال، وهاج بهم البحر وماج، حتى أشرفت السفينةُ على الغرق، فقال بعضهم: هنا عبدٌ آبقٌ من سيده، ولا بدَّ لنجاتنا من إلقائه في البحر، فاقترعوا فوقعت القرعةُ على (يونس) عليه السلام، فألقوه في البحر، فالتقمه حوت عظيم، بأمر اللّٰه تعالى، وأمر اللّٰه الحوت أن لا يهشمَ له لحماً، ولا يكسر له عظماً، وإنما جُعل بطنُ الحوت سجناً له، فبقي حياً يسبِّح اللّٰهَ ويستغفره، ثم ألقاه الحوت في الفضاء، وتاب اللّٰه عليه من هذه الزلَّة، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ فكانت الخطيئة منه، أنه هَجَر قومه وتركهم، دون إذنٍ من ربه، فعاقبه اللّٰه بإدخاله في بطن

الحوت، لحكمةٍ جليلة، وهي ظهورُ (المعجزة الإلٰهية) أن اللَّه قادرٌ على أن يُبقي الإنسانَ حياً، حتى ولو كان في لُجَّة البحر، وفي بطن الحوت.

وامتحاناً لإيمان البشر بقدرة ربِّ العالمين، ولهذا قال بعده: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهنا نقطة مهمة ينبغي أن نلحظها، ونفهمها فهماً صحيحاً سليماً، وهي قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي غاضباً على قومه ـ لا مُغَاضباً لربه ـ ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي ظنَّ أن اللَّه لن يُضيِّق عليه، لتركه قومه دون استئذان من اللَّه، فهو من القَدْر بمعنى التضييق، كقوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ...﴾ [الطلاق: ٧] أي من ضُيِّق عليه في رزقه فلْينفق بقدر استطاعته، لا من (القُدرة) لأن من ظنَّ عجز اللَّه فهو كافر، فكيف يظنُّ نبيُّ اللَّه (يونس) عليه السلام أن اللَّه لا يقدر عليه؟ فتنبَّه للمعنى فإنه خطير ودقيق.

وممَّا ذكرناه يتضح لنا بجلاء (عصمة الأنبياء) وأنهم معصومون عن الجرائم والكبائر، وعن كلِّ المعاصي والمنكرات، لأنهم القدوةُ للبشر، وعلى وجه الخصوص سيد الأنبياء محمد ﷺ، فهو المَثَلُ الأعلى في التُّقى والصلاح، والبعد عن انتهاك محارم اللَّه، ولهذا قال ﷺ لمن أراد أن يصلِّي الليل ولا يرقد، ويصوم الدهر ولا يفطر، ويعتزل النساء فلا يتزوَّج: (أَمَا واللَّهِ إني لأخشاكم للَّهِ، وأتقاكم له، لكنِّي أصوم وأُفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي، فليس منِّي)[(١)].

فالمعصية من الرسل لا تقع، وارتكاب الذنب عمداً لا يُتصور منهم، لما أكرمهم اللَّه به من (العصمة)، قبل النبوَّة وبعدها.!

قال أهل التفسير: في قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣].

المراد بالوزر في الآية: الأمورُ التي فَعَلها الرسول عن اجتهاد وعُوتب

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم، وهو حديث مشهور.

عليها، كأخذه الفداء من أسرى بدر، وإذنه لبعض المنافقين في عدم الخروج للجهاد، وعبوسه في وجه الأعمى، وأمثالِ ذلك، ممَّا فعله ﷺ عن اجتهاد، ولا يراد بالوزر: الذنوبُ والمعاصي والمنكراتُ، فإن العصمة من خصائص الأنبياء، وما يفعلونه عن غير قصدٍ، يعتبر بالنسبة لمقامهم الشريف، كأنه ذنب يؤاخذون عليه.

الفصل الرابع

الإيمانُ بالكتب الإلهية السماوية

الفصل الرابع

الإيمانُ بالكتب الإلهية السماوية

أنزل اللَّه جلَّ جلاله كتباً إلٰهية لسعادة البشر، نزلت على أكابر الرسل، كما أنزل صحفاً على بعض الأنبياء صلواتُ اللَّهِ وسلامهُ عليهم أجمعين.

ومن شروط صحة الإيمان أن يعتقد الإنسان بالكتب السماوية، التي أنزلها اللَّه على بعض الرسل، وأن يؤمن بأن هناك صحفاً أنزلت على الأنبياء صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم، قال اللَّه عزَّ وجلَّ:

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ . . . ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فمن شروط الإيمان الصحيح، أن يؤمن الإنسان بالكتب السَّماويَّة، المنزَّلة من عند اللَّه تعالى، وهي: (الزبورُ، والتوراةُ، والإنجيلُ، والقرآنُ) فالزبورُ أنزله اللَّه على (داود) عليه الصلاةُ والسلام ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

والتوراةُ أنزلها اللَّه تعالى على (موسى بن عمران) عليه الصلاةُ والسلام، قال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ . . . ﴾ [المائدة: ٤٤].

والإنجيل أنزله اللَّه تعالى على (عيسى ابن مريم) عليه الصلاة والسلام قال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦].

والقرآن أنزله اللَّه على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

وقد جمع اللَّه تقدست أسماؤه هذه الكتب السماوية جميعها، في آية واحد مجملة في قوله سبحانه: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ

﴿وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: ٣، ٤] والفرقانُ هو: الكتب الإلٰهيةُ الفارقة بين الحقِّ والباطل، والكفر والإيمان، فجمع بين هذه الكتب كلِّها: (القرآن، والتورة، والإنجيل، والزبور) في هذه الآية الكريمة.

وأمَّا الصحف فكثيرة، فما من نبي من الأنبياء، إلَّا أنزل اللّٰه عليه بعض هذه الصحف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] وقال سبحانه: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٣٨].

أي ألم يُخبر هذا المُنكِر لآياتنا، بما جاء في الكتب الإلٰهية، المنزَّلة على الرسل الكرام، وبما في الصحف المجيدة، المُنَزَّلة على الأنبياء والمرسلين، أنه لا تحمل نفسٌ ذنب غيرها؟ ولا تُعَاقب بجرم فَعَله أحد غيرها؟

الكُتُب السماويةُ رسائلُ من ربِّ العزَّة والجلال

هذه الكتب والصحف المنزلة على الأنبياء والمرسلين، هي (رسائل نورانية) من ربِّ العزة والجلال لهداية البشر، لإخراجهم من ظلمات الكفر والجهل، إلى نور الهداية والإيمان، وما أنزل اللّٰه هذه التشريعات والقوانين إلَّا لسعادة الناس، فمنذ أن أهبط اللّٰه آدم وحوَّاء إلى الأرض، بسبب المخالفة والأكل من الشجرة، أوصاهما بهذه الوصية، وعهد إليهما بهذا العهد الإلٰهي المبارك:

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

أي قال اللّٰه لآدم وحواء وذريتهما، إن جاءكم من جهتي (الهدى الإلٰهيُّ) والوحيُ الرباني، وأنزلت عليكم كُتُبي، وأرسلت إليكم رسلي، فمن تمسَّك بهدايتي فلا يضلُّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، ومن أعرض عن الهداية والإيمان، ولم يستنر قلبه بأنوار الرحمن، فإنَّ له في الدنيا المعيشة القاسية التعيسة، التي لا يشعر فيها بطعم السعادة والراحة.

والمعيشةُ الضَّنكُ: هي الحياةُ التعيسةُ، القاسية الشقيَّةُ، التي لا راحة فيها ولا سعادة، ولا اطمئنان.!

قال ابن عباس: ضَمِنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لمن قرأ القرآن، وعَمِل بما فيه، أن لا يضلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية الكريمة: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[١].

أقول: لو أنَّ البشر رجعوا إلى رشدهم، واستمسكوا بهداية الرحمن، لما عاشوا هذه الحياة التعيسة الشقيَّة، التي يعيشونها اليوم، والتي أخبر عنها القرآن الكريم، وعبَّر عنها (بالمعيشة الضنك)!!

وثَمَّةَ وجهٌ آخرٌ للعذاب الدنيوي، والمعيشةِ الضَّنْك: وهو ما كشفته لنا (حضارة القرن العشرين) إذ يتسابق الشرق والغرب، للتسلح بأحدث الأسلحة الجهنميَّة الفتَّاكة، التي تفتقت عنها عبقريةُ (إبليس) فمن دبابات، ومدافع، وصواريخ، وطائرات حربية، وقنابل (ذرِّية) و(هيدروجينية) وغير ذلك من أنواع الدَّمار للبشرية!!

ينفقون الأموال، ويخسرون الرجال، وليس أدلَّ على صدق ما أخبر عنه القرآن، ما وقع في الحرب العالمية (الأولى) و(الثانية)، فقد ذهب في الحربين ما يزيد على أربعين مليوناً من البشر، وما ينتظرهم أدهى وأمرُّ، وهنا نعرف حقيقة المعيشة الضَّنك، وندرك أيضاً سرَّ قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

❁❁❁

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣٩٢.

التحريف في الكتب السماوية

لقد أرسل اللَّه الرسل، وأنزل الكتب لهداية الناس، وإنقاذهم من ظلمات الكفر والضلال، ولكنَّ أهل الكتاب (اليهود) و(النصارى) حرَّفوا كلام اللَّه، وتلاعبوا في نصوص (التوراة) و(الإنجيل)، تلاعباً فاحشاً فاضحاً، حتى لم يعد يُوثق بما في هذه الكتب السماوية، من كلام اللَّهِ عزَّ وجلَّ، بسبب التحريف للكتب المقدَّسة.

أمَّا اليهود فقد غيَّروا وبدَّلوا آيات التوراة، عن خبثٍ وقصد، كما أخبر تعالى عنهم في قوله: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

غيَّروا أحكام (التوراة) في كثير من المواضع، في أوصاف خاتم الأنبياء، لئلا يؤمن الناس به، مع أن علماءهم وأحبارهم يعرفون أنه رسول اللَّه حقاً، لذكر أوصافه في التوراة والإنجيل، كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] حتى قال كبير أحبار اليهود (عبد اللَّه بن سلام)(١): واللَّهِ لمعرفتي بمحمد، أشدُّ وأعظم من معرفتي بابني، فإن أوصافَ (محمد) موجودة عندنا في التوراة، كما نراها فيه، وابني لا أدري ما صنعت زوجتي في غيبتي؟ وهذا إقرارٌ منه بصدقِ رسالة محمد عليه الصلاةُ والسلام، وقد أسلم بعدُ، وفي إسلامه قصةٌ رائقة، تدلُّ على حسن إسلامه، انظرها في صحيح البخاري.

---

(١) أسلم (عبدُ اللَّه بن سَلَام) ـ وهو من كبار أحبار اليهود ـ بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، وذلك بعد أن رأى الرسولَ ﷺ، وتحقَّق من صدق نبوَّته، وفيه نزلت الآية الكريمة: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣].

تحريف اليهود لحكم الرجم

وحرَّفوا حكم الزاني المحصن، فبدَّلوهُ من (الرجم) إلى (الجلد والتَّحْميم) ـ وهو طليُ الوجه بالسواد ـ وقد حدثت في زمن النبي ﷺ هذه الحادثة.!

(رُوي أن شريفاً من أشراف يهود خيبر، زنى بامرأةٍ شريفة، وكانا مُحْصَنين ـ أي متزوجَيْن ـ فكرهوا رجمهما لشرفهما، فأرسلوا إلى يهود (بني قريظة)، أن أسألوا لنا محمداً عن حكم الزاني المحصن في شريعته ـ يعنون الإسلامَ ـ فإنْ قال لكم: حدُّه الجلدُ فاقبلوا حكمه، وإن قال لكم: حدُّه الرجم فلا تقبلوا.!

فجاءوا إلى رسول اللّه ﷺ وقالوا يا محمد: أخبرْنا عن الزاني والزانية إذا كانا محصنَيْن، ما حدُّهما في كتابك؟ فقال: حدُّهما الرَّجمُ، فأبوا أن يأخذوا بحكمه، فقال لهم ﷺ: ما حكمهما في التوراة؟ قالوا: الجلدُ، ونسوِّد وجههما ونفضحها!!

فقال ﷺ لرجلٍ من علمائهم: أنشدك باللّه الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا يا محمد، ولولا أنك نشدتني باللّه لم أخبرك!!

نجد حكمه في التوراة الرجم، ولكنه كَثُر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف ـ أي السيد ـ تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدَّ، فقلنا: تعالوا نجتمع على أمر واحدٍ، نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد!!

فقال ﷺ: (اللّهم اشهدْ، فإني أول من أحيا أمرك بعدما أماتوه، فأمر بهما فرُجما)(١).

إثبات القرآن لتحريف أهل الكتاب

وفي هذه الحادثة نزل قول اللّه تعالى في بيان تحريف اليهود للتوراة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا

(١) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وكذلك حُرِّف الإنجيل من جهة أهل الكتاب (النصارى)، وفيهم يقول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۞ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢].

السيِّدُ المسيح عليه السلام، دعاهم إلى توحيد اللَّه، وقال لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] والنصارى يقولون: اعبدوا الربَّ (يسوع) أي عيسى!!

السيِّدُ (المسيح) عليه السلام يأمرهم بالتوحيد، وهم يقولون بالتثليث أي الآلهة ثلاثة، وهذا تحريف لما في الإنجيل، الذي جاءهم به عيسى عليه السلام من عند اللَّه، وفيهم يقول اللَّه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

أفلا يكفي هذا البهتان افتراءً على اللَّه، وتحريفاً لكلام اللَّه؟

كيف يدعوهم المسيحُ إلى عبادته، وأوَّلُ كلمةٍ نَطَق بها وهو طفل رضيع في المهد ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾؟ [مريم: ٣٠] لم يقل لهم: جعلني إلهاً معه، ثم كيف يعتقدون بألوهيته، ثم يزعمون أنه صُلب، وكيف يُصلب الإله؟ أَوَما كان باستطاعته الدفاع عن نفسه؟ وكيف بقي العالم أياماً بدون إلٰه؟

أَعُبَّادَ المَسِيحِ لَنَا سُؤَالٌ   نَرُومُ جَوَابَهُ مِمَّنْ وَعَاهُ

إِذَا صُلِبَ الإِلٰـهُ بِفِعْلِ عَبْدٍ يَهُودِيٍّ فَمَا هَذَا الإِلٰـهُ؟

تحريف النصارى للإنجيل

ندرك من هذا، أنَّ التحريف قد حصل فعلاً في (الإنجيل)، كما حصل في التوراة، وأن أهل الكتاب جميعاً (اليهود) و(النصارى) قد غيَّروا أحكام اللَّه، وعبثوا في التوراة والإنجيل، بما لم ينزله اللَّه في كتبه المقدَّسة.

لم يَنْجُ من التحريف إلَّا (القرآن العظيم) الذي أُنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين، فهو الكتاب الوحيد، الذي نجا من التحريف، والتبديل، والتغيير، وبقي كما أُنزل على رسول اللَّه ﷺ، لم تُبدَّل فيه كلمة، ولم يتغير منه حرف!

والسببُ في هذا: أن اللَّه عزَّ وجلَّ، قد تكفَّل بحفظ كتابه، وصيانته من التحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فلا يستطيع أحد من البشر، أن يتلاعب في نصوصه، ولا أن يبدِّل من آياته وحروفه، لأنه مصونٌ بكفالة اللَّه عزَّ وجلَّ، وأيُّ ضمانةٍ أعظمُ من ضمانة اللَّه؟ فهو محفوظ في الصدور، ومصون في السطور!!

أمَّا الكتب السماوية السابقة، فلم يضمن اللَّه حفظها، ولم يتكفَّل بصيانتها عن التحريف، وإنما وَكَل أمرَ حفظها إلى علمائها، من الأحبار والرهبان، واسمعْ قولَ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ومعنى قوله سبحانه: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي طُلِبَ منهم أن يحفظوا كتاب اللَّه، من التحريف والتبديل، والتلاعب فيه، أو تغيير أحكامه.

حفظُ اللَّهِ للقرآن الكريم من التحريف

أمَّا الحكمة من حفظ اللَّه للقرآن، وضمانِ سلامته من التلاعب فيه، فهو أن القرآن العظيم، آخرُ الكتب السماوية، ومحمد ﷺ خاتمُ الأنبياء والمرسلين، لا نبيَّ بعده، فلو حُرِّف القرآنُ الكريمُ، فأيُّ كتاب سينزل ليبيِّن للناس المحرَّف فيه؟

وأيُّ رسولٍ سيأتي حتى يوضِّح ما غُيِّر وبُدِّل في القرآن؟

لذلك اقتضت الحكمة الإلٰهية أن يحفظ اللَّه جلَّ وعلا كتابه بنفسه، ويصونه عن التحريف والتبديل.

أما الكتب السابقة، فإنه لمَّا حُرِّفت التوراةُ، بعث اللَّه (عيسى بن مريم) ليردَّ الناس إلى الدين الحقِّ، ويُبيِّن ما غُيِّر وبُدِّل من أحكام اللَّه، كما قال سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠، ٥١].

وتمعَّنْ قولَ اللَّه جلَّ جلاله مخاطباً اليهود والنصارى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۞ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦] أي يا معشر اليهود والنصارى، لقد جاءكم رسولنا محمد خاتم الأنبياء بالدِّين الحقِّ، يبيِّن لكم الكثير ممَّا كنتم تكتمونه في كتابكم، من صفته عليه السلام، الموجودة عندكم في (التوراة والإنجيل)، ومن (آية الرجم)، وقصة (أصحاب السبت)، الذين مسخوا إلى قردة وخنازير، ويعفو عن كثير، فلا يبيِّنه، وإنما يبيّن لكم ما فيه حجة على نبوَّته، وشهادة على صدقه، ولو ذَكَر كلَّ شيء لفَضَحكم، وكَشَف باطلكم وضلالكم!!

وفي الآية دلالة ساطعة على صدق نبوَّته ﷺ، لأنه كشف ما أخفوه في كتبهم، مع أنه عليه السلام (نبيٌّ أميٌّ) لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يقرأ كتبهم حتى يعلم ما حرَّفوه وبدَّلوه.!

وصدق اللَّه العظيم حيث يقول عن هؤلاء المتلاعبين في الكتب المقدسة ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾!! [البقرة: ٧٩].

أنواعُ التحريف لكلام اللَّه

التحريف لكلام اللَّه تعالى قسمان:

١ ـ تحريفٌ لألفاظه ومبانيه.

٢ ـ تحريفٌ لمفاهيمه ومعانيه.

فالقسم الأول: تكفَّل اللَّه بحفظه، فلا يستطيع مخلوقٌ أن يحرِّف القرآن بكلمةٍ، أو حرفٍ من حروفه، والدليل على ذلك، أنك لو ذهبتَ أقاصي الدنيا، من المشرق إلى المغرب، تجد جميع المصاحف هي نفسُها، لا يختلف فيها واحد عن آخر، بحرفٍ من الحروف، أو كلمةٍ من الكلمات.

أمَّا الثاني: وهو التحريفُ لمعانيه، فهذا يفعله بعضُ الزائغين الضالين، وذلك بتأويل الآيات بالباطل، حسب أهوائهم، وبئسَ ما يفعلون!! ولكنَّ العلماء الربانيِّين لهم بالمرصاد.

وصدق اللَّه حيث يقول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

القرآنُ الكريمُ عصمةٌ ونجاة للؤمنين

لقد ذكَّرَ القرآنُ العربَ في أكثرَ من موضع، بنعمة الكتاب المنزَّل بلسانهم فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ [الأنبياء: ١٠] أي واللَّهِ لقد أنزلنا عليكم يا معشر العرب، كتاباً عظيماً جليلاً، نيِّر البرهان ساطع البيان، فيه عزُّكم ومجدكم وشرفكم، أفلا تدركون هذه النعمة؟ وتعلمون أن هذا الكتاب المعجز، لا يمكن أن يأتي به رجل أميٌّ كمحمد، إنما هو تنزيل الرحمن الرحيم؟ أنزله اللَّه بأفضل اللغات وأشرفها (لغةِ العرب) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢] أي أنزلناه

عليكم بلغة العرب، لكي تعقلوا وتدركوا نعمة اللَّه عليكم، بنزول هذا الكتاب المجيد، وتعملوا بمقتضى أحكامه وإرشاداته، فهو الكتاب الفارق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩] ولقد نطق رسول اللَّه ﷺ بكلمة الفصل، فقال عليه الصلاةُ والسلام: (لقد تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به، لن تضلُّوا بعدي أبداً: كتابَ اللَّه، وسُنَّتي)(١).

روى الإمامُ البخاريُّ في صحيحه عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال:

(لا أحدَ أصبرُ على أذى سَمِعه من اللَّه، إنهم يجعلون له وَلَداً، وهو يرزقهم ويعافيهم(٢))!!

ونختم (بحث الوحدانية) بقول اللَّه عزَّ وجل في كتابه العزيز، حول تأليه النصارى للمسيح، منكراً عليهم ومتهدِّداً.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. أي من يدفع عن عيسى العذاب؟ لو أراد اللَّهُ أن يهلكه، ويهلك أمَّه وأهلَ الأرض جميعاً؟ هل هناك أحد يستطيع أن يمنع اللَّه من إرادته ومشيئته؟ فعيسى عبدٌ للَّه مقهور، تحت سلطان اللَّه وعظمته، ولو كان إلهاً كما يزعمون، لدفعَ عن نفسه الفناءَ والموتَ!!

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

الفصل الخامس

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان

الفصل الخامس

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان

خَلَق اللَّهُ في هذا الكون البديع، مخلوقات عديدة، بأشكال وصور عجيبة، خلق (الإنسانَ، والحيوانَ، والطيرَ، والنبات، وخلق الزواحف، والأسماك، والوحوش)، وغيرَها من المخلوقات، وكلُّ هذه في العَالَم السفلي (الأرض) وهناك مخلوقات في العَالَم العلوي (السماء) وهم الملائكةُ الأطهار الأبرار، الذين أخبر اللَّه تبارك وتعالى عنهم في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ما هي حقيقة الملائكة؟

الملائكة مخلوقاتٌ تختلف عنَّا في الصُّورة، والشكل، ويختلفون عنَّا في الوظائف والأعمال.!

الملائكة (أجسام نورانية) أي خُلقوا من نور، قادرون على التشكل بأيِّ صورة شاءوا، لا يأكلون ولا يشربون، ولا ينامون، يسبِّحون الليلَ والنهار لا يفترون.

ليس فيهم ذكور ولا إناث، ولا تناكحٌ ولا تناسل، وإنما يخلقهم اللَّه ابتداءً، خلقاً مستقلّاً، بأشكال وصور هائلة، لا يتصوَّر العقلُ البشري فخامتَها ولا عظَمتها!!

منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أكثر من ذلك، استمع إلى قول اللَّه عزَّ وجلَّ عنهم:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

هذا في عامة الملائكة، منهم من له جناحان، ومنهم من له أربع، ومنهم من تزيد أجنحته على ذلك، أمَّا جبريل عليه السلام، فتصوَّرْ عَظَمةَ خَلْقه، من كثرة أجنحته.

فقد روى البخاري عن ابن مسعود رضي اللّه عنه أنه قال: (رأى رسولُ اللّه ﷺ جبريلَ (ليلة الإسراء) له ستُّمائةِ جناح، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب)(١).

ومن قوة جبريل عليه السلام، أنه اقتلع جبل الطور، ورَفَعه فوق رؤوس (بني إسرائيل) حتى صار كالمظلَّة عليهم، بأمر اللّه عزَّ وجلَّ، حين امتنعوا عن العمل بأحكام التوراة، وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧١] **وحين أراد اللّه إهلاكَ قوم لوط، وقلْبَ ديارهم بهم،** بعث جبريلَ عليه السلام، فاقتلع قُرَاهم من قرار الأرض ـ وكانوا سبعة قرى ـ ثم احتملها بجناحه، ثم رفعها إلى عَنَان السماء، ثم قَلَبها عليهم، وهم (المؤتفكة) الذين انقلبت بهم ديارهم، وأرسل اللّه عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل مكانها بُحيْرةً خبيثة منتنة، كما قال عزَّ شأنه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

بغضُ اليهود الشديد لجبريل عليه السلام

اليهود يكرهون جبريل على وجه الخُصوص أشدَّ الكُرْه، ويعادونه معاداة شديدة بسبب رفع (جبريل) عليه السلام جبلَ الطُّور عليهم، وتهديدهم بإلقائه عليهم إن لم يُطبِّقوا أحكام التوراة، وفيهم يقول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

قصَّةُ اليهود مع رسول اللَّه ﷺ

رُوي أنَّ بعضَ زعماء اليهود، جاءوا إلى رسول اللَّه ﷺ لامتحانه، فقالوا يا محمد: إنَّا نسألك عن خمسة أمور، إن أنت أجبتنا عنها، عرفنا أنك نبيٌّ، فآمنَّا بك، وصدَّقناك واتَّبعناك!!

فقال لهم ﷺ: سَلُوا عمَّا بدا لكم!!

- فسألوه عن علامة النبيِّ؟

قال: تنام عيناه، ولا ينام قلبه!! قالوا: صدقتَ!!

- وسألوه عن المرأة تأتي بالذكر، أو تَلِدُ بالأنثى، كيف يكون ذلك؟

قال: إذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل ـ أي غلب ماؤها على ماء الرجل ـ أنَّثتْ بإذن اللَّه تعالى ـ أي ولدت بأنثى ـ وإن علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة، أذكرتْ بإذن اللَّه تعالى ـ أي ولدت بالذكر ـ قالوا: صدقت!!

- ثم سألوه عمَّا حرَّم إسرائيل على نفسه؟

فأجابهم ﷺ بما هو مذكورٌ عندهم في التوراة، وبما هو مذكور في القرآن: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: ٨٣].

- وسألوه عن الرعد وصوته كيف يحدث؟ فأخبرهم ﷺ عن ذلك، قالوا: صدقتَ!!
- وبقيت واحدةٌ نتابعك إن أخبرتنا عنها!؟ قال: سَلُوا!
- **قالوا: من يتنزَّلُ عليك بالوحي من الملائكة؟**

قال: (جبريل) عليه السلام! قالوا: جبريلُ ذلك عدوُّنا، ينزل بالحرب، والقتل، وتخريب الديار، لو قلتَ: (ميكائيل) الذي ينزل بالخِصب، والرحمة، والمطر، لاتَّبعناك[1]!! فأنزل اللَّه هذه الآية الكريمة:

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير (سورة البقرة).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧، ٩٨].

وظائف الملائكة عليهم السلام

إنَّ الملائكة الروحانيِّين، هم جنود اللَّه المسخّرة، لتنظيم أمور الكون والخَلْقِ، لا يعلم عدَدَهم إلَّا اللَّهُ تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ولهم وظائفُ مخصوصةٌ معيَّنةٌ، لا يخرجون عنها، ولا يقصِّرون في أدائها، لأنهم جنودٌ مسخَّرون بأمر اللَّه تعالى كما قال سبحانه عنهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

١ ـ فمنهم الموكَّل بالوحي والشرائع كجبريل عليه السلام.

٢ ـ ومنهم الموكَّل بالأرزاق، والأمطار، والخيرات، كميكائيل عليه السلام.

٣ ـ ومنهم الموكَّلون بالزلازل، والصَّواعق، والفيضانات.

٤ ـ ومنهم الموكَّلون بالأعمار، والآجال.

٥ ـ ومنهم الموكَّلُون بالمحافظة على الخلق من شرِّ الشياطين.

٦ ـ ومنهم الموكَّلون بالأرحام لتصوير الأجنَّة فيها.

٧ ـ ومنهم المستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين.

٨ ـ ومنهم الموكَّلون لحمل العرش العظيم.

٩ ـ ومنهم المتفرّغون للعبادة، للتسبيح، والتحميد، والتمجيد.

١٠ ـ ومنهم الموكِّلون بكتابة أعمال البشر.

وهكذا لكلِّ فريقٍ من الملائكة عملٌ ومهمَّة، يؤدُّونها على أكمل الوجوه:

● **قال اللَّه تعالى في بيان وظائف بعض هؤلاء الملائكة الأبرار الأطهار، معرِّفاً بأعمالهم، وأحوالهم، وأطوارهم:**

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا ...﴾ [غافر: ٧] فهؤلاء المسبِّحون المستغفرون للمؤمنين.

- **قال تعالى عن الملائكة المكلَّفين بكتابة أعمال البشر** ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار: ١٠ ـ ١٢].
- **وفي معرض الحديث عن الملائكة الذين يحافظون على البشر**، يقول تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ...﴾ [الرعد: ١١].

أي للإنسان ملائكة تتعاقب في حفظه، كالحرس في الدوائر الحكومية، يحفظونه من الأخطار، والمضارِّ، في الليل والنهار، بأمر اللَّه وتدبيره.

قال مجاهد: (ما من عبدٍ إلَّا وَمَلكٌ موكَّل به، يحفظه في نومه ويقظته، من الجنِّ، والإنس، والهوامِّ)(١).

ملائكة الرحمة وملائكةُ العذاب

- **وهنالك ملائكةُ الرحمة، وملائكةُ العذاب**، وفيهم يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥].

قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ هذا قَسَمٌ من اللَّه تعالى بالملائكة الأبرار، ملائكة العذاب التي تنزع أروح الكفار، بشدة وعُنف، نزعاً بالغ الشدة، حتى كأنَّ روحَ الكافر، تخرج من ثُقب إبرة.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ قَسَمٌ آخرُ بملائكة الرحمة، التي تنزع أرواح المؤمنين، برفقٍ ولينٍ، كما يُنشط العِقَالُ عن البعير، وكما تُسلُّ الشعرةُ من العجين، والنَّشْطُ: الأخذُ برفقٍ ويُسْر، بخلاف النَّزْع، فإنه يكون بشدَّةٍ وقسوة.

﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ الملائكة التي تنزل من السماء مسرعين، كالفَرَس الجواد إذا أسرع في جريه، تنزل بسرعة لتنفيذ أمر الجبَّار، كأنها تسبح سباحة في الفضاء.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة التي تدبِّر شؤون الكون، وأمورَ الخلق، في الرياح، والأمطار، والأرزاق، والأعمار، وغير ذلك من أمور الدنيا والدين، بأمر رب العالمين.!

---

(١) تفسير جامع البيان للطبري ٩/ ٣٥٤.

الملائكةُ المسبِّحون بحمد اللَّه

- **وأمَّا الملائكةُ المسبِّحةُ للَّهِ ربِّ العالمين**، المشغولةُ بذكر اللَّه وتقديسه وتمجيده، فيقول ربُّ العزَّة والجلالِ عنهم: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

أي لا يَمَلُّون ولا يسأمون، يسبِّحون اللَّهَ ليلَ نهار، لا يضعفون عن الذكر والتسبيح، بل هم في ذكر دائم، وتسبيح مستمرّ لا ينقطع.!

سُئل كعبُ الأحبار عن تسبيح الملائكة؟ فقيل له: كيف لا يفترون؟ أليس لهم شُغْلٌ أو حاجة؟

فقال للسائل: يا ابنَ أخي، جُعل لهم التسبيحُ، كما جُعِل لكم النَّفَسُ!!

ألستَ تأكل وتشرب وأنت تَتَنفَّس؟ ألستَ تذهب وتجيء وأنت تَتَنفَّس؟ فكذلك جُعل لهم التسبيح[(١)]!!

كم هو عددُ خزنةِ جهنَّم؟

أمَّا خزنةُ جهنَّم فهم من الملائكة، وعددُهُم تسعةَ عَشَر مَلَكاً، نزع اللَّهُ من قلوبهم الرَّحْمةَ بالكافرين، طباعُهم غليظة، وتركيبُهم في غاية الشدَّة والفظاظة، ومنظرُهم مفزعٌ مزعج، قال تعالى عنهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

أمَّا الحجارةُ التي أشارت إليها الآية الكريمة، فهي حجارةٌ من كبريتٍ، أنتُن من الجيفة، ولقد وُكِّل بجهنم زبانيةٌ غلاظ القلوب، أقوياءُ الأجسام، يدفعُ الواحد منهم بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً في النار، لا يرحمون إذا استُرحموا، لأنهم خُلِقُوا من الغضب، وحُبِّب إليهم العذابُ، كما حُبِّب لبني آدمَ الطعام والشراب[(٢)]!!

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ١٦٧.

(٢) التفسير الواضح الميسَّر ص١٤٣٧.

وملائكةُ العذاب كثرةٌ كثيرة، يرأسهم مَلَكٌ اسمه (مالك) عليه السلام ويُسمَّون (زبانية جهنم) وعددُهم (١٩) مَلَكاً، وقد ذُكر عددهم في التوراة، كما ذُكر في القرآن، ابتلاءً وامتحاناً، وفيهم يقول تقدست أسماؤه:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٣٠].

استهزاءُ أبي جهل بالعَدَد من الملائكة

ولمَّا نزلت هذه الآيات الكريمة في حقِّ (الوليد بن المغيرة) قال أبو جهل اللعين لقريش: أسمعُ ابنَ أبي كبشة ـ يريد محمداً ﷺ ـ يتوعَّدنا بأنَّ خزنةَ النار تسعة عشر، وأنتم الشجعانُ المغاويرُ: أيعجِزُ كلُّ عشرة منكم، أن يبطش بواحد منهم!؟

- **ثم قال لهم**: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم منهم اثنين!!

يقول ذلك سخريةً واستهزاء، فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ، ردًّا على ذلك الطاغيةِ الفاجر ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ ...﴾ الآية [البقرة: ٣١].

- إنَّ خزنة جهنم ليسوا من البشر، حتى يصارعهم ويصارعونه، إنَّهم ملائكةٌ غلاظٌ أشدَّاء، لو اجتمع أهل الأرض جميعاً، على مقاومة واحدٍ منهم لم يستطيعوا، وقد بَلَغَ من قوَّة أحدهم، أن يحمل الجَبَل بكفِّه، فكيف يمكن التغلُّب عليهم؟ وكيف تُمكِنُ مصارعتُهم!؟
- وما جعل اللَّه عددهم (١٩) تسعة عشر، إلا فتنةً للكفار الفُجَّار، ليروا عددهم قليلاً، فيهزءوا ويسخروا منهم، حتى قال بعضهم: كيف يمكن لهذا العدد القليل، أن يعذِّب جميع أهل النار!؟
- **وقال أبو جهل مستهزئاً**: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين منهم.!
- كما أنَّ الغايةَ من ذكر هذا العدد (١٩) تسعةَ عشر أن يتيقَّن أهلُ الكتاب، من صدق محمد ﷺ، وأنَّ هذا القرآنَ من عند اللَّه، حيث يجدون هذا العدد في كتبهم المنزَّلة، فيعرفون صدق هذا الخبر.!

الملائكةُ لا يُحْصون عَدَداً

إنَّ عدَدَ الملائكة لا يعلمُه أحدٌ من الخلق، إلا اللَّهُ ربُّ العالمين ﴿وَمَا يَعْلَمُ

جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ وقد أخبرنا الصَّادقُ المصدوق ﷺ، أن السماء لا يوجد فيها مكان فارغ، إلا وفيه مَلَكٌ ساجدٌ للَّه رب العالمين، وأنَّ (البيت المعمور) الذي هو في السماء السابعة، يدخله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك، ثم لا يعودون إليه من كثرتهم(١) . . !

روى الإمام الترمذي في سننه عن النبي ﷺ أنه قال:

(إني أرى ما لا تَرَوْنَ، وأسمعُ ما لا تسمعون، أطَّت السَّماءُ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ـ أي صار لها صوت وثِقَل من كثرة الملائكة ـ ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ، إلَّا ومَلَكٌ واضعٌ جبهتَه، ساجداً للَّه تعالى)(٢) .

وفي حديث آخر رواه الحافظ الطبراني عن جابر رضي اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال:

(ما في السموات السَّبْع موضعُ قَدَم، ولا شِبر، ولا كفّ، إلَّا وفيه مَلَكٌ قائمٌ، أو مَلَكٌ ساجد، أو مَلَك راكع، فإذا كان يومُ القيامة قالوا جميعاً: (سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك، إلَّا أنَّا لم نُشْرِكْ بكَ شيئاً(٣))!!

ومن هنا نعلم أن وظائف الملائكة، تتنوَّع حسب أنواع الموجودات في الكون، وعبادتُهم في غاية الانتظام والكمال، ولا يخرج أحد منهم عن الأوامر الإلهية، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

وكما تتنوَّعُ وظائفُ الدولة في الدنيا، كذلك تتنوَّعُ وظائف الملائكة في عالم الملكوت، ينفّذون أوامر اللَّه، طلباً لرضوانه، وتقرباً إليه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

الكونُ كلُّه في سجود للَّهِ، وطاعةٍ وانقياد، بكلِّ ما يحويه من (إنسانٍ،

---

(١) الحديث رواه مسلم في حديث الإسراء، وفيه (ثم رُفع إليَّ البيتُ المعمور فإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة ثم لا يعودون إليه) أي من كثرتهم.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه.

(٣) أخرجه الحافظ الطبراني.

وحيوانٍ، وجبال، وأنهار، وأشجار) كلُّها تخضع لعظمة اللَّه وجلاله، وتسبِّح بحمده، وهي منقادة خاضعة لأمر اللَّه، كلُّها في مقام خشوع وخضوع، وفي مقدِّمتهم الملائكةُ الأبرار الأطهار، الذين يخافون ربهم، ويفعلون ما يُؤمرون. !

هؤلاء الجنودُ من الملائكة، المتوكَّلون بأعمال البشر، ليس بمقدورهم المعصية، إنما خُلقوا للعبادة والطاعة ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ذلك لأن اللَّه تعالى خَلَقَهم، ليكونوا كالجُنْد والحَرَس، لتنفيذِ أوامرِ اللَّهِ، في هذا الكون البديع.

وقد نوَّع اللَّهُ جلَّ جلاله المخلوقات، وجعلهم ثلاثة أصناف:

١ ـ صنفٌ روحاني، خلقهم اللَّهُ، ونَزَع منهم الشهوةَ، فليس فيهم استعداد للمعصية، وهم (الملائكة الأبرار).

٢ ـ وصنف خلقهم اللَّهُ، وركَّب فيهم (العقلَ) و(الشَّهْوَةَ) وهم البشرُ المكلَّفون الذين عندهم الاستعداد للطاعة والمعصية.

٣ ـ وصنفٌ آخر خلقهم اللَّه وركَّب فيهم (الشهوة) دون العقل، وهم البهائم والحيوانات، وهم غير مكلّفين لعدم وجود العقل.

الفرقُ بين الملائكة والجنِّ

أولاً: عَرَفْنا أنَّ الملائكةَ أجسامٌ (نورانيَّةٌ روحانية) لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يتناكحون، ولا يتناسلون، قادرة على التشكل بأيِّ صورة شاءوا، ولا تحكم عليهم الصورة، بمعنى أن المَلَكَ لو تمثَّلَ بصورة إنسان، أو بصورة طيرٍ، أو صورةِ غَزَال، فقتلنا هذا الإنسان أو الغزال، لا يموت المَلَكُ، لأنَّ هذه (هيئةَ المَلَك)، وليس هو المَلَك نفسُه!

بينما الجنيُّ تحكم عليه الصورةُ، أي يأخذ حكمها، فلو تصوَّر الجنيُّ بصورة إنسان، أو ثعبان، فقتلناه، يُقتل الجنيُّ نفسُه، هذا هو الفارق الأول.

ثانياً: الملائكةُ والجنُّ من عالَم لطيفٍ غير كثيف، إنهم من عالم (الروحانيات) فأصلُ خلْقِ الملائكة النُّورُ، وأصلُ خلْقِ الجنِّ النَّارُ.

كما قال تعالى عن الجنِّ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

وقال عن إبليس: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] هذا هو الفارق الثاني.

وفي الحديث الشريف: (خُلقت الملائكةُ من نور، وخُلقت الجانُّ من مارج من نار، وخُلِقَ آدمُ ممَّا وصَفَ لكم ربُّكم)(١) أي من تراب.

ثالثاً: الملائكةُ ليس فيهم (ذكور) ولا (إناث)، لا يتناكحون ولا يتناسلون، وليس لهم ذرية من بنين ولا بنات.

أمَّا الجنُّ فإنهم مثلُ الإنس، فيهم ذكورٌ وإناثٌ، يتناكحون، ويتناسلون، ولهم نسلٌ وذرية، هذا هو الفارق الثالث.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند.

حكاية لطيفة للإمام الشعبيِّ

يُحكى أن الإمامَ الشعبيَّ سُئل ذات يوم، فقيل له: هل لإبليسَ زوجةٌ؟ فقال للسائل: ذاكَ عرسٌ لم أَشْهده!؟ وبعد أن انصرف السائلُ، أخذ يفكِّر في الأمر، يا تُرى هل كان لإبليس زوجة!؟

ثم رَجَع يقرأ القرآنَ من بدايته بإمعان، حتى وصلَ إلى سورة الكهف، في قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ...﴾ [الكهف: ٥٠].

قال: فعلمتُ أنه لا يكون له ذُريَّة، إلَّا وله زوجة!! فلمَّا رجع السائل إليه، قال له: نعم له زوجة، وتلا عليه الآية الكريمة.!

رابعاً: **الملائكة خُلقوا للطاعة والعبادة**، وليس بمقدورهم المعصيةُ، لعدم وجود الشهوة فيهم، فهم عبادٌ (روحانيون) خُلَّصٌ، لا يقع منهم مخالفةٌ ولا معصية، كما أخبر جلَّ ثناؤه عنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

أمَّا الجنُّ فتقع منهم المعصية، لوجود الشهوة فيهم، فإنهم وإن كانوا أرواحاً لطيفة غير كثيفة، إلَّا أنهم مثلُ بني آدم، تحدث منهم المعاصي والمنكرات، ويقع منهم الطغيان والفجور، فرئيسهم (إبليس) عَصَى أمرَ اللَّه، وهذا برهان ساطع، على أن إبليس لم يكن من الملائكة، وإنَّما كان من الجنِّ، ولو كان من الملائكة لم تقع منه معصية.!

ويكفي برهاناً على أنه من الجنِّ، قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

وهذا هو الفارق الرابع بين المَلَك والجنيِّ، فالجنُّ مخلوقون، مكلَّفون كالإنس، فيهم المؤمنُ والكافرُ، والمطيعُ والعاصي، يدخلُ المؤمنون منهم الجنَّةَ، والكافرون يدخلون النار، كما قال تقدست أسماؤه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

كلمةٌ توضيحية حول الاعتقاد بالجنِّ

- **الجنُّ خَلْقٌ من مخلوقات اللَّه عزَّ وجلَّ**، يجب الإيمان بهم، كما يجب الإيمان بالملائكة، وهم أجسام لطيفة، يختلفون في الهيئة والشكل عن الملائكة، كما يختلفون عن الإنس.

- **أصلُ خلقتهم من النار**، وهم مكلَّفون كالإنس بالتكاليف الشرعية، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

- **الجنُّ فيهم المؤمنُ، وفيهم الكافر، وفيهم البَرُّ وفيهم الفاجر**، وبعضُ الجنِّ نفوسُهم خيِّرة كريمة، محبَّةٌ للخيرات والطاعات، وبعضُهم نفوسُهم خبيثة شرِّيرة، محبَّةٌ للشرور والمنكرات.

- **فالمؤمنون منهم يدخلون الجنة**، وهم الذين أطاعوا اللَّه وآمنوا برسله، والكافرون منهم يدخلون جهنم، ويُسمَّون (الشياطين).

قال تعالى عن العصاة من الجنِّ والإنس: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

- **ومن عجيب أمر الجنِّ أنهم يبصروننا، ونحن لا نبصرُهُم**، ويعرفون أحوالَنا، ونحن لا نعرف شؤونهم، لأنهم بالنسبة لنا من (الأمر الغَيْبيِّ)، الذي لا تدركه الأبصار، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] أي يرونكم وأنتم لا ترونهم.

والبشرُ بالنسبة للشياطين، وعلى رأسهم إبليسُ، ثلاثةُ أصناف:

١ ـ صنفٌ عَصَمهم اللَّهُ من شرّهم، فلا تستطيع الشياطينُ فتنتَهم وإغواءَهم، وهم الرسلُ والأنبياء الكرام، لأن اللَّه تعالى أخلصهم لنفسه، ولهذا استثناهم إبليسُ من القسَم، حين حَلَف على إضلال البشر ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

٢ ـ وصنفٌ تحوم حولهم الشياطينُ، ويبذلون جهدهم لفتنتهم وإغوائهم، فإذا وقعوا في المخالفة والمعصية، ألهمهم اللَّهُ التوبةَ والإنابةَ، فتابوا ورجعوا إلى اللَّه، فيمحو اللَّه سيئاتهم، وهم عامةُ المؤمنين.!

٣ ـ وصنفٌ هم في أيدي الشياطين، يتلاعبون بهم كما يتلاعب الصِّبيان بالكرة، وهم الكفَّارُ الفُجَّار، أتباع إبليس اللعين، الذين قال الحقُّ جلَّ جلالُه عنهم:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٢ ـ ٤٤]. اللهم نجِّنا من شرِّ شياطين الإنس والجن.

لماذا حُجب عنا رؤية الجِن؟

- **وإنما حَجَب تعالى رؤيتهم عنا، كما حَجَب عنا رؤية الملائكة**، حتى نؤمن بالغيب الذي أخبرنا اللَّه عنه، فأولُ شروط الاعتقاد، (الإيمانُ بالغيب)، وهو كلُّ ما غاب عن الأنظار، ممَّا أخبر تبارك وتعالى عنه، (كأمر الجنَّة، والنَّارِ، ونعيم القبر وعذابه، وأمرِ الصِّراط، والميزان، والكرسي، والعرش)، وسائر الأمور المغيَّبة، كما قال تعالى في صفات المؤمنين الصادقين ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣].

فالإيمان بالملائكة، وبالجنِّ واجبٌ، من أنكره انسلخ عن ربقة أهلِ الإيمان واليقين، ولن ينفعه عملُه يوم القيامة شيئاً، لأنه كذَّب القرآنَ، وجحد أمراً أجمعت عليه الشرائع والأديان.!

قصة طريفة واقعية

أسوق هذه القصة الطريفة للعظة والاعتبار، لتكون صفعةً للمنكرين للغيب.

دَخَلَ مدرِّسٌ شيوعيٌّ على مدرسة (إعدادية) في إحدى المدارس وكان قد سمع طالباً يقول لرفيقه: كيف كذبتَ؟ لقد سجَّلتْ عليك الملائكةُ هذه الكذبة!!

أراد أن يقتلِعَ من أذهان هؤلاء الطلاب البسطاء، فكرةَ الإيمانِ (بالملائكة وبالجن)، وفكرةَ الإيمانِ باللَّه تعالى، لأنه لا يؤمن بوجود اللَّه، ويعتنِق العقيدةَ الشيوعية الملحدة، التي تقول: (لا إلٰهَ في الكون، والحياة مادة)، فبدأ مع هؤلاء الأطفال الصغار حديثه قائلاً:

(نحن جماعةٌ عُقلَاءُ، لا نؤمنُ إلَّا بالملموس والمحسوس، فكلُّ ما نراه بأعيننا، ونلمسه بأيدينا، نؤمن بوجوده ونصدِّقه!! وكلُّ ما غاب عنَّا لا نؤمن به، ولا نصدِّق بوجوده!!

ثم ضرب لهم مثلاً، رفع بيده كتاباً، فقال لهم: ما هذا؟ قالوا: كتاب، قال: هل أحد منكم ينكره؟ قالوا: لا، لأنَّنا نراه ونلمسُه.

ثم رفع إليهم قلماً، ما هذا؟ قالوا: قلمٌ، هل أحد ينكر القلم؟ لا.

ثم سألهم: على ماذا تجلسون؟ قالوا: على المقاعد، هل أحد منكم ينكر المقاعد ويقول: أنا جالس على الأرض؟ قالوا جميعاً: لا!!

وهنا انتهى إلى النتيجة التي يريدها، قال لهم إذاً: كلُّ شيء ندركه بأبصارنا، ونلمسُه بأيدينا، نؤمنُ بوجوده، والآن هل رأى أحد منكم الجِنَّ، أو رأى الملائكةَ؟ قالوا: لا، قال: إذاً فاتركوا هذه الخرافات التي ورثتموها عن جدَّاتكم وأمهاتكم، وعن السُّذَّج من العوَامِّ، الذين يعتقدون بأمثال هذه الأساطير والخُزَعْبلات!!

قال لهم: فكِّروا بمنطق العقل، لو كان شيءٌ منها موجود لشاهدناه بأعيننا، وأخذ بيديه ينفُضُ على كتفيه، يريد أن يطرد الملائكَةَ، ويقول للطلاب ساخراً: لو كان هنا مَلَك على اليمين، ومَلَك على الشمال، لَمَا استطعتُ أن أمشيَ على رجليَّ، لثقلهما على أكتافي، ولَمَا استطاع النَّاسُ أن يقوموا ويقعدوا ويتحرَّكوا، هذه كلُّها خرافات ورثتموها عن جداتكم!

ذكاء خارق لأحد الطلبة

كان بين هؤلاء التلامذة، طالبٌ نبيهٌ ذكيٌّ، رفع يده وقال: يا حضرةَ الأستاذ: أنا فهمتُ الدرسَ ووعيتُه!! وأريدُ أن أعيده على رفاقي، فهل تأذنُ لي؟ قال: تفضَّلْ!!

وقف الطالبُ، وأخذ يقرّر لرفاقه، كما قال الأستاذ: بدأهم بقوله: نحنُ جماعةٌ عقلاءُ، لا نؤمنُ إلَّا بالملموس والمحسوس.!

فكلُّ شيء نراه بأعيننا، ونلمسُه بأيدينا، نؤمنُ به، ونصدِّق بوجوده، وإلَّا فلا يصحُّ أن نؤمن بما لا نراه! ثم التفت إلى الأستاذ وقال له: يا أستاذي، أريد أن أسألك سؤالاً: هل أنت حيٌّ أم ميِّت؟ هل أنت عاقل أم مجنون؟ فنَهَره المدرِّسُ وقال له: ما هذا الكلام يا ولد؟ ما هذه الوقاحةُ وقلَّةُ الأدب؟ تقول لأستاذك مثل هذا الكلام الوقح!؟

فقال له الطالب: أنت يا أستاذي قلت لنا: لا تؤمنوا إلَّا بالملموس والمحسوس، هذه نتيجة درسكَ اليومَ، أرني (عقلك) حتى أصدِّق أنك عاقل، وأرني (روحك) حتى أصدِّق أنك حيٌّ، فأنا لا أومنُ إلَّا بما يراه بصري، وتلمسه يديَّ، وإلَّا فسأحكم عليك بأنك ميِّتٌ، ومجنون!!

ضجَّ الطلاب فرحاً، وخرجوا من الفصل يقولون: المعلِّمُ مجنون، المعلِّمُ مجنون، وتعالت الأصوات في المدرسة: مجنون، مجنون، وشاع الخبرُ عند الأساتذة، وعند مدير المدرسة، وكُتب في حقِّه محضر (ضبط) فَفُصل من التدريس، ونُقل إلى وظيفة شاغرة في وظائف الدولة[١].

(١) هذه الحادثة وقعت في عهد الانتداب الفرنسي في بلد عربي، وقد أنطق اللّه هذا الطالب الصغير بالحجة الدامغة التي قصمت ظهر الباطل.

هل نرى كلَّ ما في الكون؟

إنَّ العقل في الإنسان موجود، ولكنه لا يُرى ولا يُدرك باللَّمس، وإنما يُعرف من آثاره، ونحن نحكم على الشخص أنه عاقل، أو غير عاقل، من تصرُّفاته، فإذا رأينا إنساناً يتكلَّمُ بكلامٍ في غاية الحسن، والمنطق السليم، حكمنا بأنه عاقل، مع أننا لم نر عقله.

وإذا رأينا شخصاً يَهْذِي في كلامه، فيسبُّ ويشتم الناس، وقد خرج عارياً بعد أن اغتسل في الحمَّام، ويزعم أنه أعقلُ الخلق، وأنَّ الناس كلهم مجانين، أَلَا نحكم عليه بأنه مجنون؟

والروحُ كذلك موجودة في الإنسان، ولكنَّا لا نراها ولا نحسُّ بخروجها عند الموت، لأنها من عالم الغَيْب، الذي لا يُرى، وإنما تُرى آثارها في حركات الإنسان وتصرفاته ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وحسبُ الإنسان عجزاً أن لا يعرف ما في بدنه، أَلَا وهي (الروح) التي تسري في عروقه، وتُحرِّك هذا الجسد، وهي أقرب شيء إليه!! لا يدري عن الروح ما هي؟ ما حقيقتها؟ كيف تتولَّد في الجسم؟ لا يعرف كيف جاءَتْ، ولا كيف ذَهَبَتْ، ولا إلى أين تصير!؟ فكيف له أن يحيط بعلوم هذا الكون؟ وكيف له أن يعرف ما يحويه من المغيَّبات؟!

قصة البدويّ مع البعير

كان فَلَّاحٌ يسير في الصحراء، ومعه بعيرُه، وعلى الجمل حملٌ ثقيل من الحطب، يريد أن يصل به إلى سوق المدينة، ليبيعه ويستفيد من ثمنه، فينفقه على أهله وأولاده.!

وبينما هو جاهد في مسيره، والجملُ أمامه يسعى، بقوة وعزم، إذ سقط الجملُ ميتاً، وعلى ظهره (الحِمْلُ الثقيل)، فجلَسَ الفلَّاحُ حزيناً، يفكّر في ذلك المصاب الذي نزل بالجمل، وكيف سيفعل بحمل الحطب؟

مرَّ به بعضُ الأعراب، فرأوه جالساً في الطريق، وفي وجهه الحزنُ والكآبة، فقالوا له: لا تحزن، الحمدُ للّه على سلامتك، رافِقْنا في سفرنا،

ونحن نؤمِّن لك الوصولَ إلى البلدة، ونساعدُكَ في حمل الحطب على دوابنا!

نظَرَ إليهم ثمَّ قال لهم: أنا لستُ حزيناً على البعير، إنما أنا أفكِّرُ في الأمر العجيب الغريب، الذي شغل بالي!؟ قالوا: وما هو؟ قال: الجملُ كان يحمل هذا الحِمْلَ الثقيل، (الجملُ) أمامي لم يَنقُصْ منه شيءٌ، والحطبُ الذي كان يحمله لم ينقُصْ منه شيءٌ، فمن كان يسيِّر الإثنين (الجملَ، والحطبَ)!؟ قالوا له: الروحُ بلا شكٍّ، فقال لهم: أين هي الروح؟ وما هي طاقتها وقدرتها؟ هذا الذي شَغَلَ بالي، وهو الذي أفكِّر فيه!!

كانت هذه لفتةً عجيبة، من هذا البدويِّ البسيط، لم يفكِّر فيها أنبغُ النُّبغاء، من فلاسفة عصرنا الحديث!!

أمثلة واقعية لحقائق لا تُرى بالعين

إنَّ الجراثيم ـ الميكروبات ـ التي تحيط بنا من كل جانب، والتي تغشى أجسَامَنَا، وطعَامَنَا، وغذَاءَنا، وكلَّ ما حولنا من مآكل، ومطاعم، ومشارب، نحن لا نراها بأعيننا، ولكنْ نؤمن بوجودها، لِمَا نرى من آثارها، في الأمراض التي تحدثها في أجسادنا.

فالطبيبُ عندما ينصح النَّاس أن لا يشربوا اللَّبن ـ الحليب ـ إلَّا بعد غَلْيه على النار، وأن لا يأكل أحدٌ الخضَارَ، إلَّا بعد غسلها جيداً بالماء، للتخلُّصِ مما فيها من جراثيمَ تؤذي البدن!!

هل نَتَّهمه في مهنته؟ هل نقول: إنه يكذب ويضحك علينا، لأننا لا نرى ما يخبرنا عنه!؟

وإذا قال فلَّاح بعيد عن الحضارة، إن هذا الطبيب مجنون، أين هذه الجراثيم في الحليب النقيِّ الصافي؟ وأين هذه الميكروبات في الخضار الشهيَّة، والمطاعم اللذيذة التي نأكلها؟ هل نقبل كلامه، أم كلامَ الطبيب الذي رأى بعينيه هذه الجراثيم تحت المجهر؟

إنَّ كثيراً من الأمراض التي تصيبنا، وتهدِّد حياتنا، إنما هي أثرٌ لجرثومة دخلت أمعاءنا، ففتكت بأجسامنا من حيث لم نرها، ولم نشعر بدخولها، ولكنَّ الطبيب الذي شخَّصها ورآها، هو الذي أخبرنا عن سبب المرض، فهل نضرب بقوله عُرْضَ الحائط، ونرميه بالجهل والغباء، أم نقبل بقوله ونصدِّقه!؟

فيروس مرض الإيدز الخطير

ومَرَضُ (الإيدز) هذا المرضُ الخبيثُ الخطير، الذي لم يعرف الأطبَّاءُ له علاجاً حتى الآن، أليس سبَبُه (فيروس) يدمّر جهاز المناعة في الإنسان، ويقضي على حياته، فهل رأينا هذا الفيروس بالعين؟ أم ننكر وجوده ونقول: هذا من الخزعبلات والأساطير؟

أفيليق بالإنسان العاقل الحصيف، أن يلغي من كيانه ووجدانه، كلَّ خصائص الإنسانية؟ بما فيها (العقل) الذي ميَّز اللَّه به الإنسانَ عن الحيوان، ويقف كالبهائم والأنعام عند حواسِّه الظاهرة؟ فلا يُسلِّم إلَّا بما تُقدّم له هذه الحواسُّ من مشاهدات، حتى يؤمن ويقرَّ بوجودها!؟

علماءُ الكونِ والطبيعة يعترفون بالعجز

إنَّ العلمَاءَ الماديِّين، عُلَماءَ الطبِّ، وعُلَماءَ الكون، وعلمَاءَ الطبيعة، مع كل ما توصَّلوا إليه من مكتشفات، يعترفون بأن كلَّ ما لديهم من علوم، إنما هي قطرات من بحور (عَالَم غَيْبي)!؟ بدليل تجدُّد المعارف والمكتشفات، التي تَظْهر لهم يوماً بعد يوم!! وصدق اللَّه حيث يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

إنَّ هؤلاء الملاحدة، الذين ينكرون وجود اللَّه لأنهم لم يروه، لا نتَّهمهم بالبَلَاهة والغَبَاء، وإنما نرميهم بالجنون والسَّفَه، فهم لا يستعملون عقولهم للوصول إلى الحقائق القطعية، وإنما يتصوَّرُونَ صوراً خياليَّة، هي من وساوس الشيطان، فيقولون: لو كان اللَّه موجوداً لرأيناه، كما نرى الشمسَ والقمر، ولهم أسوة بأسلافهم من عبدة الأوثان، الذين قالوا لرسول اللَّه ﷺ: أرنا ربَّك الذي أرسلك إلينا، حتى نؤمن برسالتاك ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

ولهم قدوة باليهود عُمْي القلوب والبصائر، الذين قالوا لنبيِّهم موسى عليه السلام: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] أي لن نصدِّق برسالتك حتى ترينَا ربَّنا عَلَناً وجهاراً.!

۞۞۞

اللَّهُ لا يُرى بالعين إنَّما نعرفه من آثاره

إنَّ اللَّه تبارك وتعالى ليس من جنس البشر، حتى نراه في الدنيا بأعيننا، ولكنه سبحانه كشف لنا الأستار عن وجوده، بالآثار التي خلقها وأبدَعَها، في هذا الكون الفسيح ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

وأَمَرنا بالنظر إليها والتفكير فيها، لنستدلَّ بالمخلوق على الخالق، وبالصَّنْعةِ على الصانع ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم: ٥٠].

ألا تكفي هذه المخلوقات المنتشرة في الكون، على وجوده سبحانه؟ (الإنسانُ، والحيوانُ، والنباتُ، والشجر، والشمس، والقمر) كلُّ هذه من مخلوقات اللَّه، ألا تدلُّ على الصَّانع المبدع الحكيم؟ ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [لقمان: ١١].

لقد لَفَتَ القرآن الكريم أنظارَنَا إلى مخلوقاته، فقال لنا:

هذه مخلوقاتُ اللَّه تعالى ماثلةٌ للعَيَان، فأخبروني ماذا خلقت الأوثانُ والأصنامُ، التي عبدتموها من دون اللَّه؟ وماذا خلق من عبدتموهم من البشر، كالمسيح، وعُزير؟ وهو سؤال فيه (السُّخْريةُ والتهكُّم) بالمشركينَ، وآلهتهم المزعومة.!

قصةٌ رمزية بديعة

وإلى عُمي القلوب الذين لا يؤمنون إلَّا بالملموس والمحسوس، أسوقُ هذه (القصة الرمزية) حول الأمور الغيبية، التي يدركها الذكيُّ والغبيُّ، والعالمُ والجاهل، لْنستمع إلى هذه القصة.!

(دخل اثنان إلى مصنع كبير، فيه آلاتٌ كثيرة في غاية الدقة والإبداع، تدور هذه الآلاتُ بالطاقة الكهربائية، ولم يكن في المصنع أحدٌ من المسؤولين والعُمَّال، ثم اهتديا إلى مفاتيح تشغيله، فإذا بآلاته تتحرك بانتظام، وتُنتِجُ منتجاتٍ نسيجيَّة بديعة، تكاد تُدهش الأبصَار.!

قال أحدهما لصاحبه: إنَّ صانع هذا المصنع، مهندسٌ بارع، وعبقريٌّ لامع، ذو مَهَارةٍ فائقة، ومَلَكةٍ عقلية مبدعة، ولا شك أنه ذو معرفةٍ بأصول (الطاقة الكهربائية) التي تحرِّك هذا المصنَعَ، كما هو عالمٌ بفنِّ الاختراع، لذلك أتقنَ صناعةَ هذا المعمل، بهذا الإحكام والإتقان!!

قال الآخر لصاحبه: أخطأتَ يا صاحبي، فليس هذا المصنعُ من إبداع مهندس، ولا من اختراع أحد، فليس بمقدور البشر، أن يأتوا بمثل هذا المصنع، بهذا (الإحكام والإتقان)، فإنهم أعجز من أن يصنعوا مثل هذا النموذج الخارق، هل ترى مثله في القرى والأرياف التي نعيش فيها!؟

قال له صاحبه: يا عجباً ممَّا تقول وتتكلم!! كيف إذاً وُجد هذا المصنعُ الذي يُخْرج هذه المنسوجات الرائعة، بهذا الإتقان المدهش؟

حديثُ المُنْكِرِ لمُهَندس المَصْنع

فأجابه صاحبه: لا تعجبْ يا صديقي، لقد كان هنا جبلٌ من حديد، تعلوه طبقةٌ صخريةٌ صُلبة، وتتخلَّله أتربةٌ ورمال، مرَّت عليه ملايين السنين، وكانت الرياحُ العاصفةُ، تنحتُ من هذا الصَّخْر، وتمرُّ عليه السيولُ الجارفة، فتجرف عنه الرمالَ والأتربة، ثم بتأثير الحرارة، والضغوط الجوية، تشكَّل حديدُه وظَهَر، وبفعل أحداثِ الطبيعة التي لا عقل لها ولا إرادة، نشأ هذا

(المصنعُ المتقن)، وبطريق (المصادفة) أخرج هذه المنسوجات البديعة.!

لم يتمالك صاحبه نفسه، فانطلقت منه ضَحِكاتُ سُخْريةٍ عجيبة، استغرق فيها طويلاً من الزمن، قال له صديقه: لماذا تضحك هذه هي الحقيقة؟!

تخاصَمَا وتجادلا وارتفعت أصواتُهُما، وأخذ مدَّعي المصادفة، المنكرُ لوجود مهندسٍ للمصنع، يسبُّ ويشتم، ويتَّهِمُ صديقَهُ بالغَبَاء، وقلَّةِ العقل، والتعلُّقِ بأمورٍ غيبية، غير مرئية ولا مشاهدة.!

وبينما هما يختصمان، إذْ دخل عليهما مالكُ المصنع، الذي هو صانعُه ومهندسُه، وكان قد سمع كلامهما من (مسجِّلٍ صوتيٍّ)، في غرفةٍ نائية عن المصنع، وسمع حوارهما.!

أمَّا المعترف بمالك المصنع، ومهندسه وصانعه، فقد استضافه في قصره العظيم، وكرَّمه ونعَّمه.

وأما الجاحد المنكر لمالكه وصانعه. فقد طَرَده من القصر، وأبعده عن مملكته، فهام على وجهه في الصحارى والقفار)(١).

مثلٌ للمؤمن بالخَالِق والمُنْكر لوجوده

هذا مَثَلٌ لمن أثبت وجودَ الخالق المبدع الحكيم، فأثبت وجوده بالمنطق العقلي السليم، ولمن أنكر وجود اللَّه، ونَسَب ذلك إلى (المصادفة البلهاء)، وإلى (الطبيعة العمياء) البكماء الصَّماء!!

إنَّ المؤمنين والكفَّار جميعاً، يعيشون في (المملكة الإلهية) الواسعة، فمن اعترف بوجود مالكٍ للكون، أكرمه اللَّهُ وقرَّبه، ومن جحد وجوده، أهانه اللَّه وأبعده، وعلى هذا الأساس يُبْنَى الثوابُ أو العقابُ.

وهكذا يريد الملحدون باللَّه، الخالقِ المبدع الحكيم، أن ينسبوا هذا الإتقان في الخلق والتدبير، إلى الطبيعة البلهاء، وأنَّ كلَّ ما يشاهده الناسُ، إنما أتى عن طريق (الصُّدفة) والتطور الذاتي، وأن ينكروا الخالقَ الذي أبدع نظامَ هذا الكون، على أكملِ وجهٍ، وأحسن إتقانٍ وتدبير!!

---

(١) أصلُ هذه القصة من كتاب (براهين وأدلة إيمانية) للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني رحمه اللَّه، مع شيء من التحوير.

الفصلُ السادس

الإيمانُ بالدارِ الآخرة

الفصلُ السادس

الإيمانُ بالدار الآخرة

العوالم التي يَمرُّ بها البشر

ينبغي أن نعلم أنَّ العوالَم التي تكتنف حياةَ البشر، والتي يمرُّ بها الناسُ منذُ بداية الخلق، إلى أن يرث اللَّهُ الأرضَ ومن عليها، هي ثلاثة عوالم:

١ ـ عالَمُ الدنيا.

٢ ـ عالَمُ البرزخ.

٣ ـ عالَمُ الآخرة.

الأول: عالَمُ الدنيا

أمّا عالَمُ الدنيا: فيبدأ منذ أن أُهبط آدم وحواء عليهما السلام من الجنة إلى الأرض، وبدأت ذريتُه تنتشر وتتناسل، إلى انتهاء الحياة عن سطح هذا الكوكب الأرضي، وتسمى هذه الحياةُ (الحياةَ الدنيا) أي القريبة.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ومعنى الآية الكريمة: ليست هذه الحياةُ الدنيا التي تعيشونها دائمة، ولا خالدة، بل هي ظلٌّ زائل، ومتاعٌ فانٍ، وما فيها من زينةٍ وشهوات، وأموال، وملَّذات، يشبه اللهو واللعب، الذي هو من شأن الصِّبيان والسفهاء، لا من شأن العقلاء، فينبغي أن لا ينخدع بها المؤمن، والآخرةُ وما فيها من النعيم الدائم، هي الحياة الحقيقية السعيدة، لمن أراد الراحة والهناء، ولو كان عند الناس فهم وعلم، لم يُؤْثِروا دار الفناء على دار البقاء. !

الثاني: عالَمُ البَرْزخ

أمّا عالمُ البرزخ: فيبدأ من حين دخول الإنسان القبرَ، إلى يوم البعث والنشور، حيث يخرج الخلائقُ من قبورهم، ويُساقون إلى أرض المحشر، للحساب والجزاء، قال اللَّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

هذا البرزخ الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾ هو الحاجزُ والفاصلُ بين (عالم الدنيا) و(عالم الآخرة) وهو القبرُ الذي يكون مثوى الإنسان، إلى يوم الحشر، الذي تجتمع فيه الخلائقُ للحساب والجزاء.

الثالث: عالَمُ الآخرة

أمّا عالمُ الآخرة: فهو اليومُ الذي يجري فيه حساب الخلائق، على ما اقترفوه في الدنيا من خيرٍ أو شرّ، ومن طاعةٍ أو عصيان.

وهو (يوم القيامة) الذي يلقى فيه الإنسانُ جزاءه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] وقال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وهو ما سنتحدث عنه بالتفصيل في هذا الفصل من هذا الكتاب.

الإيمانُ بالدار الآخرة

قال اللّه في كتابه العزيز: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ [القصص: ٨٣].

الإيمانُ بالدار الآخرة ركنٌ أساسيٌ من أركان الإيمان، وهو مرادف (لليوم الآخر) الذي ورد به القرآنُ الكريم، في آيات عديدة من سوره.

يسمَّى (يومُ القيامة) بأسماء عديدة، منها: (يومُ الفصل) و(يومُ الحساب) و(يومُ الحشر) و(يومُ الجمع) و(يومُ التغابن) وغيرها من الأسماء.! ويسمَّى (باليوم الآخر) لأنه يأتي بعد آخر أيام الدنيا، كما تسمى تلك الدار التي يجري فيها الحساب والجزاء (بالدار الآخرة) لأنها الدار الأخيرة، التي يلتقي فيها جميع الخلائق بعد إحيائهم، وبعد انتقالهم من (دار الفناء) إلى (دار البقاء).

يوم القيامة

يومُ المحكمة الإلهية الكبرى

قال الحقُّ جلَّ وعلا: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۞ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤].

في ذلك اليوم العصيب الذي لا مهرب لأحد منه، لأنه يوم الفصل بين الخلق، يلتقي فيه الحاكم والمحكوم، والظالم والمظلوم، والقويُّ والضعيف، والغنيُّ والفقير، لينالوا جزاءهم العادل في (المحكمة الكبرى).

يومُ القيامة يومُ (المحكمة الإلهية) وهو اليومُ الذي أقسم اللّه على مجيئه، أقسمَ عليه بذاته المقدَّسة، فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧].

استقرار البشر في دار النعيم أو الجحيم

والدار الآخرة هي الدار التي يستقر فيها الخلائق في النعيم، أو في الجحيم، حسب إيمانهم وأعمالهم.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أي ليست هذه الحياة الدنيا، إلَّا ظلٌّ زائل، ومتاعٌ فانٍ، يشبه اللهو واللعب، الذي هو من شأن الصبيان، لا ينخدع بها إلَّا الغافلُ الجاهل، والآخرةُ وما فيها من النعيم الخالد المقيم، هي الحياة الدائمة السعيدة، لمن أراد الراحة والهناء، لأنها الحياة الدائمة التي لا تنغيص فيها ولا كدر.

وتسمى الدار الآخرة (دار القرار) لأن فيها الاستقرار الدائم، والخلود المؤبَّد، في دار النعيم إن كان صاحبها مؤمناً، أو في دار الجحيم إن كان كافراً، كما قال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ * يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩].

الدَّارُ الآخرةُ هي الباقية

وقد كَثُر ذكرُ (الدار الآخرة) في القرآن الكريم، ليتَّعظ الناس ويعتبروا، ولا يركنوا إلى الدار الفانية، قال تعالى: ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠].

وفي سورة يوسف جاء التذكير بالدار الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟ [يوسف: ١٠٩] أي أفلا تعقلون أن الباقي الدائم، خير من الفاني الزائل؟

الإيمانُ باليوم الآخِرِ قرينُ الإيمانِ باللَّه

الركنُ الخامس من أركان الإيمان: هو (الإيمانُ باليوم الآخر) والبعثِ والحساب والجزاء، وهذا ركن هام من أركان العقيدة، بل يكاد يكون أهمَّ الأركان، بعد الإيمان باللَّه الواحد الأحد.

ولهذا نرى القرآن الكريمَ، يقرن بين الإيمان (بوحدانية اللَّه ووجوده)، وبين (الإيمان باليوم الآخر)، في آيات كثيرة لا تكاد تُحصى، تمعَّنْ معي قول اللَّه عزَّ وجلَّ:

١ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

٢ ـ **وقوله تقدست أسماؤه:** ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ...﴾ [البقرة: ١٧٧].

٣ ـ **واقرأ قوله جل ثناؤه:** ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ...﴾ [النساء: ٣٩].

٤ ـ **واسمع قول اللَّه تعالى:** ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ...﴾ [النساء: ٥٩].

٥ ـ **وتدبَّرْ قول العليِّ الكبير:** ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾ [التوبة: ١٨].

٦ ـ **وكذلك قوله عزَّ شأنه:** ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ...﴾ [التوبة: ١٩].

٧ ـ **واقرأ قوله سبحانه:** ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ...﴾ [التوبة: ٢٩].

ولو أردنا أن نتتبَّع آيات الذكر الحكيم، وما جاء فيه من الاقتران بين (الإيمان باللَّه) والإيمان (باليوم الآخر) لضَاقَ بنا المقام، وطال بنا الحديث،

وما هذه الآيات الكريمة التي ذكرناها، إلَّا تبصيرٌ وتذكير بأهمية (الاعتقاد باليوم الآخر)، الذي يلتقي فيه المؤمن والكافر، والبرُّ والفاجر، لينال كلُّ إنسانٍ جزاءَه على ما فعله في الدنيا، من خير أو شر، أو صالح أو طالح. !

القَسَمُ بيوم القيامة

ونظراً لأهمية هذا اليوم، الذي يجتمع فيه البشر في صعيد واحد، للحساب والجزاء، أقسم اللّه جلَّت عظمته بذاته المقدَّسة، على مجيء هذا اليوم، وأنه حقٌّ لا ريب فيه، ولا بدَّ من مجيئه، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

هذا قَسَمٌ من ربِّ العزة والجلال، على أن يوم القيامة ـ يوم الحساب والجزاء ـ قادم لا محالة، لا مجال للشك فيه والارتياب، ولا أحد أصدق في الحديث من ربِّ العالمين!!

لماذا سُمِّي يوم القيامة باليوم الآخر؟

١ ـ **وإنما سُمِّي يومُ القيامة باليوم الآخر،** لأنه (المحطَّةُ الأخيرة) في حياة البشر، وبانتهاء الدنيا، ينتقل الناس من دار الفناء، إلى دار البقاء، فهو آخر الأيام المحدودة، التي قضاها الباري جلَّ وعلا للخلائق، في هذه الحياة الدنيا، ثم يعقبها يوم (الحشر الأكبر)، فيوم القيامة يكون بعد انتهاء الدنيا، فهو آخر الأيام على الإطلاق، لأنه يأتي متأخراً عن الدنيا.

٢ ـ **ويُسمَّى يومُ القيامة (يومَ الفصل)** لأن اللّه يفصل فيه بين العباد، فيثيب المؤمنَ المطيع، ويجازيه على عمله بدار النعيم، ويعاقب الكافر الفاجر، فيدخله نارَ الجحيم، ويفصل فيه بين الخلائق بحكمه العادل، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتٗا ۝ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ [النبأ: ١٧، ١٨].

٣ ـ **ويُسمَّى (اليوم المشهود)** لأنه يوم اجتماع جميع الخلائق، يشهده الأوَّلون والآخرون، الأبرار والفجار، والمؤمنون والكفار، ويلتقي فيه أهل السماء، بأهل الأرض.

قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ۞ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ۞ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٥].

والمراد أن ذلك اليومَ يومٌ عصيبٌ ورهيب، لا يتكلَّمُ فيه أحد إلَّا بإذن اللّه تعالى، لا مَلِك ولا عظيم، الكلُّ قد خضع لجلال اللّه وعظمته، فمنهم الشقيُّ، ومنهم السعيد ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

٤ ـ **ويُسمَّى يومَ (العدل الإلٰهي)** لأن كلَّ إنسان ينال جزاءه، بمنتهى الدقة والعدالة، كما قال اللّه سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

لماذا سُمِّيَ يوم التَّلاق؟

٥ ـ **ويُسمَّى (يوم التَّلاق)** لأنه فيه يلتقي المؤمنون والكفار، والأبرار والفجار، والناسُ في ذلك اليوم، يكونون بارزين أمام الأنظار، لا شيء يسترهم من حجاب أو بناء، الكلُّ أمام ملك الملوك الواحد القهار.

قال اللّه تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۞ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦]

سُمِّي (يوم التَّلاق) لأن فيه يتلاقى الخلائق في صعيدٍ واحد، الظالم والمظلوم، والحاكمُ والمحكوم، والقاتلُ والمقتول، وينادي فيه ربُّ العزَّة والجلال: لمن المُلْكُ اليوم؟

وتسكت الملائكة والخلائق، هيبةً للّه وفزعاً، فيجيب تعالى نفسَه بنفسِه ويقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي الذي قَهَر كلَّ عظيم وكبير.

قال الحسن البصري: هو تعالى السائل، وهو المجيب، لأنه يقول ذلك يومَ لا يستطيع أحدٌ الجواب ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

روى مسلم في صحيحه عن رسول اللّه أنه قال:

(يطوي اللّه السمواتِ والأرضَ بيمينه، ثم يقول: أنا الملِكُ، أنا الجبَّار،

أنا المتكبِّر، أين ملوكُ الأرض؟ أين الجبَّارون؟ أين المتكبِّرون؟[(١)]).

لماذا سُمِّي يوم الحسرة؟

٦ ـ **ويُسمَّى يوم القيامة (يوم الحسرة)** لأن فيه يتحسر الكافر والفاجر، على ما صنع في الدنيا من الكفر والأعمال القبيحة، وهو اليوم الذي يُذْبحُ فيه الموتُ، فلا موتَ بعده، ويُخلَّد فيه الإنسان في النعيم أو الجحيم، وتعظُمُ فيه الحسرةُ على الكفار والفُجار.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال: (يُؤْتى بالموت كهيئة كبش أملح ـ أي فيه بياض وسواد ـ فينادي منادٍ: يا أهل الجنة! فيشرئبُّون ـ أي يمدُّون أعناقهم ـ وينظرون، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ وكلُّهم قد رآه!!

ثم ينادي منادٍ: يا أهل النَّار، فيشرئبُّون وينظرون، فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموتُ، وكلُّهم قدر رآه.!

فيُذبح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وأشار ﷺ بيده إلى الدنيا)[(٢)].

لماذا سُمِّي يوم التغابن؟

٧ ـ **ويُسمَّى أيضاً (يوم التغابن)** لأنه اليوم الذي يظهر فيه غَبْنُ الكافر وخسارتُه، بتركه الإيمان وإغراقه في العصيان، قال اللّه تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ . . .﴾ [التغابن: ٩].

والغبنُ في اللغة: النقصُ والخسران، يُقال غَبَنه إذا هَضَمه حقَّه، كمن يشتري من مغفَّل دُرةً بمائة درهم، ثمنُها عشرةُ آلاف درهم.!

٨ ـ **ويُسمَّى يوم القيامة (يوم الدِّين)** ومعنى الدِّين: الحسابُ والجزاء، وهو اليوم الذي يحاسبُ فيه الإنسانُ على عمله الذي اقترفه في الدنيا، قال اللّه

---

(١) الحديث رواه مسلم رقم (٢٧٨٦) في صفة القيامة، والترمذي رقم (٣٢٣٩) في التفسير.

(٢) أخرجه البخاري ٨/ ٣٢٥ في التفسير ومسلم رقم (٢٨٥٠) كتاب الجنة والنار.

تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الإنفطار: ١٧ ـ ١٩].

وقال سبحانه في قصة إبراهيم: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

۞ ۞ ۞

ما معنى البعث والنشور

عبارةُ (البعثِ) تشير إلى إخراج الناس من قبورهم.

وعبارةُ (النشور): تعني إحياءهم بعد الموت، فاللَّهُ تبارك وتعالى، بعد فناء الناس، يخرجهم من قبورهم، ويعيد لهم الحياة مرةً أخرى، للحساب والجزاء.

وهذا أمرٌ مقطوع به، جاءت به الرسالاتُ السماوية، ونَطَق به الذِّكرُ الحكيم، فما خلا دين من الأديان، عن الإخبار عن (الحياة الأخروية) التي هي مصير البشر، ومستقرُّهم الذي ينتهون إليه.

قال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والمعنى: ليست هذه الدنيا دائمة خالدة، بل هي ظل زائل، ومتاع فانٍ، وما فيها من شهوات وملذَّات، يشبه لعب الأطفال والصبيان، ولا ينخدع بالدنيا إلَّا السفيهُ الجاهل، والدارُ الآخرة وما فيها من النعيم الدائم الخالد، هي الحياة الحقيقية السعيدة لمن أراد الراحة والسعادة، وأما أحسنَ ما قاله القائل:

تَأَمَّلْ في الوُجُودِ بِعَيْنِ فِكْرٍ تَرَى الدُّنْيا الدَنِيئَةَ كَالخَيَالِ
وَمَنْ فِيهَا جَمِيعَاً سَوْفَ يَفْنَى وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ

عقيدة البعث من أهم أركان الإيمان

إن موضوع الاعتقاد (بالبعث بعد الموت)، ركن أصيل في عقيدة المسلم، وهو من أهمِّ أركان الإيمان، بعد الاعتقاد بوجود اللَّه ووحدانيته، ولهذا تكرَّرَ ذكره في القرآن، بأساليبَ متنوعة، وحجج متعددة، البرهان تلو البرهان، والحجة تلو الحجة، لأن في إنكاره تضييعاً للمسؤولية، وإهداراً للحكمة الإلٰهية من خلق الإنسان.

اقرأ قول اللّه عزَّ وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وكأنه يقول: هل تظنون أنَّنا خلقناكم لمجرد اللهو واللعب؟ من غير حكمة؟ هل خلقناكم كما نخلق البهائم؟ تعيشون لملئ البطون، ونيل اللذائذ والشهوات؟ تقدَّس اللّه وتنزَّه عن العبث واللهو، لأنه حكيم، فلا بدَّ من العودة إليه، لنيل جزاءكم العادل.!

القَسَمُ بجلال اللَّه وعظمته على البعث

لقد أمرَ اللَّهُ رسولَه ﷺ، أن يُقسم للمشركين وللبشر جميعاً، بعظمة اللَّه وجلاله، على (أمر البعث)، وأنه كائن لا محالة في آيات ثلاث من كتابه العزيز، لأهمية الموضوع الذي أنكروه، وتقرير عقيدة البعث والنشور، لأن القَسَم بجلال اللَّه وعظمته، لا يكون إلَّا في أمر عظيم وخطير!!

الآية الأولى

أمَّا الآية الأولى: فقول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

الزَّعمُ: القولُ بالظن من غير تحقيق ولا تثبُّت، ولهذا قال العرب في أمثالهم: (زعموا مطيَّةُ الكذب) أي هي مَرْكَبُ كلِّ مفترٍ كاذب..

أي ظنَّ المشركون المنكرون للبعث، أنهم لن يُبعثوا بعد الموت، قل لهم يا محمد: أُقسِمُ لكم بربِّي، وبعظمته وجلاله، أنكم ستبعثون، وتخرجون من قبوركم أحياء، للحساب والجزاء، وستنالون جزاء أعمالكم القبيحة.!

الآية الثانية

أمَّا الآية الثانية: فقولُ اللَّهِ تقدست أسماؤه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٣].

هذه كسابقتها قَسَمٌ بجلال اللَّه وعظمته، أي قل يا أيها الرسول لهؤلاء الكفار الفجار، القائلين لا بعث بعد موتنا ولا نشور، ولا حساب ولا جزاء، قل لهم: أقسمُ لكم بربي وبجلاله وعظمته، ستبعثون لا محالة، ويأتيكم وعد اللَّه المحتوم بمجيء القيامة، لأنها وعدُ اللَّه الذي لا يُخلف، لتحقيق العدل الإلٰهي في حساب البشر.

الآية الثالثة

أمَّا الآية الثالثة: فقولُ ربِّ العزة والجلال: ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣].

أي يستخبرونك يا محمد ويسألونك: أحقٌّ ما وعدتنا به من أمر البعث بعد الفناء؟ وأمر الحساب والجزاء!؟ فقل لهم: نَعَم، وأقسمُ لكم بربي الذي أرسلني إليكم، إنه لحقٌّ كائن، لا شكَّ فيه، ولستم معجزين ربكم، أن يعيدكم بعد موتكم إلى الحياة مرة أخرى، لأنكم في قبضته وسلطانه.!

آيات ثلاث تؤكِّد أمر البعث ومجيء الآخرة، وأنَّها حقٌّ لا شك فيه، والقَسَمُ بجلال اللَّه وعظمته وسلطانه، دليلٌ ساطع على أن الأمر جِدٌّ خطير، فإن إنكار البعث، اتهامٌ للَّه جلَّ وعلا بعدم الحكمة والتدبير، لأنَّ خلْقَ شيءٍ، لغير غاية ومصلحة، عبثٌ وسَفَه، يتنزَّه عنه ربُّ العزة والجلال.

إنكار المشركين للبعث

لقد أنكر المشركون البعث والنشور، وكذَّبوا بالمعاد بعد فناء الأجسام، بل استبعدوا على قدرة اللَّه، أن يبعثهم بعد الموت، بعد أن تصبح عظامهم نَخِرةً، وتنقلب أجسادهم إلى ترابٍ ورفات ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ [الإسراء: ٤].

أي هل إذا أصبحنا عظاماً بالية، وذراتٍ متفتتة، مختلطةً بتراب الأرض، هل سنُخلق خلقاً جديداً، بعد أن نفنى ونبلى؟

هل يستطيع اللَّه أن يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى؟ أهذا شيء مقبول؟ أو معقول؟

التهديد والوعيد لمنكري البعث

وجاءهم الجوابُ سريعاً، حاسماً، قاطعاً:

﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٠ ـ ٥٢].

أي قل لهم يا أيها الرسول: لو كنتم من حجارة صمَّاء، أو من حديدٍ صَلْد، أو من مادة أقسى وأصلبَ من الحديد، لأعادكم اللَّه إلى الحياة مرة أخرى، فإنَّ الذي خلقكم من العدم، لا يصعب عليه أن يعيدكم للحياة مرة أخرى، لأن الإعادة ـ بمنطق العقل ـ أسهلُ من البدء!! ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾!! [الروم: ٢٧].

وقولُه سبحانه: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي يهزُّونها سخريةً واستهزاء، ويقولون متى سيكون هذا البعث والإحياء؟ قل لهم: لعلَّ وقته

يكون قريباً!! فإنه يوم (الحشر الأكبر)، الذي يجتمع فيه الخلائق، للحساب والجزاء.

هذا الإنكار من المشركين ليوم البعث والنشور، دليلُ الغباء، وقلَّة الفهم والإدراك، فإنهم لو فكَّروا بعقولهم: أين كانوا قبل أن يُخلقوا؟ ومن الذي أوجدهم من العدم؟ أليس هو اللَّه ربُّ العالمين؟ فكيف ينكرون قدرته على إعادتهم؟ وكيف يكذِّبون بيوم الحساب والجزاء!؟

وبمنطق العقل السليم، فإنَّ (الإعادةَ أسهلُ من البدء) إنَّ المخترع للسيارة أو للطائرة، يستطيع أن يعيدها مرة ثانية، إذا تفككت أجزاؤها وتبعثرت قطعها!! أفيعجز الذي أوجد الإنسان من العدم، أن يعيده إلى الحياة بعد موته وفنائه!؟

المنكرون للبعث بعد الموت

قصة (أُبيِّ بنِ خَلَف) مع الرسول ﷺ

روى الحاكم وابن جرير الطبري (أنَّ أحد زعماء الكفر، وطغاة قريش (أُبيَّ بنِ خَلَف) قال لقومه يوماً: أَلَا ترون إلى ما يقول محمد؟ يزعم أن اللَّه يبعث الأموات، ويحييهم بعد أن يصبحوا ذرَّاتٍ ورُفاتاً!!

واللَّاتِ والعُزَّى، لأذهبنَّ إليه ولأخصمنَّه ـ أي أقيم عليه الحجة على كذب دعواه ـ!!

فجاء إلى النبيِّ ﷺ بعظم بالٍ متفتِّتٍ، فجعل يفتُّه بيده، ويقول يا محمد: أتزعم أن اللَّه يحيينا بعد أن نموت؟ ونصبح رُفاتاً مثلَ هذا العظم النَّخِر؟ وفتَّ العظْمَ بين يدي رسول اللَّه ﷺ، فجعل يتناثر ذراتٍ، وجعل الخبيثُ يسخر ويهزأ!!

فقال له عليه الصلاة والسلام: نعم، يميتُك اللَّهُ، ثم يُحييك، ثم يدخلك نار جهنم(١)!

(١) انظر كتابنا (التفسير الواضح الميسر) ص٤٦٨.

وفيه نزلت هذه الآيات الكريمة:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٨٣].

تفسيرُ الآيات الكريمة

ومعنى الآيات الكريمة: أولم ينظر هذا المنكر للبعث، أنَّا خلقناه من شيء حقيرٍ مهين، هو النُّطفةُ ـ المنيُّ ـ الخارج من مخرج النجاسة!؟ فإذا هو شديد الخصومة والجدال لربه، يقول: أيستطيع اللّهُ أن يعيد هذه العظام البالية إلى الحياة، فيخلق منها إنساناً؟

إنَّه ينكر قدرة اللّه، ويكذّب بالبعث بعد الموت، أفليس الذي قدر على خلقه من نطفة، بقادرٍ على أن يعيده للحياة مرة أخرى!؟

وضرب لنا المثل بالعظم البالي الرميم، ونسي أنَّا خلقناه من نطفة مهينةٍ، فأوجدناه إنساناً بعد العدم.! نسيَ خلقه العجيب، وأخذ يجادل ربه بالباطل ويقول: من يحيي هذه العظام، وهي باليةٌ أشدَّ البِلى؟ وهي ذرات متفتتة متلاشية، لا جلد لها، ولا لحم، ولا عَصَب؟

قل يا محمد لهذا المنكر الجاحد: الأمرُ يسير، يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم أول مرة، وأبدع خلقها وتكوينها، فالقادر على البَدَاءة، قادر على الإعادة.!

أليس هذا الخالق العظيم، المبدع للمخلوقات، الذي خلق السموات وما فيها من نجوم، وشمس، وقمر، وخلق الأرض وما فيها من بحار وأنهار، وجبال وأشجار، بقادر على أن يعيد البشر بعد موتهم وفنائهم؟ بلى إنه هو الخلَّاق، العليمُ بكل المخلوقات، الذي يقول للشيء: كن فيكون.!

هذا هو البرهان الساطع، على إمكان البعث والنشور، يذكره القرآن للغافلين عن الخلق الأول، الذين لا يفكّرون في قدرة اللَّه وعظمته، فيضربون للَّه تعالى هذه الأمثال السخيفة، ويقولون: كيف يعيدنا اللَّه للحياة؟ بعد أن نصبح ذراتٍ مختلطة بتراب الأرض؟ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾؟ [مريم: ٦٦، ٦٧].

وهذا الإنكار منشؤه غفلةُ الإنسان عن نشأته الأولى، أين كان؟ وكيف خُلق من ماء مهين؟ ولو عَقَل وفكَّر وتدبَّرْ، لَعَرفَ أن الأمر أيسرُ ممَّا يتصوَّر، فالقادر على البدء، قادر على الإعادة!!

❁ ❁ ❁

قصة غريبة رواها البخاري في صحيحه

من عجائب وغرائب (القَصَص النبويِّ) التي رُويت لنا في الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ هذه القصة العجيبة: (أن رجلاً من الأمم السابقة، كان قد أسرف على نفسه في العصيان، كان مؤمناً باللَّه، ولكنه كثير الذنوب والمعاصي، فلمَّا دنت وفاتُه، جَمَع أبناءه ـ وكانوا جميعاً شباباً في ريعان الشباب ـ

فقال لهم: ألستم أبنائي؟ ألستُ قد أحسنتُ إليكم، وأنفقتُ عليكم حتى صرتم شباباً أقوياء؟ قالوا: بلى، قالَ: فأيَّ أبٍ كنت لكم؟ ـ أي كيف تعتقدون في أبيكم، وفي إحسانه إليكم ـ؟ قالوا: واللَّه لقد كنتَ لنا خيرَ أبٍ، أكرمتنا، وعلّمتنا، وأحسنت تربيتنا، وما تركتَ طريقاً إلى سعادتنا ونعيمنا إلَّا أمَّنته لنا!! وأثنوا عليه خيراً. !

وصيَّةُ الأب لأولاده

فقال لهم يا أبنائي: إني لم أدَّخر عند اللَّه حسنة واحدة، وأخشى أن يعذِّبني اللَّه عذاباً شديداً، لا يعذِّبه أحداً من العالمين!! لذلك أوصيكم بهذه الوصية، وأطلب منكم أن تنفِّذوها كاملة، ولا تتهاونوا في أمرها. !

إذا أنا مِتُّ، فخذوا جُثَّتي فاحرقوها، حتى تصبح كالفحم الأسود، ثم خذوها فاسحقوها سحقاً دقيقاً، حتى تصبح ذراتٍ ناعمة، ثم انتظروا يوماً شديد الرياح والعواصف، فخذوا نصف هذه الذرَّات المتجمِّعة بعد الحرق، فألقوها في البَرِّ، لتتطاير مع الرياح العاصفة، وخذوا النصفَ الثاني، فألقوه في البحر، ليمتزج بمياه البحار الواسعة. !

فواللَّهِ لئن قَدَر اللَّهُ عليَّ، ليعذبَنِّي عذاباً لا يعذِّبه أحداً من العالمين. !

يقول عليه الصَّلاة والسَّلام: فما لبث أن مات الرجل، ففعل أبناؤه ما

أوصاهم به أبوهم، أخذوا الجثة فأحرقوها حرقاً شديداً، حتى لم يبق فيها جلدٌ ولا لحم، وأصبحت كالفحم، ثم سحقوا الجثة المحروقة، حتى أصبحت كالتراب الأملس الناعم، ثم قسموها قسمين: فرموا بالنصف منها في مياه البحر، وانتظروا حتى هبَّت عواصف شديدة، في يوم كثير الرياح والعواصف، فألقوا بالنصف الآخر في البرِّ، فتطاير هباءً مع العواصف، ورجعوا إلى بيوتهم، بعد أن نفَّذوا وصية أبيهم.!

قال عليه الصلاة والسلام: فأمر اللَّهُ البرَّ فَجَمَعَ ما فيه، وأمر البحرَ فَجَمَع ما فيه ـ يعني من الذرات المتناثرة من جسد ذلك الرجل ـ ثم قال له: كُنْ عبداً، فإذا هو عبدٌ كاملُ الخلق، واقف بين يديْ ربِّ العزة والجلال!

فقال له اللَّهُ عزَّ وجلَّ: **ما حَمَلَك على ما صنعتَ؟ أتظن أنك تخلص مني، وتنجو من عذابي بهذا الصنيع؟!**

فقال العبدُ: يا ربِّ، ما حملني على ذلك، إلَّا مخافتُكَ ـ أي الخوف منك ـ فعفا اللَّه عنه، وغفر له زلَّته، وأكرمه بالمغفرة والرضوان)[(١)].

سبب المغفرة إيمانُه وخوفُه من اللَّه

يقول المحدِّثون: إن اللَّه تعالى تجاوَزَ عن سيئاته لإيمانه، لأنه كان شديدَ الخوف من اللَّه، ولو لم يكن مؤمناً باللَّه، لَمَا دفَعَه أن يوصي أبناءه بتلك الوصية، لأن الكافر لا يُصدِّق بلقاء اللَّه، فلا يخطر على باله، أن يفعل ما فَعَل الرجل، الذي اشتدَّ خوفه من اللَّه، حتى ظنَّ أنه بهذه الطريقة، يتخلَّص من العذاب.

واللَّهُ تعالى غفور رحيم، يغفر للإنسان كل ذنب، إلَّا الإشراك باللَّه، فلا عجب أن يغفر اللَّه له تلك الزلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

(١) ذكرنا هذه القصة بالمعنى، وأصلُ هذه القصة حديث شريف رواه الإمام البخاري في صحيحه.

هذا الحديثُ الشريفُ ذكرناه بالمعنى، وهو دليلٌ على سعة رحمة اللَّه تعالى، لمن مات على الإيمان، مهما كثرت ذنوبه وعَظُمت خطاياه، حتى لا ييأس أحد من العصاة، من رحمة اللَّه تعالى ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ... ﴾ [الزمر: ٥٣].

۞۞۞

لماذا ينكر الكافر الآخرة؟

إنكارُ الكافر للآخرة، ليس ناشئاً عن حجةٍ عقلية يقتنع بها، إنَّما الدافع له هو الطغيانُ والفجور، لأن الذي يميل طبعُه إلى الفسوق والفجور، لا يكاد يقرُّ بالبعث والنشور، لأن ذلك يُنغِّصُ عليه حياتَه، ويفسد مُتْعَته بالاسترسال في اللذائذ والشهوات، فهو لذلك ينكر الآخرة، ولا يُصدِّق بالبعث، حتى يستمرَّ على فسقه وفجوره، وشهواته البهيمية!!

وهذا ما نبَّهنا عليه القرآنُ الكريم، في آياته البينات، حيث يقول جلَّ ثناؤه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟ [القيامة: ٣ ـ ٦].

المرادُ بالإنسان هنا: الكافرُ الفاجر، أي لا يريد الإنسان بهذا الإنكار للآخرة، إلَّا أن يستمرَّ على فجوره، ويُقدم على فعل المنكرات والآثام، دون وازعٍ من ضميرٍ أو دين، لينطلق كالحيوان، ليس له همٌّ إلا نيل شهواته البهيمية، والاسترسال في الشهوات والملذَّات، فهو لذلك ينكر الآخرة، لأن الإيمان بالآخرة والحساب والجزاء، لِجَامٌ للنفس الشرِّيرة الراغبة في الفجور، فهو يحاول أن يُزيح هذا اللِّجام، ويزيل تلك العَقَبة، لينطلق كالحيوان بلا قيود ولا حدود، ولا تفكير في المصير الذي يؤول إليه، وصدق اللَّه حيث يقول عن الكفار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

لماذا يؤكِّد القرآن على موضوع البعث؟

لقد أكَّد القرآنُ على هذا الموضوع الخطير، وكرَّر ذكره بأساليبَ متعددة، وأقام الحججَ والبراهينَ، على مجيء البعث، لأن في إنكاره تضييعاً للمسؤولية، وإهداراً للحكمة من خلق البشر.

إذ يصبح الناس كالوحوش الضارية، يستبدُّ القويُّ بالضعيف، ويبطش الطاغيةُ بالعاجز، ويأكل الغنيُّ الفقير، ويظهر الطغيان، ويزول الأمان.!

وفي الإيمان بالبعث والنشور، يستقيم سلوكُ الإنسان، لأنه يؤمن بلقاء ربه، والحساب يوم الجزاء، فلا يسير مع الشهوات والأهواء، ولا ينفلتُ كالحيوان، بلا وازع ولا ضابط، بل يزن كلَّ أموره، بميزان العقل والشرع، فيستقيم سلوكُه، وتتهذَّب نفسُه، وتنضبطُ أخلاقُه وأهواؤه.!

هل حَدَثَ الإحياءُ للموتى في الدنيا؟

لقد حدث (إحياءُ الموتى) في هذه الدنيا قبل الآخرة، كمظهرٍ من مظاهر قدرة اللَّه تعالى، وإثباتاً لعقيدة (البعث والنشور) فقد أحيا اللَّهُ جلَّ جلاله الموتى، في خمسة مواطنَ متعددة، وهي جميعها ناطقة وشاهدة على أن اللَّه يبعث من في القبور، وهي براهينُ ساطعة على عقيدة (البعث والنشور).!

الموطن الأول

الموطن الأول: قِصَّةُ الرجل المقتول من بني إسرائيل، الذي لم يُعرف قاتلُه، أحياه اللَّه تعالى بعد أن ضربوه بجزءٍ من البقرة، فقام حياً وأخبر عن قاتله.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

وخلاصةُ القصة (أن رجلاً من بني إسرائيل، كان له ابن عمٍّ غني، لم يكن له وارث من أبناء أو بنات، سوى ابنِ عمه، وأراد أن يتعجَّل بقتله ليرثَ ماله، فاستدرجه إلى مكانٍ خارجَ البلدة، وأقدم على قتله، ثم حَمَل جثته ليلاً، فرماها بين أهلِ قريتين، ثم جاء في الصباح، يطالب بالقصاص من القاتل، أو دفع دية ابن عمه، وكادت تحدثُ حربٌ بين أهل القريتين، ثم قالوا: نرجع إلى نبيِّ اللَّه (موسى) لعلَّ اللَّه يوحي إليه، ويخبرنا عن القاتل! فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ...﴾ [البقرة: ٦٧] وأمَرهم موسى أن يأخذوا جزءً منها، ويضربوا به القتيل، فيحييه اللَّه تعالى ويخبركم عن قاتله! ففعلوا ذلك، فأحياه اللَّه، وأخبرهم أن ابن عمِّه هو الذي قتَلَه، وانكشف أمرُ

القاتلِ، فحُرِم المجرمُ من الميراث، وأمر موسى عليه السلام بقتله قصاصاً، وقد ذكر تعالى هذه القصة في كتابه العزيز، لتكون دلالته ساطعة، على إحياء اللَّه الموتى بعد موتهم.

الموطن الثاني

الموطن الثاني: قِصَّةُ الجهلاء المعاندين من بني إسرائيل، الذين طلبوا رؤيةَ اللَّه عزَّ وجلَّ، جهرةً وعَيَاناً، حتى يؤمنوا برسالة موسى، فأماتهم اللَّهُ ثم أحياهم بعد الموت، وكان ذلك بمرأى من بني إسرائيل.

وإلى ذلك تشير الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۞ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦]. فقد أحياهم اللَّه تعالى بعد موتهم، أمام الأنظار والأبصار.

الموطن الثالث

الموطن الثالث: قصَّةُ القوم الذين خرجوا من ديارهم، فراراً من الموت، بعد أن دعاهم نبيُّهم إلى الجهاد، فلم يطيعوا أمره، وهربوا خوفاً على أنفسهم من الموت، فأماتهم اللَّه ثمانية أيام ثم أحياهم.

وفيهم يقول رب العزة والجلال:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

الموطن الرابع

الموطن الرابع: قصَّةُ الرجل الصالح «عُزير» الذي مرَّ على بلدة (بيت المقدس) بعد أن دمَّرها الطاغية الجبَّار «بختنصَّر» فوقف يتعجب من قدرة اللَّه عزَّ وجلَّ، كيف يُحيي اللَّهُ البلاد، بعد فناء أهلها، ويعيدها على حالها؟ فأماته اللَّه مائة سَنَة مع حماره، ثم بَعَثه، ليريه كمالَ قدرته على إحياء الموتى.!

وفي ذلك يقول عزَّ شأنه: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ

أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الموطن الخامس

الموطن الخامس: قِصَّةُ (إبراهيمَ عليه السلام) خليل الرحمن مع الطيور الأربعة المذبوحة، وإلى ذلك الإشارة في قوله اللَّه عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

لم يكن سؤالُ إبراهيمَ عن شكّ في قدرة اللَّه، فلم يقل: هل تقدر على إحياء الموتى؟ وإنما قال: ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فهو سؤالُ مؤمنٍ مصدِّق بقدرة اللَّه عزَّ وجلَّ، يريد أن يرى كيفيَّةَ الإحياء، ليزداد إيماناً فوقَ إيمانه، فقال له ربُّ العزة والجلال: خذ يا إبراهيم أربعةَ طيور، مختلفةَ الألوان والخِلْقة، ثم ضُمَّهنَّ إليك، واذبحهنَّ وقطعهنَّ، ثم اخلط لحومهنَّ وعظامهنَّ، حتى يختلط بعضُهُنَّ ببعض، ثم اجعلْ على كلِّ جبل، قطعةً من هذه اللحوم المختلطة، ثم ادعهنَّ إليك يأتينك مسرعات، ففعل إبراهيم ذلك، فأحياهنَّ اللَّه له، وهو يرى ذلك بعينه.!

قال مجاهد: أخذ إبراهيم عليه السلام (طاووساً، وديكاً، وحمامةً، وغراباً) فذبحهنَّ وخلطهنَّ، ووزَّعهُنَّ على رؤوس الجبال، ثم ناداهنَّ بقوله: تعالَيْن إليَّ بإذن اللَّهِ تعالى!!

فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، واللحم يطير إلى اللحم، حتى عادت طيوراً كما كانت[١].

---

(١) انظر التفسير الواضح الميسَّر للصابوني ص٩٩ وتفسير ابن كثير ١/ ٢٧٧.

أحداثٌ وقعتْ قصَّها علينا القرآنُ

وإذا كان هذا البعث للأموات قد وقع في الدنيا، فكيف ينكر الجاحدون للبعث، قدرة اللَّه تعالى على إعادة الناس للحياة، بعد موتهم وفنائهم؟ وصدق اللَّه العظيم حيث يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

أليس في هذا ما يثير انتباه العقلاء، إلى التفكير في قدرة اللَّه عزَّ وجلَّ بإحيائهم، بعد أن كانوا في العدم، ثم تقلَّبوا في هذه الأطوار والأدوار، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، ثم تتطور هذه «المضغة» القطعة من اللحم، حتى تصبح مستبينةَ الخلق، فيظهر فيها بعضُ الأعضاء، كالرأس، واليد، والرجل، ثم تُنْفخ فيها الروح، فإذا بالجماد المتكوّن من اللحم، والعظم، والجلد، والشعر، يصبح إنساناً سوياً، مُبْصراً متكلماً!!

فالذي أنشأه في هذه الأدوار، قادرٌ على أن يعيد إليه الحياة مرة أخرى، كما ابتدأ خلقه بهذه الصورة.!

ولذلك ختم تعالى الآية بهذه اللفتة البديعة ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾.

إحياءُ الأرض بالنبات برهانٌ على البعث

روى الإمام أحمد في المسند عن أبي رُزَين العقيلي أنه سأل النبيَّ ﷺ فقال: (يا رسول اللَّه: كيف يحيي اللَّه الموتى؟ وما آية ـ أي علامةُ ـ ذلك في خلقه)!؟

فقال له ﷺ: أَمَا مَرَرْتَ بوادي أهلك مُمْحِلاً ـ أي مُجْدِباً ـ؟ قلت: بلى يا رسول اللَّه!

فقال لي: ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِراً؟ ـ أي أصبح الوادي المجدب أرضاً حيَّةً مكسوَّةً بخضرة الزرع ـ قلت: بلى يا رسول اللَّه!!

فقال لي: فكذلك يحيي اللَّهُ الموتى، وذلك آيتُه في خلقه)[1].

إنَّ العينَ لترى عجائبَ صنع اللَّه، فيما أَوْجدَ وأَبْدعَ في هذا الكون، ولكنَّ القلب يعمى أحياناً، عن رؤية آثار هذا الخلق البديع، فيجادل ويناقش في قدرة اللَّه، ويُنكر إعادَة خلق الإنسان، مع أن وجُودَه بنفسه، أعظمُ برهان على عظمة اللَّه، وقدرته على الإحياء بعد الإفناء، ولكنْ كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند ٤/ ١١.

حديث قدسي حول إحياء الميِّت

الرسولُ ﷺ يخبر عن ربه

رُوي أن النبيَّ ﷺ كان جالساً ذات يوم مع أصحابه، فبصَقَ في كفِّه الشريف ـ من ريقه ـ ثم وَضَعَ أصبعَهُ عليه، ثم قال: (يقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ ـ يعني في الحديث القدسي ـ ابنَ آدمَ، أنَّىٰ تعجزني وقد خلقتُك من مثلِ هذه؟ ـ أي كيف أعجز عن إعادتك إلى الحياة، وأنا الذي خلقتُك من الماء المهين؟ حتى إذا سوَّيتُكَ وعدلتُكَ، مشيتَ بين بُرديك، وللأرض منك وئيدٌ ـ أي صوتُ ثِقَل من المشي عليها ـ فجمعتَ ومنعتَ ـ أي جمعتَ المال وكنزتَه وحرمتَ منه الفقير ـ حتى إذا بلغت التراقي ـ أي وصلت الروحُ إلى الحلقوم وأشرفتَ على الموت ـ قلتَ: أتصدَّقُ، وأنَّى أوانُ الصَّدقة)[(١)]؟

الإنسانُ يحيا كلَّ يوم ويموت

لو فكَّر الإنسان في نفسه، لعرف أنَّه كلَّ يوم يموت ثم يحيا!!

هذا مثلٌ واضح يعرفه كلُّ إنسان، ولكنه لا يتدبَّر الرمز الذي يشير إليه، لاستغراقه في الغفلة، فقد جعل اللَّه (النوم) نموذجاً للبعث والنشور، ومثالاً للحياة بعد الموت، فإنَّ النائمَ كالميِّتِ، لا يحسُّ ولا يُبصر، ولا يشعر بما حوله، فهو كالميت في زوال الإحساس والتمييز!!

ولهذا عبَّر القرآن الكريم عن النوم بالوفاة، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠].

إنَّ النَّوْمَ أخو الموت وشَبِيهُه، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في المسند، وابن ماجه في سننه.

مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

أي يتوفاكم بالليل (الوفاة الصغرى) ويجعل أرواحكم في قبضته تعالى، ويعلم ما كسبتم من الأعمال في النهار، من طاعات أو سيئات، ثم يوقظكم في النهار، لتبلغوا كامل أجلكم، وهو وقتُ انتهاء أعماركم، وهو (الوفاةُ الكبرى) ثم مرجعكم إليه يوم القيامة، فيجازيكم على أعمالكم التي اكتسبتموها، من خيرٍ أو شرّ، وحَسَن وقبيح!!

النَّومُ للإنسان وفاةٌ صغرى

سمَّى تعالى النوم وفاةً، لتشبيه النائم بالميت، فالنومُ (وفاةٌ صغرى) أمَّا (الوفاة الكبرى) فهي عند مفارقة الروح للجسد، ولهذا كان النبي ﷺ إذا استيقظ من النوم يقول: (الحمد للَّه الذي أحيانا بعدما أماتَنَا وإليه النشور)[(١)].

فكما ينام الإنسان، ثم يصحو من النوم، كذلك يموت الإنسان، ثم يحييه اللَّه ويبعثه!

وقد جاء في بعض خُطَب الرسول ﷺ، أنه كان يقول: (والذي نفسي بيده، لتموتُنَّ كما تنامون، ولتبعثُنَّ كما تستيقظون، وَلَتُجزونَّ بالحسنة إحساناً، وإنها لجنَّةٌ أبداً، أو لنارٌ أبداً) أو كما قال ﷺ.

تشبيه رائع للبعث (بالأرض الميتة)

وكثيراً ما يشبِّه القرآن الكريمُ، البعثَ (بعد الموت)، بالأرض القاحلة الجرداء، ينزل عليها المطر من السماء، فتحيا الأرضُ، وتحيا الأشجارُ والأثمارُ، بعد أن كانت يابسة ميتة، مجرَّدة من كل ما يشير إلى الحياة، من خضرةٍ، وزرعٍ، وثمر!!

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه ١١/٩٦ في الدعوات، ولفظُه (أن رسولَ اللَّه ﷺ كان إذا أَوَىٰ إلى فراشه ـ أي اضطجع على الفراش ـ قال: باسمكَ اللهمَّ أحيا وأموتُ، وإذا استيقظ قال: الحمدُ للَّهِ الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) أي إليه سبحانه المرجعُ والمصيرُ بعد الموت.

اقرأ قول اللَّه جلَّ ثناؤه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

انظر إلى هذا التصوير الفنيِّ الرائع البديع، فقد صوَّر القرآنُ الأرضَ اليابسة الجرداء، قبل أن ينزل عليها الماء، بصورة رائعة تفوق الخيال في روعة الجمال!!

صورةِ الرجلِ البائس المسكين، الذي جَلَس على قارعة الطريق، يستجدي إحسانَ المحسنين ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي ومن دلائل قدرته ووحدانيته، أنك ترى الأرض جرداءَ قاحلة، تشبه الرجل الذليل المسكين، المنتظر للعطف والإحسان.

استعار لفظ (الخشوع) للذلَّة والحاجة والمسكنة، التي تكون عليها الأرض، وهي تنتظر رحمة السماء، لإنقاذها من الموت والدمار ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي فإذا نزل عليها المطر، دبَّت فيها الحياةُ، فأخرجت العُشبَ والزرعَ والثمر!!

التعبيرُ القرآنيُّ المبدِع

تأمَّلْ معي التعبيرَ المبدعَ في لفظ (الخشوع، والاهتزاز، والنُموِّ) لهذه الأرض الميتةِ الجرداء، كيف تصبح بعد نزول الماء عليها، كأنَّها عروسٌ فاتنة، تزيَّنتْ بأبهى حُلَل الزينة والجمال، وهي تَميسُ طَرَباً، وتختالُ عُجْباً!!

ثم جاء التمثيل لإحياء الأموات، بالأرض التي أحياها اللَّه بنزول المطر ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالذي أحيا الأرض بعد جَدْبها، يُحْيي الموتى بعد فنائهم وموتهم.!

إنَّه التمثيلُ الساطع، والبرهانُ القاطع، على قدرة اللَّه جلَّ جلالُه، على بعث الناس بعد موتهم، بطريق (القياس الواضح)، الذي يقبله العقلُ، والمنطقُ السليم.

إقامة البراهين على البعث بعد الموت

وانظر إلى القرآن، وهو في مَعْمعان إقامة الدليل العقلي، على البعث والنشور، وفي مواجهة المنكرين المكذبين له، كيف يسوق دليله سوقاً يهزُّ القلوب هزًّا، ويُمْتِع العاطفةَ إمتاعاً، بما جاء في طيٍّ هذه الأدلة المسكتة المقنعة، إذ يقول سبحانه في سورة «ق»:

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ ـ ١١] أي كذلك نخرجكم أحياءً من قبوركم، بعد موتكم وفنائكم، كما نحيي الأرض المجدبة، بالماء الهاطل من السماء.!

يا لَلْجمال السَّاحر!! ويَا لَلْإعجاز الباهر!! الذي يستقبل عقل الإنسان، بأنصع الأدلَّة، وأجمل البيان، في هذه الكلمات المعدودات!! ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ هل رأيتَ إيجازاً أخْصَرَ، وبرهاناً أَرْوع، من هذا الاستدلال والبيان؟

واقرأ قول اللّه عزَّ وجلَّ في سورة الروم:

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

أي انظر أيها الإنسانُ العاقل، نَظَر تفكُّر وتدبُّر، إلى ما يُنشئه ربُّ العزة والجلال، من آثار رحمة اللّه بنزول المطر، من خضرة الزرع، وتَفتُّح الأزهار، وخروج الثمار، بعد أن كانت الأرض ميتة مجدبة، لا زَرْعَ فيها ولا ثَمر.

هذه كلُّها نماذجُ حيَّةٌ واقعية، للبعث والنشور، فكيف يُنكِرُ الكافرُ قدرة اللّه على إحياء البشر؟

تَأَمَّلْ في الوُجُودِ بِعَيْنِ فِكْرٍ ... تَرَى الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ كالْخَيَالِ
وَمَنْ فِيهَا جَمِيعَاً سَوْفَ يَفْنَى ... وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ

ضربُ الأمثال في الكتاب العزيز

وقد ضربَ تباركَ وتعالى لهذه (الحياة الدنيا) الأمثالَ في كتابه العزيز، لئلا يركنَ إليها المؤمنُ، وينسى الآخرةَ، التي هي دارُ الخلودِ والبقاءِ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] مثَّلَ تعالى للحياة الدنيا، بالمطر الهاطل من السماء، تُخرِجُ به الأرضُ أنواعَ النباتات، والأزهار، والثمار، ممَّا هو غذاء للناس، من أنواع الحبوب والثمار، وممَّا ترعاه البهائم من الكلأ والعشب.

والتعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ تصويرٌ رائعٌ في منتهى الإبداع والجمال، تمثيلٌ للأرضِ بالعروس، إذا تزيَّنتْ بالحُلِيِّ والجواهر، فلبستْ أفخرَ الملابس، وتجمَّلتْ بأبهى الحُلَلِ، فإنها تزيد في الفتنة والإغراء، كذلك الدنيا تَخْدعُ ثم تَصْرَع، فإذا نزل المطر، تزيَّنَتْ الأرضُ بالأزهارِ والثمار، ثم جاءها أمرُ اللّهِ بالهلاك والدمار، فصارت خراباً يَبَاباً، بعد أن كانت زاهرةً ناضرة، فلا ينبغي للمؤمن العاقل، أن ينشغل بها وينسى آخرته!

واقرأ قول اللّه تعالى، في بيان حقيقة هذه الحياة الدني، التي يخلد إليها الغافلون، ويتباهون فيها بالأموال، والأحساب، والأنساب: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

المراد بالكفَّار في الآية: الزُّراعُ، لأنهم يُغَطُّون البذرَ ويسترونه في الأض، شبَّه تعالى زينةَ الدنيا وبهرجها، بمطرٍ غزير أصاب أرضاً، فأخرجت أنواع النبات الزاهي الخضر، فأعجب الزُّراعَ نباتُه، وإذا أعجَب الزُّراعَ فهو في غاية الحُسْن، ثم لا يلبثُ هذا الزرع، أن يصبح هشيماً يابساً، بعدما كان خَضِراً نَضِراً، كذلك حالُ الدنيا، متاعٌ زائل، لا بدَّ أن يفنى، أمَّا الآخرةُ فهي دارُ السرور والحبور، وفيها النعيمُ الدائمُ الذي لا ينقضي ولا يزول.

قال الحافظ ابن كثير: هكذا الحياةُ الدنيا، تكون أولاً شابَّةً، ثم تكتهلُ، ثم تكون عجوزاً شَوْهَاء، والإنسانُ يكون كذلك في أول عمره، وعُنفوانِ شبابه، غضًّا طَريًّا، ليِّنَ الأعطاف، بهيَّ الصورةِ والمنظر، ثم يكبُرُ فيصبح شيخاً هَرِماً، ضَعيفَ القُوى، وما هذه الدنيا إلَّا متاعٌ فانٍ، يغترُّ بها من يعتقدُ أنه لا دَارَ سواها، وهي حقيرةٌ قليلةٌ بالنسبة للدار الآخرة(١).

ما المقصود من ذمّ الدنيا؟

وينبغي أن نعلم، أنَّ ما ورد في القرآن الكريم من ذمِّ الدنيا، وكذلك ما ورد في السنة المطهَّرة، إنما يُراد به التحذير من الاغترار بها، وقصرِ الهمَّة عليها، والتكالب على جمع حُطامها، ونسيانِ الدار الآخرة، بحيث يكون همُّه الدنيا فقط، دون العمل للآخرة، فهذا هو الذي حذَّر منه القرآنُ الكريمُ، في قوله تقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

وفي الحديث الشريف: (من كانت الدنيا هَمَّه، شتَّتَ اللَّه شملَه، وجعل فقرَه بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلَّا ما قُدِّرَ له منها.

ومن كانت الآخرةُ هَمَّه، جمع اللَّه شمله، وجعل غناه في قلبه، وجاءته الدنيا وهي راغمة)(٢).

عالمُ البرزخ

بعد وفاة الإنسانِ، وانتقالِه من داء الفناء إلى دار البقاء، يمرُّ في حياةٍ وعالَم آخرَ، يسمى (عالَمَ البَرْزخ) هذا العالمُ وسطٌ بين عالم الدنيا، وعالم الآخرة، والبَرْزخُ معناه: الحاجزُ، سُمِّي برزخاً لفصله بين الحياتين: (حياة الدنيا)، و(حياة الآخرة)، وإليه أشارت الآية الكريمة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۞ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ٤٥٠ المختصر.

(٢) الحديث رواه الترمذي في سننه رقم (٢٤٦٧) ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٤٧.

أي أمامه حاجزٌ يحولُ بينه وبينَ العودةِ إلى الدنيا، إلى يوم القيامة، هذا الحاجزُ هو (القبرُ) الذي سيكون مثواه إلى يوم الحشر.

قال مجاهد: البرزخُ: الحاجزُ ما بين (الدنيا) و(الآخرة) إلى يوم البعث، وهو القبرُ!!

هل الموتُ فناءٌ بالكليَّة؟

والموتُ ليس فناءً بالكلِّية، كما يتصوَّره بعضُ الغافلين، بل هو انتقالٌ من حياةٍ إلى حياة، كما ينتقلُ الطفلُ من بطن أمه، الذي كان يعيش فيه، إلى عالَم جديد عليه، هو عالم (الدنيا) وكلٌّ منهما يختلف اختلافاً كبيراً عن الآخر، وإذا فكَّرنا كيف كان الطفل، يأكل ويشرب ويتنفَّس، وهو في بطن أمه، في هذا (الصندوق الضيِّق) وقارَنَّا بين الحياتين، نجد الفارقَ بينهما كبيراً، لقد كان في عالم ضيّق، ثم انتقل إلى عالَم آخرَ واسعٍ شاسع، كذلك (عالَمُ البرزخ) يختلف عن عالم الدنيا.!

وقد وردت النصوصُ في الكتاب والسنة، تثبتُ حياةَ الإنسان في القبر، بأخبارٍ قاطعة، كلُّها تشير إلى النعيم، الذي يلقاه الميِّتُ في قبره، أو العذابِ والجحيم، الذي يصيبُه في تلك الحُفْرة، فالقبرُ (إمَّا روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حُفَر النار) كما أخبر عن ذلك الصادقُ المصدوقُ، عليه أفضل الصلاة والتسليم(١).

النصوصُ القرآنية على عذاب القبر

أمَّا النصوصُ القرآنيةُ، عن سؤال الملكَيْن له في القبر، فنذكر منها الآتي:

- **أولاً:** فقد أخرج البخاريُّ عن البراءِ بنِ عازبٍ أن رسول اللَّه ﷺ قال: (المسلمُ إذا سُئل في القبر، شهدَ «أن لا إلٰه إلَّا اللَّهُ، وأن محمداً رسولُ اللَّه» فذلك قولُه تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

---

(١) عالم البرزخ فيه غرائب وعجائب، منها سؤال الملكَيْن له في القبر، عن دينه، وربه، ونبيّه، واختلاف أضلاع الكافر فيه، وكون القبر روضةً من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، وكلُّ هذه حقائق غيبية لا شك فيها، جاء ذكرها في الكتاب والسُنَّة.

فهذا نصٌّ واضحٌ صريح، على سؤال الميِّت في القبر من القرآن الكريم، وضَّحه ﷺ وبيَّن معنى (التثبيت) الوارد في الآية الكريمة: أنه النطقُ بكلمة التوحيد في القبر.

- **ثانياً**: قولُه تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]. أي يُعذَّبون في القبور في الصباح والمساء، فالمراد بالنار هنا: نارُ القبر، لا نارُ جهنم، بدليلِ قولِه تعالى بعده ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ ومعلومٌ أن القيامة لم تأت بعد، فكيف يُخبرُ تعالى أنهم يُعرضون على النار، ويُعذَّبون بها؟ إنه بلا شك عذابُ القبر، لا عذابُ جهنم، فهي نارٌ قبل نار الآخرة.

قال الحافظ ابن كثير: وهذه الآيةُ أصلٌ كبير، في استدلالِ أهل السُنَّة على عذابِ البرزخ في القبور، وقولُه تعالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أي صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا(١).

- **ثالثاً**: وكذلك قولُه تعالى عن قوم نوح: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

المرادُ بالنَّار هنا: (نارُ القبر) و(عذابُ البرزخ) لا نار جهنم، لأنها عُطفت بالفاء، والفاءُ في اللغةِ العربية، تفيدُ الترتيبَ مع التعقيب، لأن الإحراقَ جاءهم بعد الإغراق، أي بسبب كثرة جرائمهم الشنيعة، أُغرقوا بالطوفان، وأُدخلوا مباشرةً ناراً عظيمة هائلة، هي (نار القبر).

- **رابعاً**: قولُه تعالى عن الكفار الفجار ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

المرادُ بالعذاب الأدنى ـ أي القريب ـ عذاب القبر، لأن عذاب الآخرة لم يأت بعد، حيث لا يكون إلَّا يوم القيامة.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٤.

عذاب الكافر وقتَ نزع الروح

- **خامساً**: وممَّا يتعلَّقُ بسكراتِ الموتِ وقتَ الاحتضار - وهي من الأمور الغيبيَّة التي أخبر عنها القرآنُ - ما يلقاه الكافرُ من أنواع الشدَّةِ والبلاء، والضرب والتعذيبِ، على الوجوه والظهور، لنزع روحهِ الخبيثةِ من جسده، قولُ اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠، ٥١].

أي لو رأيت أيها السامعُ، حالَ الأشقياء المجرمين، حين تقبضُ ملائكةُ العذاب أرواحَهم الخبيثة من أجسادهم، وهم يَضْربونهم بمقامعَ من حديد، على وجوههم وظهورهم!!

وجوابُ (لو) محذوف للتهويل والتفظيع، أي لرأيت أمراً عظيماً فظيعاً، لا يكاد يوصف من شدَّته وهوله. ونحن وإن لم نر ملائكة العذاب تقبض أرواح الكفّار، وتضربهم بمقامع الحديد، ولكنَّنا لا نشكُّ في حدوثه، لأنه خبرُ اللَّهِ القاطعُ، الذي لا يدخلُه أدنى شك، وقد أخفى اللَّه عنا رؤيةَ هذه الأمور، ابتلاءً وامتحاناً، ليَظهَر صدقُ المؤمنين، الذين يؤمنون بالغيب، فإنَّ أوَّلَ صفات المؤمن الصادق: الإيمانُ بالغيب، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢، ٣].

- **سادساً**: كما أخبر تعالى في موطنٍ آخرَ، ما يلقاه الكافر من شدائدَ وأهوالٍ، عند نزع روحه الخبيثة، حيث تحضره ملائكةُ العذاب، وتضربُه بسياطٍ لاذعة، وتقولُ له سخريةً واستهزاءً: خلِّصْ نفسك من العذاب إن كنت تستطيع!! **وتقول له**: اليومَ تذوقُ ما كنت تكذّب به، وتهزأ منه!! قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

- **سابعاً**: كما أقسم تعالى (بملائكة العذاب) وهي تقبض أرواح الكفار

الفجار، بشدةٍ وعنف، نزعاً بالغ الشدَّة، تنزع أرواحهم من أجسامهم، كما يُنْزعُ سِيخُ الحديد، ذو الشُّعَبِ الكثيرةِ، من الصُّوفِ المبتلِّ، فتتمزَّق أمعاؤُه، حتى كأنَّ روحَ الكافر، تخرج من ثُقب إبرة، إمعاناً في الشدة والعنف.

كما أقسم (بملائكة الرحمة) وهي تنزع روحَ المؤمن، برفقٍ ولين، وتسلُّها سلّاً رفيقاً، كما تُسلُّ الشَّعْرةُ من العجين، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا * وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا * فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا * فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥].

قال المفسرون: هذا قَسَمٌ من اللّه تعالى بالملائكة: (ملائكةِ العذاب) و(ملائكة الرحمة) ملائكةِ العذاب التي تنزع أرواح الكفار بغلظةٍ وعُنف، وملائكة الرحمة التي تنزع أرواح المؤمن برفقٍ ولين!!

وهذه كلُّها حقائق غيبيَّة يجب الإيمان بها دون أيِّ شك، لأنه خبرُ اللّهِ القاطع.!

الأحاديث الصحيحة في عذاب القبر

أمَّا ما ورد في عذاب القبر ونعيمه، من الأحاديث الصحيحة، فأكثرُ من أن يُحْصى، نذكر منها بضعةَ أحاديثَ شريفة.

- **الحديثُ الأول**: عن عثمانَ بن عفَّانَ رضي اللَّه عنه، أنه قال: (كان النبيُّ ﷺ إذا فَرَغَ من دفنِ الميِّت، وقَفَ عليه، وقال: استغفروا لأخيكم، وَسَلُوا له التثبيتَ ـ أي تثبيتَ لسانِهِ على النُّطق بالشهادة، عند سؤال الملَكين له في قبره ـ فإنَّه الآنَ يُسْألُ)[١] رواه أبو داود في سننه.

- **الحديث الثاني**: عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي اللَّه عنه أنه قال: كان النبيُّ ﷺ يقول: (إذا وُضِعت الجنازةُ، فاحتملَها الناسُ على أعناقهم، فإنْ كانت صالحةً، قالت: قدِّموني، وإن كانت غير صالحة، قالت: لأهلِها: يا ويلَهَا أينَ تذهبون بها؟ يسمعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلّا الإنسانُ، ولو سَمِعَ الإنسانُ لصَعِق أي هَلَك ومات) رواه البخاري[٢].

- **الحديث الثالث**: عن عليّ بن أبي طالب رضي اللَّه عنه أنه قال: (كنَّا في جنازةٍ في بقيع الغرقد ـ أي مقبرة البقيع في المدينة المنوَّرة ـ فأتانا رسولُ اللَّه ﷺ فقعَد وقعَدْنا حولَه، وبيده مِخْصَرة ـ أي عصا رفيعة ـ فجعل ينكُتُ بها الأرضَ ـ أي يحرِّك بها التراب ـ ثم قال: ما منكم من أحدٍ، إلَّا وقد كُتِبَ مقعدُه من النَّار، ومقعدُه من الجنة!!

قالوا يا رسولَ اللَّهِ: أفلا نَتَّكلُ على كتابنا ـ أي نعتمد على قضاء اللَّه ـ ونترك العمل؟ قال: لا، اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِق له، أمَّا من كان من أهل السعادة، فييسَّرُ لعمل أهل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاء، فيُيسَّر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ ﷺ:

---

(١) الحديث رواه أبو داود في سننه رقم (٤٧٥٠) والترمذي رقم (٣١٢٠).
(٢) أخرجه البخاري رقم (١٣١٦).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠] رواه البخاري(١).

● **الحديث الرابع**: عن عائشةَ رضي اللَّه عنها أنَّ يهوديةً دخلت عليها، فذكرتْ عندها عذابَ القبر، وقالت لها: أعاذَكِ اللَّهُ من عذاب القبر!!

فلمَّا دخل عليها رسولُ اللَّه ﷺ، ذكرتْ له عائشةُ ما سمعتْه من اليهودية، وسألتُه عن عذاب القبر، فقال: نعم، عذابُ القبر حقٌّ.!

قالت عائشة: فما رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ بعدُ صلَّى صلاةً، إلَّا تعوَّذ من عَذَابِ القبر) رواه البخاري(٢).

● **الحديث الخامس**: عن أنسِ بنِ مالك رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: (إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِه، وتولَّى عنه أصحابُه، وإنه ليسمع قَرْعَ نِعَالهم ـ أي أصواتَ مشيهم بعد دفنهم له ـ أتاه مَلَكانِ فيقعدانه، فيقولان له! ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ ـ يريد به محمداً ﷺ ـ **فأمَّا المؤمنُ فيقول**: أشهدُ أنه عبدُ اللَّه ورسولُه!!

فيقال له: أُنظرْ إلى مقعدك من النَّارِ، قد أَبْدلَكَ اللَّهُ به مقعداً من الجنة!

قال ﷺ: فيراهما جميعاً، ثم يُفسح له في قبره.!

وأمَّا المنافقُ والكافر، فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ يعني محمداً ﷺ ـ فيقول: لا أدري، كنتُ أقولُ ما يقولُ الناسُ!؟ ـ يعني كما يتحدَّث عنه المشركون: شاعرٌ أو ساحر ـ فيُقال له: لا دريتَ ولا تَلَيْتَ ـ أي ما عرفتَ أمرَ الرسول ولا تليتَ كتاب اللَّه ـ ثم يُضرب بمطارقَ من حديد، ضربةً فيصيح منها صيحةً، يسمعها من يليه غيرُ الثقلين) الثقلان: الإنسُ والجنُّ(٣).

فهذا الحديث صريحٌ، في عذاب الكافر في القبر، وأن مطارقَ الحديد تنزل عليه، فيصيح منها صيحةً يسمعها أهلُ السماءِ والأرض، إلَّا الإنسُ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير رقم (٤٩٤٥) ومسلم في القَدَر رقم (٢٦٤٧).
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ٣/ ١٨٧ ومسلم في المساجد رقم (٥٨٤).
(٣) رواه البخاري في باب (ما جاء في عذاب القبر) ١/ ٢٣٧.

والجنُّ، وأنَّ القبر يضيق عليه حتى يصبح حفرةً من حُفَر النار، بينما يصبح قبرُ المؤمنِ فسيحاً، واسعاً، كأنه روضة من رياض الجنة، وأنَّ الإنسان في القبر يسمع ويُحسُّ ويرى، ولكنْ تختلف حياتُه عن حياة النَّاسِ، لأنها حياة برزخية، واللَّه تعالى أعلم.

• **الحديث السادس**: عن البراء بن عازب رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ خرج ذات يوم وقد وجبت الشمسُ ـ أي طَلَعتْ وسطعتْ ـ فسمع صوتاً، فقال: (يهودُ تُعذَّب في قبرها) رواه البخاري[(١)].

فالرسولُ ﷺ سمع أصوات اليهود، وهي تتعذَّب في قبورها، فأخبر أصحَابَهُ عن مصدر هذه الأصوات، وهذا دليل واضح على عذاب القبر، أخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ.

• **الحديث السابع**: وعن البراء بن عازب رضي اللَّه عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا أُقْعِد المؤمنُ في قبره، أُتي ثم شهد أن (لا إلٰهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللَّه) فذلك قولُه تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ رواه البخاري[(٢)].

• **الحديث الثامن**: عن عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: (إن أحَدَكم إذا ماتَ، عُرِضَ عليه مَقْعدَه بالغداة والعشيِّ ـ أي بالصباح والمساء ـ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإنْ كان من أهل النَّار فمن أهل النَّار ـ يعني إن كان من أهل الجنة يرى الجنَّةَ، ويكون قبرُه روضةً من رياضها وإن كان من أهل النارِ يرى النَّارَ وهو في قبره، ويصبح عليه حفرة من حُفَر النار، ثم يُقال له: هذا مقعدُك حتى يبعثك اللَّه يوم القيامة)[(٣)] رواه البخاري.

• **الحديث التاسع**: عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه قال: (مرَّ النبيُّ ﷺ على قَبْريْن ـ سمِعَ عذابهما بنفسه ـ فقال: إنهما ليعذَّبان، وما يعذَّبان من كبير ـ أي من أمرٍ كبير كان يمكنهما اجتنابه:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز رقم (٦٩٢).
(٢) أخرجه البخاري في الجنائز رقم (٦٨٨).
(٣) أخرجه البخاري رقم (٦٩٤).

أمَّا أحدهما: فكان يسعى بالنميمة ـ أي ينقل كلاماً من شخصٍ لآخر، للإفساد بينهما ـ.

وأمَّا الآخر: فكان لا يستتر من بوله ـ أي لا يحفظ نفسه من البول ـ، ثم أخذ عوداً رطباً، فكَسَره باثنتين، ثم غَرَز كلَّ واحدٍ منهما على قبر، **ثم قال**: لعلَّه يُخَفَّف عنهما ما لم يَيْبسا)[١] رواه البخاري.

● **الحادي العاشر**: قال ﷺ: (لولا أن لا تدافنوا ـ أي يدفن بعضُكم بعضاً ـ لدعوت اللَّهَ أن يسمعكم عذاب القبر).

وممَّا يؤيِّد ما ذكرناه من الأحاديث النبوية الشريفة، في عذاب القبر، أن الرسول ﷺ كان يستجير باللَّه عزَّ وجلَّ من عذاب القبر، ويدعو في صلاته بهذا الدعاء المشهور:

(اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال) رواه البخاري.

كيف يُعَذَّب الإنسان في القبر؟

قد يقول بعضُ المغفَّلين البسطاء، الذين لا يعرفون قدرة اللَّه عزَّ وجلَّ، ويتحدَّثون بمنطقٍ أعوج، غير سليم، كيف يُسأل الإنسانُ في قبره؟ وكيف تُجلسه الملائكةُ للحساب، والسؤالِ والجواب؟ وهو في هذا المكان الضيِّق، وقد أهيل عليه التراب؟ وكيف يُضرب بمقامعَ من حديد؟ ولو كشفنا عنه القبر، فإننا لا نرى عليه آثار الضرب والعذاب!!

والجواب عن ذلك: أنَّ هذه الوساوسَ إنما تتأتى من غفلة الإنسان، عن قدرة الباري جلَّ وعلا، وقياسِ (عالـِم البرزخ) على عالَم الدنيا، وهو قياسٌ خاطئ، مبعثُه الجهلُ بأمور الآخرة، وعدمُ الفهم الصحيح لمعنى الموت.!

الموتُ ليس فناءً للإنسان بالكلِّية، بل هو انتقالٌ من حياة إلى حياة أخرى، كما ينتقل الطفلُ من بطنِ أمه، إلى عالَم الدنيا، فهو في بطن أمه يَسْرح ويَمْرح، ويأكل ويشرب، بغير الطريقة التي يأكل بها بعد الولادة،

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز رقم (١٣٦١).

ويتنفَّس أيضاً بطريقة أخرى، ولو أردنا أن نعيده إلى الحياة، التي كان يعيشها في بطن أمه، فوضعناه في صندوق مغلق، ومنعنا عنه الطعام والشراب من فمه، وأردنا أن يكون طعامه بطريق الحبل السِّريّ، لاختنق ومات، فكيف يُقاس عالَمُ البرزخ (القبر) على عالَم الدنيا؟

وهناك نموذجٌ مصغَّر لنعيم القبر وعذابه، هو (النَّومُ) سمَّاه اللَّهُ وفاةً وموتاً في قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

بين (الوفاة الصغرى) و(الوفاة الكبرى)

يخبر الحقُّ جلَّ وعلا أنه يُميت البشر، فيقبض أرواحهم عند انتهاء آجالهم، وهذه هي (الوفاةُ الكبرى) وفاةٌ حقيقية كاملة، ويتوفَّى الأنفسَ التي لم تمت في منامها، وهي (الوفاةُ الصغرى) لأن النائم كالميِّت، لا يُبصر، ولا يسمعُ، ولا يحسُّ بما يجري حوله، حتى يستيقظ، فهو يشبه الموت من هذا الوجهِ.

وقد جعل اللَّه هذه (الوفاةَ الصغرى) دليلاً على البعث والنشور، فكما ينام الإنسانُ ثم يصحو من النوم، كذلك يموت الإنسانُ، ثم يُحييه اللَّهُ ويبعثه بعد موته، للحساب والجزاء، ولهذا كان صلواتُ اللَّه وسلامُه عليه إذا استيقظ من النوم يقول: (الحمدُ للَّهِ الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور) رواه البخاري.

وقولُه تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أي يمسك أرواح الأموات عنده، فلا يردُّها إلى أبدانها ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يرسلُ أرواح الأحياء النائمة، إلى أبدانها عند اليقظة، وفي هذا عبرةٌ وعظة.

التمثيلُ بالرؤيا المناميَّة

ونذكر لتقريب مسألة (عذاب القبر ونعيمه) للعقل البشري هذا المثال: «شخصان نائمان في غرفةٍ واحدة، أحدهما يرى في نومه، أنه كان في بؤسٍ شديد، يسكن في حارة يسكنها الفقراء، لم يشعر بالراحة طيلة حياته، لفقر ذات يده، وتمرُّ عليه الأعوام فيُنفيه اللَّه عزَّ وجلَّ، ويوسِّع اللَّهُ عليه في الرزق، إلى درجة لم يحلَمْ بها، فقد أصبح ممن يملك ثروةً طائلة تبلغ مئات الآلاف من الملايين.

بنى له قصراً فخماً، فيه الحدائق الغنَّاء، فيها الأشجار والثمار، وعنده الخدمُ والحَشمُ، يأتونه بلذائذ الطعام، وكلِّ ما تشتهيه نفسه، ممَّا لا يوجد إلَّا في قصور الملوك، من الفُرش الوثيرة، والأرائك، والمجالس التي تُبْهر العقول، وفي قصره تتدفق عيون الماء وكأنها أنهار، وعاش هذا الرجل عيشة المترفين، بعد أن ذاق ألم الفقر ومرارته، فقد تزوَّج بالحسناوات، وأنجب منهن أبناءً وبنات، فقد انقلبت حياته من الجحيم إلى النعيم، كلُّ هذا يراه في منامه، وهو في الفراش.

أمَّا الرجلُ الآخر، الذي ينام إلى جوار صديقه، فقد رأى في منامه أنه بينما كان مستغرقاً في نومه، إذا بالباب يُقرع عليه قرعاً عنيفاً، فخرج فزعاً يفتح الباب، وإذا بثُلَّة من رجال الأمن والشرطة، يقتحمون عليه المنزل، وهم مدجَّجون بالسلاح، يتطاير الشرُّ من أعينهم، فما أن رأوه حتى قيَّدوا يديه ورجليه بالسلاسل الحديديَّة، وعصبوا عينيه، واستاقوه معهم إلى مركز الشرطة، وهو يصرخ ماذا صنعتُ؟ لماذا تأخذونني إلى السجن؟ وهم يضحكون منه ويسخرون، ويقولون له: أَمَا تدري الجريمة الشنيعة التي ارتكبتَها؟ إنك قاتلٌ، أنت مجرم، سفكتَ دم فلان، ثم ألقيتَ بجثَّته أمام (سُكَّة القطار) لتُخْفي جريمتك، وقد شاهدك أناسٌ كثيرون حين قتلْتَه، وشهدوا بأنك أنت القاتل!!

صار يصرخُ ويحلفُ الأيمانَ المغلَّظة، أنه بريء لا علم له بالحادثة، ولا بالقاتل، ولم يخرج من بيته في ذلك اليوم، الذي اتُّهم فيه بالقتل!!

أُلقي في السجن تلك الليلة، في زنزانةٍ ضيِّقة، وفي الصباح أُخرج من السجن إلى (المحكمة) وأمام القضاء عُرضت مسألة قتله للرجل، وهو ينكر، ويقول: واللَّهِ لا علم لي بالأمر، وهذه تهمةٌ أنا بري منها، وبعد محاكمات طويلة، كان يخرج فيها من السجن إلى المحكمة، ثم يعاد إلى الزنزانة، ثبت لدى القُضاة الثلاثة، بشهادة الشهود الذين دخلوا القاعة وهم جمعٌ غفير، يقولون أمام رئيس المحكمة، وأمام القُضاة الثلاثة: نعم واللَّهِ هذا هو الجاني، هذا هو القاتل. !

بعد مداولاتِ القضاة، صَدَر الحكمُ عليه بالإعدام (شنقاً) لثبوت جريمة القتل عليه، وحُدّد اليومُ الذي يُنفَّذ فيه حكمُ الإعدام، وفي ذلك اليوم أُخرج من الزنزانة، وسيق إلى ساحة الإعدام، ووُضع حبلُ المشنقة في عنقه، وتُلي عليه الحكمُ بالإعدام أمام جمهور من الناس، ولم يبق بينه وبين تنفيذ الحكم، إلَّا شدُّ الحبل الذي في عنقه!

في هذه اللَّحظة التي كان سيلقى فيها مصيره المشؤوم، استيقظ الرجل من النوم، وهو يرتعد من شدة هول ما رآه، وهو يقول: الحمدُ للَّه، لك الحمدُ يا ربّ أنَّ هذا كان مناماً، ولم يكن واقعة حقيقية.

هذا ما رآه كلٌّ من الشخصين في منامه، ولو كشفنا الغطاء عن وجهيهما، لا نرى ما كان عليه الأول من البهجة والسرور، بالغنى بعد الفقر، ولا ما أصاب الثاني من الكرب والشدائد، وهو يلقى مصيره المشؤوم!

فكيف يستبعد العاقل على قدرة اللَّه عزَّ وجلَّ، أن يجعل هذا القبر على صاحبه (نعيماً) أو (جحيماً) وهذا النومُ أبسطُ مثالٍ على ما يحدث للإنسان في قبره؟

❁ ❁ ❁

ما هما الموتتان والحياتان؟

لقد كان المشركون يستبعدون قدرةَ اللّه، على إحيائهم بعد الموت، بل ينكرون العودة إلى الحياة مرة أخرى، ويقولون: كيف يجمع اللّهُ العظامَ البالية، المختلطة بتراب الأرض، المتبعثرة في الثرى؟

وكيف يرجع الإنسانُ حياً بعد أن أكلت الأرضُ لحمه، وأَبْلتْ عظامَه؟ أمَّا اليوم فإنهم يعترفون بقدرة اللّه، يوم يقفون بين يدي الجبَّار الكبير المتعال، فيقرُّون بجرائمهم، معترفين ومصدِّقين بقدرته تعالى على إحيائهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾؟ [غافر: ١١].

أي أمتَّنَا إماتَتَيْن، وأحييتنا إحياءَتَيْن، فاعترفنا بذنوبنا ومعاصينا، فهل تخرجنا من النار، لنسلك سبيل المؤمنين الأبرار؟

ومرادُهُمّ من هذا الاستعطاف والاعتراف، أن يخفِّف اللّهُ عنهم العذاب، أو ينجيهم ويخلّصهم منه، كأنهم يقولون: هل من سبيلٍ ووسيلة لإخراجنا من النار؟ وهل تردّنا إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟

وسُرْعانَ ما يأتيهم الجواب باليأس والإقناط، مع بيان سبب ذلك، فيقول سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

أي لا أمل لكم بالخروج، بسبب كُفرِكم، وتكذيبكم للقاء اللّه، فقد كنتم إذا دُعيتم إلى (الإيمان) و(توحيد الرحمن) تكفرون، وإذا دُعيتم إلى (عبادة الأوثان) تُسرعون وتؤمنون، فلا نجاةَ ولا خروج لكم من هذا العذاب، والحُكْمُ اليوم للكبير المتعال!؟

ومرادُهم بالموتَتَيْن: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾.

أمَّا الموتة الأولى: فحين كانوا في العدم قبل أن يخلقهم اللّه.

وأمّا الموتةُ الثانية، فحين ماتوا، عند انتهاء الأجل، وقد فسَّرتها آيةُ البقرة، قال اللّه تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨].

ومرادهم بالإحيائَتَيْن ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾.

إحياءهم **الحياة الأولى** حين خرجوا إلى الدنيا من بطون الأمهات.

والثانية: إحياءَهم بالبعث بعد الممات.

فقد أقرُّوا الآن بالإحياء لهم بعد موتهم، فهاتان موتتان، وحياتان!!

التذكير بإحياء البشر بعد الموت

وقد تكرَّر التذكير للبشر بإحيائهم بعد الموت، لأهميَّةِ هذا الموضوع الذي ينساه الكثيرون، وهو عنصر هامٌّ من أركان الإيمان، عليه يُبنى قانون (الحساب والجزاء) ولولا هذا القانونُ، لانقلب الناس إلى وحوش ضارية، كلُّ واحد يريد أن يفترس الآخر، ويسحقه في هذه الحياة.

يقول اللَّه تقدست أسماؤه في سورة الروم: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الروم: ٤٠].

والمعنى: هو جلَّ جلاله الذي يُحيي الخلقَ، ثم يُمِيتهم، ثم يعيدهم إلى الحياة مرة ثانية، ليجازيهم على الأعمال، فماذا صنعت هذه الأوثان، حتى عبدتموها من دون الرحمن؟

والسؤال هنا: سؤالٌ لا يحتاج إلى جواب، إنَّما يُراد به التقريعُ والتوبيخ لهم، أي لا أحد يفعل شيئاً من تلك الأفعال، بل هو من فعل الكبير المتعال، فهو وحده الخالق الرازق، المحيي المميت، ولهذا جاء ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزَّه اللَّهُ وتقدَّس عن أن يكون له شبيهٌ، أو نظير، في الخلق والإبداع.!

الفصل السابع

الإيمانُ بالأمور الغيبيّة

نعيمُ القبر وعذابُه

الفصل السابع

الإيمانُ بالأمور الغيبيَّة

نعيمُ القبر وعذابُه

وممَّا يجب الإيمانُ به واعتقادُه، أحكام عديدة تتعلق بالآخرة، أخبر عنها القرآن الكريم، ووردت بها السنة النبويَّةُ المطهَّرةُ، وهي: (الميزان، والصراط، والصُّور، والجنة، والنارُ، والحوضُ، والمقامُ المحمود) فجميع هذه أخبارٌ غيبية تتعلق بالآخرة، يجب الإيمان بها، لأنها أمور قطعية، جاء ذكرها في القرآن والسُنَّة.

وكلُّ ما ذُكر في كتاب اللَّه أو سنة رسوله ﷺ حقٌّ نؤمن به ونعتقده، ولا يمكن أن يدخله شيء من الكذب أو الشك، لأنه كلامُ رب العالمين، أو خبرُ سيد المرسلين ﷺ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾؟ [النساء: ٨٧].

وفي واجب التصديق والعمل بما جاء عن رسول اللَّه ﷺ، يقول الحقُّ جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

الإيمانُ بالميزان يومَ الحساب

وَرَدَ ذكرُ الوزنِ والميزان في القرآن الكريم، والمراد به وزنُ أعمالِ البشر يوم القيامة، ليجازوا على أعمالهم، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ، ٩].

أي فمن رجحت موازينُ أعماله، بالإيمان وكثرة الحسنات، فهو الناجي من العذاب، الفائز بالجنة والثواب، ومن خفَّت موازينُ أعماله، بالكفر واجتراح المنكرات، فهو الشقيُّ الخاسر، الذي خسر سعادته وحياته، بالخلود في نار الجحيم.

لماذا تُوزن الأعمالُ؟

ولماذا كان هذا الميزان؟ إن العدالة الإلهية، تقتضي أن لا يُظلم أحد يوم القيامة، وأن يُؤخذ الحقُّ للمظلوم من الظالم، وللمقتول من القاتل، وأن لا يضيع حقٌّ لأحد. !

ولمَّا كان ذلك اليومُ يومَ (العدل الإلٰهي) وقد تنزَّه الباري جلَّ جلالُه عن الظلم والجور، فلا بدَّ إذاً من يوم يكون فيه الحسابُ والجزاء، لينال المحسنُ جزاء إحسانه، والمسيءُ جزاء إساءته، ولهذا جاءت الآيات تقرِّر العدالة الإلٰهية، بوضع ميزان الأعمال يوم القيامة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أي ويوم القيامة نقيم الموازين العادلة، فلا يُظلم أحد شيئاً من عمله، ولو كان عملُه في غاية القِلَّة والحقارة، بمقدار حبة الخردل ـ وهي أصغر ذرات الحبوب ـ وكفى بربك أن يكون محصياً على عباده أعمالهم، مجازياً لهم عليها.

كيف توزن الأعمال يوم القيامة؟

ولعلَّ سائلاً يسأل: كيف توزن الأعمال يوم القيامة؟ وهي أعراضٌ معنويةٌ غير محدَّدة ولا مجسَّمة!؟

والجواب عن ذلك أن نقول: للمفسرين في هذا الموضوع رأيان:

الرأي الأول: هو أنَّ الوزن إنما يكون لصحائف أعمال العباد، التي سُجّلت فيها أعمالُ بني آدم، فتوضع الصُّحُفُ في الموازين، وتوزن وزناً حقيقياً، فهي وإن كانت أعراضاً، إلَّا أنَّ اللَّه يقلبها يوم القيامة أجساماً، لحديث البطاقة، وهو ما رواه الترمذي وأحمد في المسند عن النبي ﷺ أنه قال:

(إن اللَّه عزَّ وجل سَيُخْلِصُ رجلاً من أمتي، على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعةً وتسعين سِجِلّاً ـ كتاباً سُجِّلت فيه أعماله ـ كلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مدِّ البصر، فيقول اللَّه له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أَظَلَمك كتبتي الحافظون؟

فيقول: لا يا ربِّ، فيقول اللَّهُ: أَفَلَك عذرٌ؟ فيقول: لا يا ربِّ!؟

فيقول اللَّهُ تعالى: بَلىٰ، إنَّ لكَ عندنا حسنةً، فإنه لا ظُلم اليوم!!

فتخرجُ بطاقةٌ فيها: (أشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللَّهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله) فيقول اللَّه له: احضُرْ وزنَك!! فيقول العبدُ: يا ربِّ ما هذه البطاقةُ، مع هذه السجلّات؟ فيقول اللَّه: فإنك لا تُظلم، فتوضع السجلَّاتُ في كِفَّة، وتُوضع البطاقة في كِفَّة، فطاشت السجلَّاتُ، وَثَقُلَتْ البطاقةُ، ولا يثقلُ مع اسم اللَّهِ شيء)(١).

الرأي الثاني: أنَّ الوزنَ يكون (لصاحب العمل) ـ للإنسانِ نفسِه ـ لِمَا وَرَدَ عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال:

(يُؤْتَى يوم القيامة بالرجل العظيم السمين، فيوضع في الميزان، فلا يزنُ عند اللَّه جناح بعوضة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥](٢).

ولا غرابة في وزن الأعمال، ووزن الحسنات والسيئات بالذات، فإذا كان العلمُ الحديثُ، قد كَشَف لنا في هذا العصر، عن أنواع للموازين عجيبة، منها (ميزان للحرارة والبرودة) و(ميزان لقياس الضَّغطِ في جسم الإنسان) و(ميزانٌ للضَّغط الجويِّ) و(ميزانٌ لسرعة الرياح وحركتها) وميزانٌ لقياس (درجة الزَّلازل) على قياس (ريختر) وميزان (لحرارة البدن) في الجسم.. الخ.

أفيعجزُ القادرُ على كل شيء، عن وضع موازينَ لأعمال البشر؟ بلى إنه على كل شيء قدير، فلا ينبغي للمؤمن أن يجادل في مثل هذه الأمور، بل يسلّم الأمر للعليم الخبير، الذي يقول للشيء كن فيكون!؟

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان رقم (٢٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير رقم (٤٧٢٩).

الدارُ الآخرة
الإيمانُ بالصِّراط

ما هو الصِّراطُ الذي وردت به النُّصوصُ النبويَّة الشريفة؟

الصِّراطُ: جسرٌ معلَّقٌ بين ظهرانَيْ جهنَّم، يمرُّ الناسُ عليه يوم القيامة، فمنهم منْ يقطعه ويجوزه، وينجو من السقوط في نار الجحيم، ومنهم من تتخطَّفه كلاليبُ معلّقة بهذا الجسر، فتهوي به في النَّارِ، كما وردت بذلك الأحاديث النبوية الصحيحة.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال:

(يجمع اللَّهُ الناسَ يومَ القيامة، فيقول: منْ كان يعبدُ شيئاً **فَلْيتَّبعْه!! فيتَّبعُ** من كان يعبد الشَّمسَ الشمسَ، ويتَّبعُ من كان يعبد القمرَ القمرَ، ويتَّبعُ من كان يعبدُ الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ!!

قال: **ويُضرب الصِّراطُ بين ظَهْرانَيْ جهنَّم، فأكون أنا وأمتي أوَّلَ من يجوزها،** ولا يتكلَّم يومئذٍ إلَّا الرُّسلُ، ودعوى الرُّسُل يومئذٍ ـ أي دعاؤهم واستغاثتهم باللَّه ـ اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ. !

وفي جهنم كلاليبُ مثلُ شوْكِ السَّعْدان، غيرَ أنه لا يعلم قَدْرَ عِظَمها إلَّا اللَّهُ تعالى، تَخْطَفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهم الموبَقُ ـ أي المحبوسُ ـ بعمله، ومنهم المُخَرْدلُ المجازَى بعمله.

ثم يتجلَّى ربُّ العزة والجلال، حتى إذا فرغ من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يُخرجوا من النَّار (من لا يشرك باللَّه شيئاً) ممَّنْ أراد اللَّهُ أن يرحمه، ممَّنْ يشهد (أن لا إلٰه إلا اللَّه) فيعرفونهم في النار بأثر السُّجود.

وقد حرَّم اللَّهُ على النَّارِ أن تأكل (أثَرَ السجود)، فيخرجون من النَّار،

وقد امتُحِشُوا ـ أي أصبحوا كالفحم الأسود ـ فيصَبُّ عليهم ماءُ الحياة، فينبتون كما تنبت الحَبَّة في مجرى السَّيل، ثم يفرغ اللَّهُ من القِصاص بين العباد، ويبقى رجلٌ بين الجنَّة والنَّار، مُقْبلاً بوجهه قِبَل النَّار، فيقول يا ربِّ: اصرفْ وجهي عن النَّار، قد قَشَبني ريحُها ـ أي آذاني ريحُها ـ وأحرقني ذَكاها ـ أي أحرقني اشتعالُها ـ فيقول اللَّهُ له: هل عَسَيْتَ إن فعلتُ ذلك أن تسأل غيرَ ذلك؟ فيقول: لا، وعزَّتك، فيصرفُ اللَّهُ وجهه عن النار، فإذا أقبل بوجهه على الجنة، ورأى بهجتها، قال يا ربّ، قدِّمني عند باب الجنة!!

فيقول اللَّه له: (أليس قد أعطيتَ العهودَ والمواثيقَ، أن لا تسألَ غير الذي كنتَ سألتَ؟ فيقول: يا ربِّ، لا أكونُ أشقى خلقك!؟ فيقول اللَّهُ له: فهل عسيتَ إن أُعْطِيتَ ذلكَ أن تسألَ غيره؟ فيقول: لا وعزَّتكَ، لا أسألكَ غيرَ هذا!!

فيعطي ربَّه ما شاءَ من عهدٍ وميثاق، فيقدِّمه إلى باب الجنة، فإذا بلَغَ بابها، ورأى زهرتها وما فيها من النُّضرة والسرور، سكتَ ما شاء اللَّهُ أن يسكتَ، ثم قال: يا ربِّ أدخلني الجنة!! فيقول اللَّه له: ويحكَ يا ابنَ آدمَ ما أغدَرَك؟ أليس قد أعطيتَ العهود، ألَّا تسأل غير الذي أُعطيت؟ فيقول: يا ربِّ لا تجعلني أشقى خلقك؟ فيضحك اللَّه منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، فيقول اللَّه له: تَمَنَّ، فيتمنَّى، حتى إذا انقطعتْ أمانيه، يقول اللَّه له: لك ذلك وعشرة أمثاله معه، وذلك الرجل آخر من يخرج من النار)[١].

يومُ القيامة يومُ الابتلاء والامتحان

فالإيمان بالصِّراط، فرعٌ من فروع الإيمان باليوم الآخر، وقد أخبر عنه الصادق والمصدوق نبينا محمد ﷺ، فصار الإيمان به واجباً، وهو امتحانٌ لكل مدَّع للإيمان، يُظهر اللَّهُ به المؤمنَ الصادق، من الكاذب المنافق، الذي يزعم الإيمان، وهو يُبْطِن في قلبه الشكَّ والنفاق.

فيومُ القيامة يومُ الابتلاء والامتحان، والتمييز بين أهل الطاعة وأهل النفاق، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ...﴾ [الحديد: ١٣].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/ ٣٨٧ ومسلم رقم (١٨٢).

أي يقول المنافقون للمؤمنين: انتظرونا لنستضيء بنوركم، فيجيبهم المؤمنون سخريةً واستهزاءً: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا هذه الأنوار، فليس اليوم يوم تحصيل هذا النُّور الإيمانيِّ.!

فمن جاز الصِّراطَ يوم القيامة، ونجا من هول ذلك اليوم العصيب، وأخذ كتابه بيمينه، فهذا هو الفائز بالسعادة والرضوان.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

المواطنُ التي ينسى فيها النَّاسُ أحبابهم

ولْنستمع إلى هذه القصة، وما فيها من العِظاتِ والعِبَر!!

دخل رسولُ اللَّه ﷺ على أم المؤمنين السيدة عائشة رضي اللَّه عنها، فوجدها جالسة تبكي، وبين يديها القرآن الكريم، فقال لها ﷺ: ما يُبكيكِ يا عائشة؟ أو لماذا تبكين!؟

فقالت يا رسول اللَّه: كنتُ أقرأ كتاب اللَّه تعالى، فمررتُ على ذكر أهل النَّار فبكيتُ، فهل تذكرون يوم القيامة أهليكم؟ ـ أي هل يتذكر أحدٌ زوجَه وأبناءه أو أَحداً من أقاربه ـ؟

فقال لها ﷺ يا عائشة: أمَّا في ثلاثة مواطنَ، فلا يذكر أحدٌ أحداً ـ أي لا يفكّر ولا يخطر على باله أحد من أهله وأبنائه، إلَّا نجاة نفسه!!

الأول: عند الميزان، حتى يعلمَ أيخفُّ وزنُه أم يثقلُ!؟

الثاني: وعند تطاير الصُّحف، حتى يعلمَ أيأخذ كتابه بيمينه، أم بشماله، أم من وراء ظهره؟

الثالث: وعند الصراط، حتى يرى أيمرُّ عليه أم يسقط في نار الجحيم)[(١)]!

في هذه المواطن الثلاثة، ينسى الإنسان أحبَّ الناس وأقربهم إليه، من زوجة، أو ولدٍ، أو حبيب قريب، ولا يذكر إلَّا نفسه، كيف ينجو من عذاب اللَّه؟

وصدق اللَّه العظيم حيث يقول: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

---

(١) أخرجه أبو داود رقم/ ٤٧٥٥/ وانظر جامع الأصول ١٠/ ٤٧٤.

وحينَ سُئِلَ رسولُ اللَّه ﷺ فقيل له: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] ما أطول هذا اليوم؟ فقال: (والذي نفسي بيده، إنه لَيُخفَّف على المؤمن، حتى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة، يصلِّيها في الدنيا)[١].

❁❁❁

(١) أحمد في المسند.

الدار الآخرة
الإيمان بالحوض والكوثر

من خصائص نبينا المصطفى ﷺ التي خصَّه اللَّه بها، أن اللَّه تعالى أعطاه الحوض المورود، ونهراً في الجنة يسمى (الكوثر) قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣].

والحوضُ المورود: حوضٌ في الجنة، تجتمع عنده أمةُ محمد ﷺ، ويعرفهم رسول اللَّه ﷺ، ويلتقي بهم عند ذلك (الحوض)!

عليه أوانٍ وكؤوسٌ، لا يعلم قَدْرَها إلا اللَّه تعالى، من شَرِبَ منه شَرْبةً لا يظمأ بعدها أبداً!!

يمرُّ أمام هذا الحوض (نهر الكوثر) الذي رآه المصطفى ﷺ، حين عُرج به إلى السموات العُلى، وأكرمه اللَّه وأُمَّته بهذا النهر الكبير المبارك (نهر الكوثر).

١ ـ **روى البخاري عن أنس رضي اللَّه عنه** أنه قال: (لمَّا عُرج بالنبي ﷺ قال: فأتيتُ على نهرٍ حافَّتاه: قِبابُ اللؤلؤ المجوَّف، آنيتُه كعدد النجوم، قلت ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثر الذي خبَأ لك ربُّك)(١).

٢ ـ **وسُئلت السيدة عائشة رضي اللَّه عنها** عن قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ فقالت: (هو نهرٌ أُعطيه نبيُّكم ﷺ، شاطئاه ـ أي حافتاه اليمنى واليسرى ـ عليه درٌّ مجوَّف، آنيتُه كعدد النجوم).

ـ تعني أنها كثيرة لا تحصى.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير رقم (٤٩٦٤).

٣ ـ **وروى الترمذي في سننه** (الكوثر نهر في الجنة، حافَّتاه من ذهب، ومجراه على الدُرِّ والياقوت، تربتُه أطيبُ من المِسْك، وماؤُه أحلى من العَسَل، وأبيضُ من الثلج)(١).

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه رقم (٣٣٥٨).

أحاديث في الحوض الشريف

أمّا الإيمان بالحوض، فقد جاءت أحاديث عديدة، فيها ذكرُ الحوض الشريف الذي أعطيه سيِّدُ الأنبياء ﷺ.

فقد روى البخاري عن أبي هريرة عن رسول اللّه ﷺ أنه قال:

١ ـ (ما بين بيتي ومِنْبري، روضةٌ من رياض الجنة، ومِنْبري، على حوضي)(١).

٢ ـ **وروى البخاري أيضاً عن عُقْبَة رضي اللّه عنه** (أن النبيَّ ﷺ خرج يوماً فصلّى على أهل أُحُد، صلَاتَه على الميِّت، ثم انصرَفَ على المنبر، فقال: إني فَرَطٌ لكم ـ أي سابقُكم للشفاعة ـ وأنا شهيد عليكم، وإني واللّهِ لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أُعطيتُ مفاتيحَ خزائن الأرض ـ أي أرزاقها ـ وإني واللّه ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكنْ أخاف عليكم أن تَنَافسُوا فيها)(٢).

أي أخشى عليكم من التسابق لجمع حُطَام الدنيا، ونسيان العمل للآخرة.

٣ ـ **وفي الحديث الشريف** (حوضي مسيرةُ شهر، ماؤه أبيضُ من اللَّبن، وريحه أطيبُ من المسك، وكيزانُه ـ أي كؤوسُه ـ كنجوم السماء، من شرب منها فلا يظمأ أبداً)(٣).

٤ ـ **وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه** أن النبي ﷺ قال: (لَيَرِدَنَّ عليَّ ناسٌ من أمتي الحوضَ، حتى إذا عرفتُهم، اختُلجوا من دوني ـ أي

(١) الحديث أخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٩٧ ورواه البخاري بدون ذكر (ومنبري على حوضي).
(٢) الحديث أخرجه البخاري في الجنائز برقم (١٣٤٣).
(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ١٥ ومسلم رقم (٢٢٩٨).

اختُطفوا بسرعة ـ فأقول: أي ربِّ، أصحابي ـ أي هؤلاء من أمتي ـ فيقال لي: لا تدري ما أحدثوا بعدك؟ إنهم ارتدُّوا بعدك على أدبارهم، فأقولُ: سُحقاً لمن بدَّل بعدي)[١].

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/ ٤١٢ ومسلم رقم (٢٣٠٤).

الدار الآخرة
الاعتقادُ بالمقام المحمود لسيِّد الخلق ﷺ

وردَ في القرآن الكريم ذكرُ (المقام المحمود) الذي اختصَّ اللَّه به سيِّد الخلق، نبيَّنا محمداً ﷺ، وذلك في قول اللَّه جلَّ شأنه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩].

قال ابن عباس: (المقامُ المحمودُ) هو مقامُ (الشفاعة العظمى) لسيِّد الخلق ﷺ، و(عسى) من اللَّهِ واجبةٌ أي حقٌّ على اللَّه أن يبعثك مقاماً محموداً[١].

وقد جاء في الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: (يجمع اللَّه الناس يوم القيامة، فيفزع الخلائق إلى الأنبياء، ليشفعوا لهم عند اللَّه تعالى، فيأتون (آدم) فيقولون له: اشفَعْ لنا عند ربك، ليريحنا من كَرْب هذا اليوم! فيقول: لستُ لها، لست لها، ـ أي ليس مقام هذه الشفاعة لي اليوم ـ اذهبوا إلى (نوح) فيأتون نوحاً فيقول لهم مثلَ ما قال آدم، فيذهبون إلى (إبراهيم) ثم إلى (موسى) ثم إلى (عيسى بن مريم) وكلٌّ واحد يُحيلهم إلى الآخر.

حتى يأتون محمداً ﷺ خاتم المرسلين، فيقولون له: أَلَا ترى ما بنا!؟ أَلَا تشفع لنا عند ربك!؟ فيقول: أنا لَهَا، أنا لَهَا! ثم يذهب يستأذن ربه في الشفاعة، فيؤذن له، فيخرُّ ساجداً، ويدعو ربه بدعاءٍ يلهمه اللَّه إياه، قال: فيدعني ما شاء اللَّه، ثم يُقال: يا محمد، ارفعْ رأسك، وسلْ تُعطَ، واشفع تشفَّع، فأشفع للخلائق يوم القيامة)[٢]، فذلك هو (المقامُ المحمودُ) الذي وعده اللَّه إياه، وهو الشفاعة العظمى.

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ٥٣.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد ١٣/ ٣٩٥ ومسلم رقم (١٩٣) في الإيمان.

الدار الآخرة
نعيمُ أهل الجنة في القرآن الكريم

من مستلزمات الإيمان أن يعتقد الإنسانُ بالجنة، ويوقن إيقاناً قاطعاً لا يمازجه شيء من الشك، بالجنة دار المتقين، وما أعدَّه اللَّه لعباده الصالحين فيها، من أنواع الخيراتِ والكرامة، ممَّا لا يخطر على بال أحد من البشر، فإنَّ هذا النعيم أمرٌ مقطوع به، لأنه خبرُ اللَّهِ الصَّادق، الذي لا يرتاب فيه مؤمن. !

والجنةُ في اللغة: هي الحديقةُ والبستانُ، الذي يكثر فيه الشجر والثمر، سُمّيت (جنة) لكثرة أشجارها، وثمارها، وخيراتها، قال اللَّه تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

هذه البشارة بجنات النعيم، تكون للمؤمن عند احتضاره، حيث تنزل به ملائكة الرحمة، فتبشِّرُه بالرحمة والمغفرة والرضوان، ودخولِ الجنان التي فيها ما لا يخطر على البال، من أنواع النعيم والكرامة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: قال اللَّه تعالى ـ يعني في الحديث القدسي ـ: (أعددتُ لعبادي الصَّالحين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بشر، واقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[١] [السجدة: ١٧].

ويؤيِّد هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال:

(مَنْ يدخل الجنةَ يَنْعمُ ولا يبأس ـ أي لا يصيبه حزنٌ ولا كَدَرٌ ـ لا تبلى ثيابُه، ولا يَفْنَى شبابُه، في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بَشَر)[٢].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في التفسير رقم (٤٧٧٩) ورواه مسلم رقم (٢٨٣٦).

(٢) رواه مسلم برقم (٢١٨١).

أسماءُ الجنة في القرآن الكريم

للجنَّةِ أسماءٌ عديدة، ذكرها لنا القرآنُ الكريم، تسمى (جنَّةَ الخلد) و(جنَّةَ عدن) و(جنَّةَ النعيم) و(جنَّةَ الإقامة) و(جنَّةَ الفردوس) و(جنَّةَ المأوى).

وكلُّ هذه الأسماء وأمثالُها كثير، وَرَدَ ذكرها في الكتاب العزيز.

قال اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ومعنى العَدْن: الإقامةُ الدائمة، من قولهم عَدَنَ بالمكان: أقام فيه.

وقال تقدست أسماؤه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [فاطر: ٣٣].

وقال عزَّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩].

أوصاف الجنَّة في السنَّة النبويَّة

ولنستمع إلى هَدْي النبيِّ الكريم، وهو يتحدَّث عن الجنة، وما أعدَّه اللَّه فيها لعباده المؤمنين المتقين.

فيقول صلواتُ اللَّه وسلامه عليه:

(إذا دخل أهلُ الجَنَّةِ الجنَّةَ، ينادي منادٍ ـ يعني من الملائكة ـ: إنَّ لكم أن تحيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أَنْ تَصِحُّوا فلا تسقموا أبداً ـ أي لا تمرضوا فيها أبداً ـ وإنَّ لكم أن تشِبُّوا فلا تَهْرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تَنْعموا فلا تبأسوا أبداً)[١].

● **وروى البخاري ومسلم** عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال:

(إنَّ أولَ زمرة يدخلون الجنة، على صورة القمر ليْلَة البدر، ثم الذين يَلُونهم ـ أي يدخلون بعدهم ـ على أشدِّ كوكبٍ دُرِّي في السماء إضاءَةً، لا يبولون ولا يتغوَّطون ـ أي لا تخرج منهم فضلات الطعام والشراب ـ ولا يَتْفُلون ولا يَمْتَخِطون!

أمشاطُهم: الذَّهبُ، ورَشْحُهم: المسكُ، ومجامِرُهم: الألُوَّة ـ عودُ الطيب ـ أزواجُهم: الحورُ العين، على صورة أبيهم آدم ـ عليه السلام ـ ستون ذراعاً في السماء)[٢] وزاد في رواية: (يسبِّحون اللَّه بُكرةً وعشياً).

● **وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه** أن رسول اللَّه ﷺ قال: (إن اللَّه عزَّ وجلَّ يقول لأهل الجنة: يا أهلَ الجنة، فيقولون: لبَّيك ربَّنا وسعديك، والخيرُ في يديك!!

فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربَّنا، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من العالمين!؟

---

(١) أخرجه مسلم في صفة الجنة رقم (٢٣٤١) والترمذي رقم (٣٢٤١).

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٦/ ٢٣٢ ومسلم رقم (٢٨٣٤).

فيقول: **أَلَا أُعطيكم أفضلَ من ذلك؟** فيقولون: وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً)[١].

رؤيةُ المؤمنين للَّه جلَّ وعلا في الجنة

- وروى البخاريُّ في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال:

(جنَّتان من ذهب، آنيتُهما وما فيهما، وجنَّتان من فِضَّة آنيتُهما وما فيهما.. وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم، إلَّا رداءُ الكبرياء على وجهه، في جنَّة عدن)[٢].

- **وعن أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه،** أن النبي ﷺ قال:

(إنَّ في الجنة لخيمةً، من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوَّفة، طولُها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أَهْلُون ـ من الحور العين ـ يطوف عليهم المؤمنُ، فلا يرى بعضُهم بعضاً)[٣].

أقلُّ أهل الجنة منزلةً يوم القيامة

- **وإذا أردنا أن نتصوَّر نعيمَ أهل الجنة،** وما لكلٍّ واحد من أهل الجنة، من المُتْعة والنعيم، والدور، والحور، والقصور، فيكفينا أن نعرف أن أقلَّ أهل الجنة منزلةً يوم القيامة، من له قدرُ الدنيا وعشرةُ أمثالها، وهذا آخرُ من يخرج من النار، ويدخل الجنة، يعطيه اللَّه عزَّ وجلَّ قدرَ الدنيا وعشرةَ أمثالِ سَعَتها، فكيف بالسابقين المقرَّبين!؟

إنَّ نعيمهم وجزاءَهم، أضخمُ وأعظم ممَّا يتصوَّر، وهنا ندرك سِرَّ قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

- **ولْنستمع إلى ما قاله الرسول ﷺ،** وهو يُحدِّث أصحابه عن نعيم أهل الجنة، فيقول صلوات اللَّه وسلامه عليه، في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم:

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب صفة الجنة والنار ١١/ ٣٦٣ ومسلم رقم (٢٨٢٩).

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة الرحمن ٨/ ٤٧٩ ومسلم في الإيمان رقم (١٨٠).

(٣) الحديث أخرجه البخاري في باب صفة الجنة والنار ٦/ ٢٣٩ ومسلم رقم (٢٨٣٨).

(إني لأعلمُ آخرَ أهل النَّارِ خروجاً منها، وآخرَ أهل الجنَّةِ دخولاً الجنَّةَ!! رجلٌ يخرج من النَّارِ حَبْواً ـ يعني زحفاً ـ فيقول اللَّه عزَّ وجلَّ له:

إذهبْ فادخل الجَنَّة، فيأتيها فيخيَّلُ له أنها ملأى، فيرجعُ فيقول: يا ربّ: جئتُها فوجدتُها ملأى!! ـ أي لا مكان لأحدٍ فيها ـ.

فيقول اللَّه عزَّ وجلَّ له: اذهبْ فادخل الجنة!!

فيأتيها، فَيُخيَّل إليه أنها ملأى!! ـ يعني في المرة الثانية ـ فيرجع فيقول يا رب: جئتُها فوجدتُها ملأى!!

فيقول اللَّه عزَّ وجلَّ له: اذهب فادخل الجنة، فإنَّ لك مثْلَ الدنيا، وعَشَرة أمثالها!!

فيقول العبد: يا ربّ، أتسخرُ بي وأنتَ الملِكُ!؟

قال ابن مسعود: راوي الحديث: (فلقد رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ ضَحِك حتى بدتْ نواجذُه ـ أي أنيابه التي بعد الأسنان ـ فكان ﷺ يقول: (ذلك أدنى أهلِ الجنة منزلةً يوم القيامة)[١].

والمراد من الحديث: أن النبيَّ ﷺ ضحك ضحكاً شديداً، من مجادلة العبد لربه، حين قال: أتسخر بي وأنت الملِكُ؟

فهذا الرجل الذي يأتي أبواب الجنة ليدخلها، فيتخيَّل له أنها مملوءة، ليس فيها موضع قَدَم واحد، فيذهب إليها ثم يرجع ثلاث مرات، وهو يتصوَّرُ أنها مملوءة، وحين يقول اللَّه له: إنَّ لك قدْرَ الدنيا وعشرة أمثالها، يظنُّ أن اللَّه يهزأ منه ويسخر، ولهذا ضحك النبيُّ ﷺ ضحكاً شديداً، وأخبر أن هذا النعيم، لأقلِّ أهل الجنة منزلة يوم القيامة.

عظمة نعيم أهل الجنة

لقد رغَّب تعالى عباده المؤمنين، بالجنة التي أعدَّها اللَّهُ للمتقين، وما فيها من أنواع الكرامة والنعيم، ووَصَفها لهم وصفاً دقيقاً بديعاً، في غاية الوضوح والبيان، كأنها رأيُ عين، فذكر فيها (الأنهار، والأشجار، وأنواع

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ١١/٣٨٦ في الرِّقاق ومسلم رقم (١٨٦) في الإيمان.

الفواكه والثمار، وذكر فيها الحُليَّ والحُلَل، والحورَ والغِلمان والولدان، والعيون المتدفِّقة بالماء السلسبيل، وأنهارَ اللَّبَن والعسل، والخمر الممزوجة بالكافور.

وذكر الظِّلالَ الوارفة، والقطوف الدانية، والأكوابَ، والأباريقَ، من الذهب والفضة، والأسرَّة الذهبية المزيَّنة بفاخر الثياب والسُتور وسائر النعيم الدائم الخالد، الذي لا يشبهه نعيم، ممَّا لا يكاد يخطر على بال).

وكلُّ هذا الوصفِ، لتقريب أمر الجنة إلى أذهان العباد، وإلَّا فإنَّ ما في الجنة من النعيم، لا يمكن تصوُّره ولا استيعابه!!

ويكفي ما جاءنا في الكتاب العزيز، من الإجمال الجامع البارع، لوصف نعيم أهل الجنة، في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقوله تعالى في الحديث القدسي (أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر)(١) فحاولْ بخاطرك أن تتصور قَدْرَ هذا النعيم، وعظمةَ هذا الفضل والعطاء، الذي سيكون جزاء كل مؤمن محسن، في دار الخُلد والكرامة؟!

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٦/ ٢٣٠ ومسلم رقم (٢٨٢٤).

نعيمُ أهل الجنة من سورة الدهر

ولنأخذ نموذجاً عن نعيم أهل الجنة، من السورة الكريمة التي تسمى (سورة الدهر) حيث يقول جلَّ ثناؤه:

توضيح معنى الآيات الكريمة:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

لقد جاء الحديث في هذه الآية عن (شراب أهل الجنة)، فبيَّن جلَّ شأنه أن المؤمنين الأبرار، الذين كانوا في الدنيا محسنين، يشربون في الجنة كأساً من الخمر، ممزوجة بأنْفَس أنواع الطِّيب، وهو (الكافور) الذي هو أطيبُ أنواع الطِّيب، هذا الكافور يتدفَّق من عينٍ جارية من عيون الجنة، ولهذا قال تعالى بعده: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

أي هذا الكافور يتفجَّر من عينٍ جارية، يشرب منها عباد اللّه الأبرار، يُجْرُونها حيث شاؤوا من منازلهم وقصورهم في الجنة، تفجيراً سهلاً لا يمتنع عليهم، لأنَّ كلَّ ما في الجنة من الأنهار والأشجار، والظلال، والثمار، منقادٌ لأهل الجنة، فالأشجار تتدلَّى أغصانها لِيَسْهُل على المؤمن قطفُ ثمارها، كما قال سبحانه: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٢ ـ ٢٤] كذلك العيونُ تتدفَّق على قصورهم، دون جُهدٍ ولا تعب.

شرابُ أهلِ الجنة

الكأسُ إذا أُطلقت في القرآن الكريم، فإنما يُراد بها (كأسُ الخمر).

قال ابن عباس: (كلُّ كأسٍ في القرآن، فإنَّما عَنَىٰ بها الخمر) وهو المعروف عند العرب، كما قال الشاعر:

فَمَا زَالَتِ الكَأْسُ تَغْتَالُنَا وَتَذْهَبُ بالأَوَّلِ فالأَوَّلِ[1]

هذا شراب أهل الجنة (الخمرُ) اللذيذةُ الطعم، الشهيَّةُ لكل إنسان، ليس فيها ما يُسكر، أو يُذهب العقل، إنما هي لمجرد اللَّذة، كما وصفها تبارك وتعالى بقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۞ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ ـ ٤٧].

أي يطوف عليهم خَدَمُ الجنة، بكؤوس الخمر، من نهرٍ جارٍ يجري من عيون الجنة، كما تجري الأنهار، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

هذه الخمر بيضاء أشدُّ بياضاً من اللَّبن، يتلذَّذ بها مَنْ شَرِبها ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي ليس فيها ما يغتال عقولهم فيسلبها، كما تفعل خمر الدنيا ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي ولاهم يَسْكَرون بشربها.! يُقال: نَزَفَ الشارب: إذا ذَهَبَ عقلُه من السُّكر.

❁ ❁ ❁

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٥ من المختصر.

ملابسُ أهلِ الجنة

أمَّا ملابسهم في الجنة: فهي الحريرُ الناعم بأنواعه، الرقيقُ منه والثخينُ، قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

أي أثابهم بسبب صبرهم على الطاعة، والبعدِ عن محارم اللَّه، جنةً واسعة يسكنونها، فيها من كل ما تشتهيه الأنفُس، وألْبَسَهم فيها ملابس الحرير، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

وهذا الحرير منه ما هو رقيق ـ وهو السندس ـ ومنه ما هو ثخين يشبه الديباج ـ وهو الاستبرق ـ كما قال سبحانه: ﴿عَلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] أي يعلو أهلَ الجنة الثيابُ الحريريةُ الخضراء، المزيَّنةُ بأنواع الزينة، منها ما يكون من الحرير الرقيق، وهو (السندسُ)، ومنها ما يكون من الحرير الثخين وهو (الإستبرق).

وإنَّما قال سبحانه ﴿عَلِيَهُمْ﴾ لينبّه تعالى أنَّ لهم عدة ثياب، ولكنَّ الذي يعلوها هو الحريرُ، فيكون أفضَلَها وأجمَلَها!!

وهذا الحريرُ لونُه أخضر، ليتناسب مع خُضرة الجنة، وإلى ذلك يشير قولُه تعالى في سورة الكهف: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

مقاعدُ أهل الجنة

أمَّا مقاعد أهل الجنة: فهي (الأرائكُ الوثيرة) المزيَّنةُ بفاخر الزينة، عليها الستائر، هذه الستائر محبوكةٌ بالدُّرِّ والياقوت. !

والأرائكُ هي: الأسرَّةُ الذهبيَّةُ، تتحرك بهم كيفما شاءوا، يقعدون عليها ويضطَّجعون، وجوهُ بعضهم إلى بعض، يتحدثون بشتَّى الأحاديث المسلّية، لا يرون في الجنة حرّاً ولا برداً.

قال اللّه تعالى واصفاً مجالسهم ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] أي مضطجعين في الجنة على الأرائك الذهبية، المزيَّنة بأفخر الزِّينة، والموشَّاة بالدرِّ والياقوت، لا يرون في الجنة حرّاً، ولا برداً، لأن هواءَها معتدلٌ.

والجنَّةُ أنوارٌ تتلألأ، ليس فيها شمسٌ تُحْرِق، ولا زمهرير ـ أي برد ـ يُتلِف، وإنما هي نسماتٌ تهبُّ من تحت عرش الرحمن، تُحْيي الأنفاسَ والقلوب.

قال الحافظ ابن كثير: أي ليس عندهم حرٌّ مزعج، ولا بردٌ مؤلم، بل هي نَمَطٌ واحد، دائمٌ سرمديٌّ، لا يبغون عنها حِوَلاً[(١)].

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ لأن الجنة دار السرور والحبور، ليس فيها ما يُنغِّص، أو يكدِّر صَفْو المؤمن، فلا همَّ فيها ولا كَدَر، ولا نَصَبَ، ولا تَعَب.

قال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ۞ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ ـ ٤٨].

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ٤٧٢.

فواكه الجنة قريبة التناول

أمَّا فواكهُ الجنَّة وثمارُها: فهي قريبة التناول منهم، تتدلَّى أغصانها ليقطفوا ما يحبُّون من ثمارها، من غير تسلُّق للأشجار، ولا تعرُّض للأخطار، كما أنَّ ظلال الجنة تدنو منهم، زيادةً في نعيمهم، وكمال راحتهم.

قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

أي دَنت عليهم ظلالُ الجنة، حتى صارت الأشجارُ بمنزلة المظلَّة عليهم، وأُدنيت ثمارها منهم، ليسهل عليهم قطفُها، من غير عناء ولا تعب، قال تعالى في سورة الحاقة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢١ ـ ٢٤].

قال ابن عباس: إذا همَّ أن يتناول من ثمارها، تدلَّت له أغصانها، حتى يتناول منها ما يريد.

وقال مجاهد: إن قام ارتفعت معه بِقَدَر، وإن قَعَد تذلَّلَتْ له حتى ينالها، وإن اضطجع تدلَّت له كذلك، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

شرابُ أهل الجنة

وبعد أن وَصَفَ اللَّه تعالى طعامهم، ولباسهم، ومسكنهم، وصف شرابهم الذي يشربونه في الجنة، فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۞ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

أي يدور عليهم الخدَمُ بالأواني الفِضِّيَّة، التي فيها لذيذُ الطعام والشراب، على عادة أهل النعيم والتَّرف في الدنيا.

ومن عجيب أمرِ هذه الأواني، أنها تجمع بين بياض الفضَّة، وصفاء الزجاج، وهذه الأكوابُ شفَّافة، وهي من فضة، ولكنها بصفاء الزجاج، يُرى الماءُ من خارجها.

قال ابن عباس: ليس في الجنة شيءٌ يُشْبِه ما في الدنيا إلَّا في الأسماء، ولو أخذتَ فضَّةً من فضَّةِ الدنيا، فضربتَها حتى جعلتها رقيقةً مثلَ جناح الذُّباب، لم يُر الماءُ من ورائها، ولكنَّ قوارير الجنة ببياض الفضَّة، مع صفاء الزجاج(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي هذه الأواني والقوارير، ليست من زجاج، وإنَّما هي من فضة، والقواريرُ في الدنيا سريعةُ الانكسار والدَّمَار، وقواريرُ الجنة لا تنكسر ولا تبلى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي على قَدْر الحاجة والرِيّ، من غير زيادة ولا نقصان.

والقواريرُ لا تكون إلا من زجاج، وهذه الأكواب من فِضَّة، وهي مع هذا شفَّافة، يُرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا ممَّا لا نظير له في الدنيا.

(١) تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ٤٧٢.

ثم قال تعالى بعده: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۞ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨].

أي يُسقى هؤلاء الأبرارُ في الجنة، كأساً من الخمر، ممزوجةً بالزنجبيل، والشَّرابُ الممزوجُ بالزنجبيل، أطيبُ ما يستطيبه العرب، وألذُّ ما يستلذُّون به، لِطيبِ رائحته، والعربُ تضرب به المثلَ ممزوجاً بالخمر.

قال الشاعر:

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ ... إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَافَةُ الخَمْرِ

هذا زنجبيلُ الجنة: اسمٌ لعَيْنٍ فيها تجري، كما تجري فيها الأنهار، يشرب بها المقرَّبون صِرْفاً - أي خالصةً - وتُمزج لسائر أهل الجنة.

ولهذا قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي يشربون من عينٍ في الجنة تُسمى (السلسبيل) أي يجري في الحلق بسهولة، لعذوبته وصفائه، فيبقى الشَّرابُ سهلَ المساغ.!

خَدَمُ أهل الجنة

أمَّا خَدَمُ أهلِ الجنَّة، فقد ذكر تعالى أنهم وِلْدانٌ، في رَيْعان الشباب، وشبَّههم باللؤلؤ المكنون، فقال جلَّ ثناؤه:

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٩، ٢٠].

أي يدور على خدمةِ أهلِ الجنة، غِلمانٌ مستمرُّون على سنِّ الشباب، باقون على النضارة، والبهجة، والطَّراوة!!

غِلْمانٌ صِبَاحُ الوجوه، لا يغيِّرهم الزَّمنُ، لا يكبرون ولا يهرمون، إذا شاهدتهم منتشرين في الجنة، خِلْتهم لحسنهم، وصفاءِ ألوانهم، وإشراقةِ وجوههم، كأنهم (اللؤلؤُ المنثورُ) المتناثرُ في أنحاء الجنة.

وإذا كان الخادمُ كاللؤلؤ، يشِعُّ بالحُسْنِ والجمال، فكيف يكون المخدوم؟ وإنما شُبِّهوا باللؤلؤ المنثور، لانتشارهم وتفرُّقهم في الجنة، انتشارَ الورود والأزهار، في الحدائق والبساتين النَّضِرة.

قال قتادة: (ما من أحدٍ من أهل الجنة، إلَّا يسعى عليه ألفُ خادم، كلُّ خادم على عَملٍ ليس عليه صاحبُه)(١).

فأيُّ عظيم في الدنيا له مثلُ هذا النعيم؟

أمَّا لماذا كلُّ هؤلاء الخدم؟ فنقول: إنَّ ما أعدَّ اللَّه للمؤمن في الجنة، أكبرُ وأعظم ممَّا نتصوَّرُ!! وقد وردَ في الحديث الصحيح (أنَّ أقلَّ أهل الجنة منزلةً يوم القيامة، من له قدُر الدنيا وعشرةُ أمثالها)(٢) فإذا كان هذا عطاؤُه تعالى، لأدنى من يكون في الجنة، فما الظنُّ بمن هو أعلى مرتبة ومنزلة؟

---

(١) انظر تفسير فتح القدير للشوكاني ٥/ ٣٤٩.

(٢) هذا طرف من حديث طويل، أخرجه البخاري، وقد تقدم كامل الحديث ص١٦٦.

حِلْيةُ أهل الجنة

أمَّا حِلْيةُ أهل الجنة التي يتزيَّنون بها، فهي: (الأساورُ الذهبيَّةُ) و(الأساورُ الفضيَّةُ) واللؤلؤُ الذي يكسو ملابسَهم الحريرية. !

قال اللَّه تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣].

وقال سبحانه في سورة الدهر: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] أي أُلبسوا في الجنة أساور فضيَّة، تَبْرُق في أيديهم من بهائها وحُسْنها، زيادةً في النعيم والتكريم.

عبَّر تعالى بالماضي ﴿وَحُلُّوٓا۟﴾ للتحقُّق، لأنَّ ما وعد اللَّهُ به حقٌّ، لا يمكن تخلُّفه، وقد كان ملوكُ الدنيا في العصور الماضية، يتحلَّوْن بالذهب والفضَّة، ويُحلُّون بها مَنْ يكرِمُونه من أعوانهم وأنصارهم.

ولهذا كان فرعونُ يَفْخَر على (موسى) عليه السلام، ويتباهى عليه، بما هو عليه من الزينة، والحُليِّ الذَّهبية، ويقول ما ذَكرَه عنه القرآن: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٢، ٥٣].

أي هلَّا زيَّنه اللَّه بالأسورة الذهبيَّة، ليكون ذلك شاهداً على نبوَّته، وعظيم مكانته، ورفعة شأنه؟ أو جاءت معه الملائكةُ يكتنفونه من حولِهِ، ويحيطون به من أطرافه، (كحَرَسِ الشَّرَف)، كما يكون لملوك وعظماء الدنيا، خدمةً له، وشهادة على صدقه!؟

فإن قيل: كيف نوفّق بين هذه الآية: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ وبين قوله في سورة الكهف: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾؟ [الكهف: ٣١].

فالجواب: أن أهل الجنة تارةً يلبسون (الذَّهبَ)، وتارةً يلبسون (الفضَّة)، وتارةً أخرى يلبسون (اللؤلؤ) على حسب ما يشتهون، ويمكن لهم الجَمْعُ بين (سوار الذَّهَب) و(سوار الفضة)، كما تجمع نساء الدنيا، بين أنواع الحُليِّ والزينة، في وقت واحد.!

وما أجمل المِعْصَم الذي تتلألأ فيه أنواع الحلية من الذهب، والفضة، واللؤلؤ؟

الدنيا دارُ تكليف والآخرةُ دار تشريف

الذهبُ محرَّمٌ لبسُهُ على الرجال في الدنيا، لأن الدنيا (دار تكليف) والآخرةُ (دار تشريف) فلا يكون في الآخرة شيءٌ محرَّمٌ، بل كلُّ ما يشتهيه المؤمنُ، حلالٌ له في الجنة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] ولهذا كان التحلِّي بالذهب والفضة ولبس الحرير، من خصائص أهل الجنة، تكريماً لهم وتشريفاً، كما أُبيح لهم الخمر في الجنة، بل فيها أنهار تجري بالخمر، كما قال تقدست أسماؤه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥] لذلك كان أمرُ الآخرة يختلف اختلافاً كبيراً عن أمر الدنيا، فما هو محرَّمٌ هنا، حلال هناك، وما عند اللَّه خير للأبرار.

هذا وقد جاء وصفُ الجنة، بإسهاب وتفصيل، في سورتين من سور القرآن، هما (سورة الواقعة) و(سورة الدهر) سنوضِّح تفسير ما ورد فيهما من روائع وبدائع في التصوير الفنيِّ، حيث ذكر تعالى في هاتين السورتين، أوصاف الجنة بالتفصيل، ونكتفي بهذا القدر من الكتاب العزيز، فنقول ومن اللَّه نستمدُّ العون:

وصفُ أهلِ الجنَّة في سورة الواقعة

وفي سورة الواقعة ذَكَرَ تعالى طَرَفاً من نعيم أهلِ الجنة، وبيَّن ما أعدَّ لهم من النعيم، في دار السعادة والتكريم، فذكر تعالى طعامهم، وشَرَابهم، وأسِرَّتَهم، وخَدَمَهم، وأنواعَ الفواكه التي تُقدَّم لهم، ممَّا لا وجود له في الدنيا، والحورَ العين التي أعدَّها اللّه لهم، إلى غير ما هنالك من أنواع النعيم والتكريم!!

قال تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ٨ ـ ١٢].

قسَم تعالى الناس في هذه السورة الكريمة، إلى ثلاثة أصناف:

- **السَّابقون.**
- **أهلُ اليمين.**
- **أهلُ الشمال.**

صنفان منهما في الجنة، وصنفٌ في النار، وهذه مراتب الناس في الآخرة، منهم شقيٌّ، ومنهم سعيد.!

ثم فصَّل تعالى أحوالهم ومنازلهم، في النعيم أو في الجحيم، فقال سبحانه ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؟ الاستفهام هنا للتفخيم والتعظيم، أي هل تعلم أيّ شيءٍ أصحاب اليمين؟ هل تعلم من هم؟ وما هي حالهم ومنزلتهم؟

إنهم السُّعداءُ الذين يُؤْتَوْن كتبهم بأَيْمانهم، ويكرَّمون في جنات الخلد والنعيم، إنهم اليومَ في سرور وحُبور، في أسعد مكان، وأرْيَحِ بال!!

ثم ذكر تعالى الأشقياء أهل النار، فقال تقدست أسماؤه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١].

أي هلَ تعلم من هم أصحاب الشمال؟ وماذا أُعدَّ لهم من العذاب؟

إنهم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، هم في أسوء حال، وشرِّ مآل.

والأسلوبُ هنا تفظيعٌ لما نالوه من الشقاء والهلاك، وتعجيبٌ من حالهم في دخولهم النار، كأنه يقول: أصحابُ اليمين (السعداء) في غاية حُسن الحال، وأصحاب الشمال (الأشقياء) في غاية سوء الحال!! وأوْجَزَ تعالى الحديثَ عنهم.

الصنف الأول

(الســابقــون)

نعيمُ السابقين في الجنة

ثم جاء التفصيل عن السعداء من أهل الجنة، فقال تقدست أسماؤه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

هذا الصنف، من السعداء الأبرار، ورثة جنة النعيم، هم الذين سبقوا الخَلْقَ لنَيْل الفضائل والمكارم، يصفهم تعالى بوصفِ السَّبق، لأنهم نالوا أرفعَ وأعلى الدرجات، وهم السابقون لفعل الخيرات، والمقرَّبون عند ربِّ العزة والجلال، وهؤلاء أعلى أهلِ الجنة منزلةً.!

إنهم (الأنبياءُ، والصدِّيقون، والشهداء) يكونون في ظل عرش الرحمن وجوراه، وقد أخبر تعالى عنهم أنهم في جنان الخُلد والنعيم، يتنعَّمون بأنواع السعادة والتكريم، نعيم القُرْب من اللَّه، والنظرِ إلى وجهه الكريم، ويستمتعون بما تشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأَعين، مع الخلود الدائم في جنات النعيم.

ثم فصَّل تعالى أحوالهم، وبيَّن أعدادَهم وأنواعَ الكرامة التي نالوها، فقال تقدست أسماؤه:

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴾.

أي هم جماعةٌ وفرقة كبيرة، من هذه الأمة المحمدية، من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وقليلٌ من الآخرين، ممن جاؤوا بعد صحابةِ رسول اللَّه ﷺ، لعجز المتأخرين أن يلحقوا بالأوَّلين، فقليلٌ من يقاربُهم بالسبق، ولهذا كان أجرُ الصحابة أعظمَ وأضخَمَ، مِنْ كلِّ مَنْ لَحِق بهم بعدهم، لأنَّ على سواعد أصحاب الرسول ﷺ قام صرحُ الإسلام الشامخ، وبتضحيتهم وجهادهم عزَّ الدينُ وانتصر!!

ثناءُ اللَّه على المهاجرين والأنصار

وقد أثنى اللَّه عليهم بقوله جلَّ ذكره ﴿وَالسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

كَما نبَّه الرسولُ ﷺ على فضلهم بقوله عليه الصلاةُ والسلامُ: (لا تسبُّوا أصحابي، فوالَّذي نفسي بيده، لو أنَّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحُدٍ ذَهباً، ما بَلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفه)(١).

هؤلاء هم (السَّابقون) لفوزهم بالدرجات العالية، في جِنان الخُلد والنعيم.!

سُرُر أهل الجنة

ثم وصف تعالى فُرَشهم وسُررهم، وما يكونون عليه من الرفاهية والنعيم، فقال عزَّ شأنه:

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ أي هم جالسون على أسرَّةٍ وأرائك، منسوجةٍ بقضبان الذهب، مرصَّعةٍ بالدُرِّ والياقوت، شأْنَ المنعَّمين المترفين، وجوهُ بعضهم إلى بعض، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، إنهم الآن في راحةٍ من الهموم والأحزان.

ومعنى ﴿مَّوۡضُونَةٖ﴾ أي منسوجة ومضفورة بالذَّهبِ واللؤلؤ، كما قال ابن عباس رضي اللَّه عنه(٢).

شرابُ أهل الجنة وخدمهم

ثم وَصَف تعالى شرابهم وخَدَمهم، وطعامهم وفاكهتهم، فقال عزَّ شأنه:

﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩].

أي يدور عليهم لخدمتهم في الجنة، أطفالٌ في نَضَارة الصِّبا، وجمال

---

(١) رواه مسلم في صحيحه رقم (٢٥٤٠) النهي عن سبِّ الصحابة.
(٢) انظر تفسير فتح القدير للشوكاني ٥/١٤٨.

الهيئة والصورة، لا يكبرون ولا يهرمون، خُلِقوا لخدمةِ أهل الجنة، يطوفون عليهم بكؤوسٍ وأقداح، فيها الخمرُ العجيبةُ الشأن، لم تُعصر كخمر الدنيا، وإنما تجري من عيونٍ دافقة في الجنة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿مَعِينٍ﴾ أي جارية من العيون، النابعة من جبال المِسْك في الجنة، وهذا نهايةُ المُتعة واللّذة التي يشعرون بها، ولهذا قال تعالى بعدها: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لا يلحقهم صُداع في رؤوسهم بشربها، ولا يسكرون فتذهب بعقولهم، كما تفعل خمر الدنيا ﴿يُنزِفُونَ﴾ أي يسكرون.

قال ابن عباس: في الخمر أربعة خصال ذميمة: (السُّكْرُ، والصُّداع، والقَيْءُ، وكثرةُ التبوُّل) وقد ذَكَر اللّه تعالى خمر الجنة، ونزَّهها عن هذه الخصال الذميمة[(١)]، فإنَّ خمر الجنة مع اللّذة المفرطة، والشدَّة المطربة، لا تذهب بالعقل.

طعامُ أهلِ الجنَّة

ثم ذكر تعالى طعامهم في الجنة، وهو (لحم الطير) ثم الفاكهة المتنوعة الطعوم والأشكال، فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي وطعامُهم لحمُ الطيور الناعمة، التي تسرح في الجنة، لا يُشْبهها شيءٌ من لحوم الدنيا، وخصَّ لحم الطير بالذِّكْرِ، لأنها في الدنيا طعامُ الملوك والعظماء، وستكون طعامَ المساكِين والفقراء، من عامَّة أهل الجنة يوم القيامة.!

قال ابن عباس: يخطر على قلبه الطَّيْرُ، فيصير ماثلاً بين يديه مشويًّا، كما اشتهى، دون عناء ولا تعب[(٢)].

وفي الحديث الشريف: (إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه، فيخرُّ بين يديك مشويًّا)[(٣)].

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٤٩ سورة الواقعة.
(٢) تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ٣٤٩.
(٣) الحديث رواه الترمذي وابنُ أبي حاتم.

ورُوي عن أنسٍ عن النبي ﷺ أنه قال:

(إنَّ طَيْرَ الجنة ترعى في شجر الجنة، كأمثال البُخت ـ أي كبيرة وسمينة ـ فقال أبو بكر رضي اللّه عنه، يا رسول اللّه: إنَّ هذه لطيرٌ ناعمة!!

فقال له ﷺ: آكلُها أَنْعمُ منها، وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها)[1].

فاكهة أهل الجنة

أمَّا فاكهة الجنة فهي ليست نوعاً واحداً، بل أنواع وأشكال كثيرة، لا تُحصى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي لهم في الجنة من أنواع الفواكه المتنوِّعة، يختارون منها ما تشتهيه نفوسهم، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [محمد: ١٥].

أي لهم فيها من جميع أنواع الفواكه والثمار، ممَّا عرفوا صورته في الدنيا، وممَّا لم يعرفوا له اسماً ولا شكلاً، لأن اللّه تعالى يُكْرِمُهم بأنواع من الثِّمار، لم تخطر على بال أحد.!

نساءُ أهل الجنة

ثم ذكر تعالى نساء أهل الجنة، فقال تقدست أسماؤه:

﴿وَحُورٌ عِينٞ * كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ * جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٤].

أي ولهم مع ذلك النعيم المقيم، نساء من الحور العِين الفاتنات، الواسعات العيون، في غاية البهاء والجمال، كأنهن اللؤلؤُ في الصفاء والنقاء ﴿ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ الذي لم تمسّه الأيدي.

هذا النعيم جزاءً لهم على أعمالهم الصالحة ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا * إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] أي لا يسمعون في الجنة باطلاً من القول، ولا فاحشاً بذيئاً من الكلام، إلَّا الكلامَ الحسن، وتحية بعضهم لبعض: سلاماً سلاماً، فحياتُهم كلُّها أُنسٌ وسرور، ومُتعةٌ ولذة، ونزاهةٌ عن كل لفظٍ قبيح.

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبي الدنيا، ورواه أحمد في المسند ٣/ ٢٢١.

صفوةُ القول في نعيم السابقين

ذَكَر تعالى في هذه الآيات، من نعيم السابقين من أهل الجنة (المجالسَ) وهي الأسرَّةُ من الذهب والفضة، المشَبَّكة بالدرّ والياقوت.

و(**الخَدَمَ**) وهم الولدانُ المخلَّدون، الذين هم في الحسن كاللؤلؤ المنثور.

و(**الشَّرَاب**) وهي خمر الجنة، تنبع من عيونٍ متدفقة.

ثم (**الفواكه والثمار**) التي لا عدَّ لها ولا حصر.

ثم (**الطعام**) الذي هو لحم الطير، الذي يأكله المؤمن كما يشتهي، مقليًّا أو مشوياً، وقدَّم الفاكهة على اللحم، لأن أهلَ الجنة يأكلون لا عن جوع، بل للتلذذ والتفكُّه، فميلُهم إلى الفاكهة أكثر، كحال الشبعان في الدنيا.

ثم ذكر (النساء) وهنّ الحور العينُ الواسعاتُ العيون، في غاية الجمال والحسن، كأنهن اللؤلؤ في النَّقاء والصفاء.

فما أروعه من نعيم!! وما أبدعه من جزاء!!

الصِّنفُ الثاني

أصحابُ اليمين

أمَّا الصنف الثاني من السعداء، الذين يكرمهم اللَّه بدخول جنات النعيم، فهم (أصحاب اليمين) عامَّةُ أهل الجنة، وهم أقلُّ مرتبةً من المقرَّبين.

ولْنستمع إلى ما أعدَّ اللَّه لهم من أنواع الكرامة والنعيم، حيث يقول تقدست أسماؤه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] الاستفهامُ للتفخيم والتعجيب من شأنهم وحالهم، أي هل تدري من هم أصحاب اليمين؟ وهل تعلم ما هو حالهم وكرامتهم عند اللَّه؟ إنهم في نعيم حسِّي ماديّ عظيم، يستمتعون بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر!!

ثم بيَّن تعالى طرفاً من سعادتهم ونعيمهم، فقال عزَّ شأنه: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ * وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣١].

أي إنهم يوم القيامة، مغمورون بالهناء والسعادة، تحت ظلال الأشجار والفواكه والثِّمار، تحت أشجار السِّدر ـ النَّبق ـ الذي لا شوك له، ومعنى (المخضود) في اللغة: الذي قُطع شوكُه، وتألَّق نبقُه، فأثمر ثمراً رائعاً بهيجاً، لا يمكن تصوُّرُ لذَّته وحلاوته!!

قصة الأعرابي مع الشجرة المؤذية

رُوي أن رجلاً أعرابياً جاء إلى رسول اللَّه ﷺ فقال يا رسول اللَّه: «إنَّ في الجنة شجرةً تؤذي صاحبها!! فقال له ﷺ: وما هي؟ قال: شجرةُ (السِّدْر) فإنَّ لها شوكاً!

فقال له المصطفى ﷺ: أليس اللَّه تعالى يقول: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خَضَدَ اللَّهُ شَوْكَه، فجعل مكانَ كل شوكةٍ ثمرة، وإنَّ الثَّمرة من ثَمَرِه تفْتِق

عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام، ما فيها لونٌ يشبه الآخر»(١).

أمَّا الطَّلحُ الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ فإنه شجر الموز، المتراكم بعضُه فوق بعض، كما ذهب إليه الجمهور، وأين موز الجنة من موز الدنيا؟ إن الواحدة منها لتُشبع الجماعة، ومهما أكل منها المؤمنُ، لا يشعر بثقلٍ في معدته، لأنها تستحيل إلى رشح، رائحتُه أشدُّ طيباً من المسك.

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي هم في ظلال تلك الحدائق البهيجة، ذات الأشجار الباسقة، لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، لأن الجنة كلُّها ظلال، وهذا الظلُّ لا يزول ولا يخسر، بل هو دائم خالد.

وقد جاء في الحديث الشريف: (إنَّ في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلِّها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾)(٢).

الحديث عن أنهار الجنة

ثم ذكر تعالى أنهار الجنة ومياهها، التي تجري تحت قصور الجنة، فقال عزَّ شأنه ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي ماءٍ جارٍ على أرض الجنة، مستمر لا ينقطع، دائم الجريان.

والمراد بالماء (أنهار الجنة)، التي تتفجَّر بالماء السلسبيل، وهذه الأنهار عجيبة، لا يُتصوَّر مثلُها في الدنيا، لأنها متنوعة، فيها أنهارٌ من الخمر، وأنهارٌ من العسل، وأنهارٌ من اللَّبَن ـ الحليب ـ وأنهارٌ من الماء العَذْب السلسبيل، كما قال ربُّ العزة والجلال في وصفِ أنهار الجنة:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ الآية [محمد: ١٥].

---

(١) الحديث رواه الحاكم ٢/ ٤٧٦ وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري في التفسير رقم (٤٨٨١) ومسلم رقم (٢٨٤٦).

فواكه أهل الجنة المتنوعة

ثم ذكر تعالى فواكه الجنة وثمارها المتنوعة، التي لا تُحصى ولا تنقطع، فقال عزَّ شأنه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[الواقعة: ٣٢، ٣٣].

أي وفواكه كثيرة متنوعة، مختلفة الأشكال والألوان، ليست بالقليلة النادرة، لأنَّها لا تنقطع كما تنقطع ثمار الدنيا في الشتاء، وليست ممنوعةً عن أحد من أهل الجنة.

وفي الحديث الشريف: (ما قُطعت ثمرةٌ من ثمار الجنة، إلَّا عاد مكانَها أخرى)(١).

وثمارُ الجنة تكون متشابهةً في الشكل، مختلفةً في الطعم، كما قال اللَّه عنها: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

وقد ورد في الأثر (أن أهل الجنة، تأتيهم الملائكةُ بأصنافٍ من الفواكه والثمار، فإذا قُدِّم إليهم يقولون لهم: هذا الذي أتيتمونا به من قبل! فتقول الملائكة: كُلْ يا عبدَ اللَّه، فاللَّونُ واحد، والطَّعْمُ مختلف).

قال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ لا تنقطع إذا جُنيت، ولا تمتنع من أحدٍ، إذا أراد أخذها، إذا همَّ أن يتناول من ثمارها، تدلَّتْ إليه، حتى يتناول منها ما يريد(٢).

فرشُ أهل الجنة

أمَّا فرشُ أهل الجنة التي يضطَّجعون عليها، فهي فوق التصوُّرِ والخيال، إنها عالية ناعمة، ترتفع وتنخفض بأصحابها، كما يحب الإنسان ويشتهي، قال اللَّه تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة.

وفي الحديث الشريف: (ارتفاعُها كما بين السماء والأرض، ومسيرةُ ما بينهما خمسُ مائة عام)(٣).

---

(١) الحديث أخرجه الطبراني، وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٣٤٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٨٦.

(٣) رواه أحمد ٣/ ٧٥ والترمذي رقم (٣٢٩٤).

قال العلامة الألوسي: ولا تستبعِدْ هذا من حيثُ الصعودُ والنزولُ، فالعَالَمُ عالَمٌ آخر، فوق طَوْر عقلك، تنخفض للمؤمن إذا أراد الجلوسَ عليها، ثم ترتفع به، واللّٰهُ على كل شيء قدير(١).

نساء أهل الجنة

ثم أخبر تعالى عن نساء أهل الجنة، وأنهن على غاية من الحُسْن والجمال، فقال عزَّ شأنه:

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي خلقنا نساء أهلِ الجنة خلقاً جديداً، في غاية الجمال والكمال، والحُسن والنضارة، وجعلناهنَّ أبكاراً أي عَذَارى، كأنه لم يَمْسسهُنَّ أحد.

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ جمع عَرُوب، وهي الزوجة المحبَّبة عند زوجها، العاشقة له، التي تأسره بلطفها ووُدِّها.

قال البخاري: عَرُوب مثلُ صبور، ويسميها أهل مكة (العَرِبة) وأهلُ المدينة (الغَنِجة) والمراد أنها التي يعشقها زوجها من حسنها ولطفها(٢).

ومعنى (أتراباً) أي متساويات في السنِّ، بناتُ ثلاث وثلاثين سنة، فليس في الجنة من نساء الدنيا عجوزٌ ولا هَرِمة، وكذا الرجال ليس فيهم شيخ ولا هرم، بل الجميع في سنِّ الشباب، والقوة والنضارة، في عمر ثلاث وثلاثين (٣٣) سنة.

ممازحةُ الرسول ﷺ للمرأة العجوز

رُويَ أنَّ امرأةً عجوزاً جاءت إلى رسول اللّٰه ﷺ فقالت يا رسول اللّٰه: أُدعُ اللّٰهُ أن يدخلني الجنة!! فمازحها ﷺ وقال لها يا أمَّ فلان: إنَّ الجنة لا تدخلها عجوز، فولَّتْ ـ أي رجعتْ ـ تبكي، فقال ﷺ لأصحابه: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز(٣)، فإنَّ اللّٰه تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧].

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي.

(٢) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل عن عبد بنِ حُميد، وانظر مختصر ابن كثير ٣/ ٣٥١.

ورُوي أن (أمَّ سَلَمة) زوجَ النبي ﷺ، سألت النبيَّ ﷺ عن قول اللّه تعالى عن نساء أهل الجنة: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ * فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا * عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ فقال لها النبيُّ ﷺ يا أمَّ سَلَمة: (هنَّ اللواتي قُبِضْن في الدنيا عجائزَ، شُمْطاً، عُمْشاً، رُمْصاً ـ أي متقطِّعاتِ الشَّعر، ضعيفات البصر، صغيرات العيون ـ جعلهنَّ اللّهُ بعد الكِبَر أتراباً، على ميلادٍ واحدٍ في الاستواء)[1].

أي في سِنٍّ وعُمْرٍ واحد، وهو بناتُ ثلاث وثلاثين سنة، فإذا كانت هذه نشأةُ العجائز الهرمات، فكيف بالصَّبايا الشابات!؟

(١) هذا طَرَفٌ من حديث رواه الطبراني، وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٢.

الصنف الثالث

أصحاب الشمال

الحديث عن أهل النار

أمَّا أهلُ النَّارِ، الكفرةُ الفُجَّار، فقد حكم اللَّه عليهم بالخلود في نار الجحيم، لا يُفَتَّر عنهم العذابُ ولا يُخفَّف، ولا يُتَصوَّر دخولهم الجنة، إلَّا إذا دخلَ الجملُ على ضخامته في ثقب الإبرة، وهذا مستحيل، كما أخبر تعالى عنهم، بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

هكذا صوَّر القرآن الكريم، استحالة دخول الكُفَّار الفُجّار، جنَّة الخلد والنعيم، بهذا التمثيل الرائع البديع، أنهم لا يدخلون الجنة بحالٍ من الأحوال، إلَّا إذا أمكنَ دخولُ الجَمَل في ثُقب الإبرة، فكما يستحيل هذا، يستحيل دخولُهم جنَّة النعيم.

و﴿سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ معناهُ: ثقبُ الإبرة، وهو تمثيلٌ في منتهى الوضوح والبيان، تيئيساً لهم من رحمة اللَّه عزَّ وجلَّ.

خلود الكافر في نار الجحيم

حُكْم خلود الكفار في نار الجحيم، أكَّدها القرآن الكريم في آيات عديدة من كتابه العزيز، اقرأ قول اللَّه تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

والخلودُ معناه: الدوام والاستمرار، إلى غير نهاية.

اقرأ قوله سبحانه عن الكفرة المجرمين: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

ومعنى ﴿مُبْلِسُونَ﴾ أي يائسون من النجاة، قانطون من رحمة اللَّه.

واقرأ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٨].

وقد تأكَّد خلود الكافر في النار، باقترانه بلفظٍ يفيد التأبيد، في قوله تعالى في سورة هود:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

أي ماكثين في جهنم على الدَّوام، ما دامت السماءُ سماءً، والأرضُ أرضاً.

وهذا اللفظُ يفيد (الخلودَ والتأبيد) فإنَّ العرب إذا أرادت أن تصف الشيءَ بالدوام أبداً، قالت: هذا دائمٌ دوامَ السموات والأرض، بمعنى أنه دائم أبداً، فخاطبهم اللَّه جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم(١).

وقال بعض المفسرين: المراد بالسمواتِ والأرضِ: سمواتُ الجنَّةِ وأرضُ الجنة، وهي دائمةٌ مخلوقة للأبد(٢).

حديث شريف حول ذبح الموت يوم القيامة

وممَّا يؤكِّد خلودَ أهلِ الجنة في الجنة، وخلودَ أهلِ النَّار في النار، ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: (إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، يُجاء بالموت يوم القيامة، كأنه كبشٌ أملح ـ أي كبش عظيم فيه بياضٌ وسواد ـ فيوقف بين الجنة والنار.

فيقال: يا أهلَ الجنة: هل تعرفون هذا؟ فيشْرَئبُّون ـ أي يمدُّون أعناقهم ليروا هذا الكَبْشَ ـ وينظرون ويقولون: نعم هذا الموتُ.!

ثم يُقال يا أهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيشرئبُّون ويقولون: نعم هذا الموت!!

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٦.

(٢) انظر كتاب (قبس من نور القرآن الكريم) ١٣/ ١٣١.

فَيُؤمر به فَيُذبح ـ أي على مرأى من أهل الجنة ومرأى من أهل النار ـ **ثم يقال**: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت.

ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[1] [مريم: ٣٩، ٤٠].

المرادُ بيوم الحسرة: (يومُ القيامة) حيث يتحسَّرُ الكافرُ والفاجر، على ما فرَّط في حقِّ اللَّه، وتشتدُّ الحسرات على الكُفَّار، حينما يعرفون خلودهم في نار الجحيم على وجه الدَّوام والاستمرار.

عقيدةُ أهلِ السنة في خلود الكافر في النار

هذه عقيدةُ أهلِ السُنَّة والجماعة: خلودُ أهل الجنة في الجنة، وخلودُ أهلِ النَّار في النار، وهو ما دلَّ عليه الكتاب والسُنّة، حيث اقترن بالتأبيد، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٦ ـ ٨].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير رقم (٤٧٣٠) ورواه مسلم رقم (٢٨٤٩).

الفصل الثامن

الإيمان بالقضاء والقدر

الفصل الثامن

الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمانُ بالقدر أعلى مراتب الإيمان، بلى هو ركنٌ هام من أركان الدين، يُبنى عليه صحَّةُ العقيدة أو فسادُها، ونجاة الإنسان أو هلاكُه، لأنه القطبُ الذي تدور حوله رحى الإيمان.!

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنه قال:

(جاء مشركو قريش إلى رسول اللَّه ﷺ يخاصمونه في القَدَر ـ أي يجادلون الرسول في أمر القدر منكرين له ـ فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٤٨ ـ ٥٠].

وفي الصحيح في قصة (جبريل) عليه السلام، حين أتى رسول اللَّه ﷺ في هيئة أعرابي، يسأله عن أمور الدين، سأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، فقال له ﷺ: الإسلام أن تشهد (أن لا إلٰه إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه) وتقيمَ الصلاة، وتؤتيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعتَ إليه سبيلاً، **قال:** صدقتَ! قال عمر: فعجبنا له يسأله ويصدِّقه!!

قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: أن تؤمن باللَّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيرهِ وشرِّه!! قال: صدقتَ.!

قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: أن تعبد اللَّهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك...)[١] إلى آخر الحديث[٢].

قال أهلُ الحديث: هذا الحديث أصلٌ من أصول العقيدة، عليه يقوم بناءُ

---

(١) تفسير ابن الجوزي ٨/ ١٣٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، وانظر جامع الأصول ١/ ٢١٦.

الإسلام، وبناءُ الإيمان الذي إذا اختلَّ ركن من أركانه، تصدَّع أمرُ العقيدة والإيمان، وقد تأكدت هذه الأركانُ الستة بقول اللَّه عزَّ وجل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥] وبقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

الأدلة على القضاء والقدر

كلُّ ما يجري في الكون، معلومٌ عند اللَّه عزَّ وجلَّ، ومسجَّلٌ عنده في اللوح المحفوظ، قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ، والأدلَّةُ على ذلك كثيرة.

الأول: **قال اللَّهُ تعالى في كتابه العزيز**: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

المراد بالكتاب المبين: (اللوح المحفوظ) الذي سجَّل اللَّه فيه كلَّ الوقائع والأحداث، فما من ورقةٍ من الشجر تسقط، إلَّا يَعْلَمُ اللَّهُ وقت سقوطها، والمكانَ الذي سقطت فيه، ولا حبَّةٍ تدخل في بطن الأرض، إلَّا يعلم مكانها، وهل تنبتُ أم لا؟ وكم تُخرج النواةُ من ثمرات، ومن يأكلها؟ ولا من شيء رطب أو جافّ، إلَّا وهو معلومٌ عند اللَّه، مسجَّلٌ في اللوح المحفوظ، فكيف تغيب عليه أعمالُ العباد، وقد أحاط عُلمه بكل ذرةٍ في الكون؟

الثاني: **وقال سبحانه**: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

المراد بالقلم ههنا: القلمُ الذي أجراه اللَّهُ بالقَدَر، حين كتَبَ مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة(١).

رُوي عن عُبادةَ بنِ الصامت رضي اللَّه عنه أنه قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: (إنَّ أوَّلَ ما خلقَ اللَّهُ القلمَ، فقال: اكتبْ، قال: يا ربّ وما

---

(١) الحديث أخرجه البيهقي والبزار.

أكتُب؟ قال: اكتب القَدَر، وما هو كائنٌ إلى الأبد)[١] رواه الترمذي.

الثالث: عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال: (إنَّ أولَ شيء خَلَقه اللَّهُ القلمَ، فأمره فكتب كلَّ شيء)[٢].

الرابع: عن عبد اللَّه بن عَمْرو بن العاص رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

(إن اللَّهَ كتب مقادير الخلقِ، قبل أن يخلق السموات والأرضَ بخمسين ألف سنة) رواه مسلم[٣].

الخامس: وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال:

(المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى اللَّهِ من المؤمنِ الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، إحرصْ على ما ينفعك، واستعنْ باللَّهِ ولا تَعْجِزْ، فإنْ أصابَكَ شيءٌ فقل: (قَدَّرَ اللَّهُ وما شاءَ فَعَل) ولا تقل: لو أنِّي فعلتُ كذا، لكان كذا، فإنَّ «لَوْ» تفتح عملَ الشيطان)[٤].

فقد دلَّ هذا الحديث على أنَّ القَدَر سابقٌ للأحداث، وأن كلَّ ما يحصل في الكون بقضاءٍ من اللَّه تعالى وتقدير، والحذَرُ لا يُنجى من القَدرِ، كما قال المصطفى ﷺ: (كلُّ شيءٍ بقَدَر حتى العجزُ والكَيْسُ)[٥].

السادس: **وعن جابر رضي اللَّه عنه أنه قال**: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: (لا يؤمنُ عبدٌ حتى يؤمنَ بالقَدَر، خيرِهِ وشرِّه من اللَّه تعالى، وحتى يعلمَ أن ما أصابَهُ لم يكن لِيُخْطِئه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصِيبَه)[٦].

أي حتى يوقن بأنَّ ما حدث له من مصيبة أو بلاء، لا بدَّ إلَّا وأن يدركه ذلك، مهما اجتهد للتخلص منها، وما صُرف عنه من بلاء فلن يصيبه، مهما قَصَد البعضُ إلحاقه به، لأن بذلك جرى القَدرُ.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذيُّ رقم (٣٣١٩).
(٢) أخرجه الحاكم والبيهقي في سننه.
(٣) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأحمد في المسند.
(٤) انظر تفسير القرطبي ١٩/ ١٣٧ والحديث أخرجه مسلم رقم (٢٦٦٤).
(٥) رواه الترمذي والنسائي.
(٦) تفسير روح المعاني للألوسي ١٧/ ١٠٩.

السابع: وعن عُبَادةَ بين الصَّامت رضي اللَّه عنه أنه قال لابنه عند الموت: (يا بُنيَّ إنك لن تجدَ طعم حقيقة الإيمان، حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئكَ، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: إن أول ما خَلَقَ اللَّه القلمَ، فقال له: اكتب! قال: يا ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة!! يا بُنيَّ إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس منيِّ)(١).

قصة الديلمي مع أُبيّ بن كعب

الثامن: وعن ابن الدَّيلميّ رحمه اللَّه تعالى أنه قال: (أتيتُ «أُبيَّ بنَ كعب» فقلت له: قد وقع في نفسي شيءٌ من القَدَر، فحدِّثْني، لعلَّ اللَّهَ أن يذهبَه من قلبي!!

فقال له أبيُّ بن كعب: لو أنَّ اللَّهَ عَذَّب أهلَ سماواته وأهلَ أرضِهِ، لعذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم.!

ولو رَحِمَهم لكانت رحمتُه خيراً لهم من أَعْمالِهم.!

ولو أنفقتَ مثلَ أُحُد ذهباً في سبيل اللَّه، ما قَبِلهُ اللَّهُ منك، حتى تؤمن بالقَدَر... ولو متَّ على غيرِ هذا لدخلتَ النَّار!!

قال: ثم أتيتُ (ابن مسعود) فقال مثلَ ذلك، ثم أتيتُ (زيد بنَ ثابت) فحدثني عن النبي ﷺ مثلَ ذلك)(٢) رواه أبو داود.

قصة عبد الواحد مع عطاء

التاسع: وروى الترمذيُّ عن عبدِ الواحدِ بن سُلَيم أنه قال:

(قدمتُ مكةَ، فلقيتُ (عطاءَ بنَ أبي رَبَاح) فقلت له: يا أبا محمد، إنَّ بالبصرة قوماً يقولون: لا قَدَر! ـ أي ليس هناك قَدَر سابقٌ قدَّره اللَّه على العباد ـ

فقال لي يا بُنيَّ: أتقرأ القرآن؟ قلتُ: نعم! فقال لي: اقرأْ سورة

(١) الحديث أخرجه البخاري كتاب التفسير.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم (٤٦٩٩) وانظر جامع الأصول ١٠/١٠٥.

الزخرف، فقرأت: ﴿حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٤].

ثم قال لي: أتدري ما أمُّ الكتاب؟ قلت: لا، **قال**: فإنه كتابٌ كتبه اللّهُ قبل أن يخلق السمواتِ والأرض، فيه أن فرعونَ من أهل النار، وفيه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] ولقد أوصى عُبادَةُ بنُ الصَّامت ابنه فقال له: يا بُنَيَّ اتَّقِ اللّهَ، واعلمْ أنك لن تتقيَ اللّهَ، حتى تؤمنَ باللّه، وتؤمنَ بالقدر كله، خيره وشرِّه، وإنْ متَّ على غير هذا دخلتَ النارَ! إني سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: إن أول ما خلق اللّهُ القَلَمَ، فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد)[١] رواه الترمذي.

أهمية الإيمان بالقضاء والقدر

من هذه النصوص القطعية من الكتاب والسنة، ندرك أهمية الإيمان بالقضاء والقدر، وأنه أحد أركان الإيمان الستة، لا يصحُّ إيمانٌ، ولا يُقبل عند اللّه عملٌ إلّا به، ومن أنكره فقد اختلَّ إيمانُه وفَسَد، فصار كمن أنكر وجود اللّه ووحدانيته، وكيف يصحُّ إيمانُ من يزعم، أنَّ اللّه تعالى لا يعلم الأشياءَ إلّا بعد حدوثها؟ أفلا يكون هذا انتقاصاً لعلم اللّه الشامل، الذي أحاط بكل شيء علماً؟ وهو سبحانه القائل: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣، ١٤].

وقد جفَّ القلمُ على علم اللّه تعالى، فلا يقع أمرٌ، ولا يحصل شيءٌ، إلّا ما عِلمَه اللّهُ وسطَّره في اللوح المحفوظ، وهو المشارُ إليه بالقضاء والقَدَر.!

قال الإمام الخطَّابي رحمه اللّه: قد يحسب كثيرٌ من الناس، أن معنى (القضاء والقَدَر) من اللّه تعالى، فيه معنى الإجبار والقهر للعبد، على ما قضاه اللّه تعالى وقدَّره، وليس الأمر كما يظنُّون، وإنما معناه الإخبارُ عن تقدُّم علمِ اللّهِ، بما يكون من أفعال العبادِ وكسبهم، وصدورِها عن علمٍ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم (٢١٥٦) وأبو داود رقم (٤٧٠٠).

منه وتقديرٍ، وإذا كان الأمر كذلك ـ أي ليس فيه إجبارٌ ولا إكراه ـ فقد بقي عليهم من بعد علم اللَّه فيهم، أفعالُهم واكتسابُهم، ومباشرتُهم تلك الأمور، عن قصدٍ وتعمُّد، وعمل إرادةٍ واختيار، وبها تقوم الحجة عليهم، وتلحقهم اللائمةُ عليها(١).

***

(١) انظر كلام الخطابي في جامع الأصول لابن الأثير ١٠/١٠٦.

إنكارُ القَدَر عقيدةُ المجوس

إنكارُ القضاء والقَدَر (عقيدةُ المجوس) وهو أمر خطير، ينبني عليه اتهامُ اللَّهِ عزَّ وجل، بعدم معرفة ما يجري في الكون، إلَّا بعد حدوثه، وهو سبحانه القائل: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

أي لا يَغيبُ ولا يخفى على اللَّه، وزنُ ذرةٍ في الكائنات والوجود، **ولا أصغر من الذرَّة ولا أكبر منها**، إلَّا وهو معلوم عند اللَّه، ومسجَّل في اللوح المحفوظ، فكيف تخفى عليه أعمال العباد؟ وكيف تغيب عنه الأحداث في العالَم؟ ولهذا عدَّ رسول اللَّه ﷺ المنكرين للقدر مجوساً، وأخرجهم من ربقة الإيمان، فقال صلوات اللَّه وسلامه عليه (لكلِّ أمةٍ مجوسٌ، ومجوسُ أمتي الذين يقولون لا قَدَر، إن مَرِضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم)(١).

قصة عطاء مع ابن عباس

● **ورُوي عن عطاء بنِ أبي رباح أنه قال:**

(أتيتُ ابنَ عبَّاس وهو يَنْزِعُ من زمزم - أي يستقي بالدَّلو من ماء زمزم - فقلتُ له: لقد تُكلِّم في القَدَرِ - أي أنكر بعضُ النَّاس القَدَر - فقال: أوَقد فعلوها؟ قلتُ: نعم، قال: فواللَّهِ الذي لا إلَهَ إلا هو، ما نزلت هذه الآيةُ إلَّا فيهم - أي في المنكرين للقدر - ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩].

ثم قال: **أولئك شرار هذه الأمة**، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلُّوا على موتاهم، لو رأيتُ أحداً منهم، لفقأتُ عينيه بأُصْبُعيَّ هاتين).

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم (٤٦٩٢) وانظر جامع الأصول ١٠/ ١٢٩ وجامع البيان تفسير الطبري ١٢/ ١١٧.

قصة الوليد مع أبيه عُبادة بن الصَّامت

- **وروى الإمام أحمد عن الوليد بنِ عُبادةَ بين الصامت أنه قال:**

(دخلتُ على عُبادةَ ـ أي على أبي ـ وهو مريضٌ أتخايل فيه الموت ـ أي أتوقَّع موته من ملامح وجهه ـ فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهدْ لي فيما ينفعني!! فقال: أجلسوني، فلمَّا أجلسوه قال لي: (يا بُنَيَّ، إنك لن تَطْعم الإيمان ـ أي لن تذوق طعم الإيمان ـ ولن تبلغ حقَّ حقيقة العلمِ باللَّه عزَّ وجلَّ، حتى تؤمنَ بالقَدَر خير وشرِّه!!)

قلت يا أبتاه: وكيف لي أن أعلمَ ما خيرُ القَدَرِ وشرِّه؟

قال: أَنْ تعلمَ أنَّ ما أخطأكَ لم يكن ليُصيبَك، وما أصابك لم يكن، ليُخْطِئَك!!

يا بُنيَّ إني سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: إنَّ أوَّلَ ما خلق اللَّهُ القَلَم، ثم قال له: اكتبْ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، يا بُنيَّ: إن متَّ ولستَ على ذلك ـ أي على الإيمان بالقضاء والقدر ـ دخلتَ النَّارَ)[(١)].

ويؤيِّد هذا الذي قاله عُبادة بن الصامت، ما أوصى به رسولُ اللَّه ﷺ ابنَ عباس وهو غلام يافع فقال له: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللَّه عليك، رُفعت الأقلامُ وجفَّت الصحف)[(٢)] رواه الترمذي.

قال الحافظ ابن كثير ٣/ ٤١٠ بعد أن أورد هذه الروايات العديدة: (ولهذا يستدلُّ بهذه الآية الكريمة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] أئمةُ أهلِ السُنة على إثباتِ قَدَرِ اللَّهِ السابقِ لخلقه، وهو علْمُه تعالى الأشياءَ قبل كونها، وكتابتُه لها قبل بَرْئها ـ أي قبل إيجادها ـ وردُّوا بهذه الآية وبما شَاكَلَها على الفرقةِ القَدَريَّة، الذين ظهروا في أواخر عصر الصحابة.

---

(١) رواه أحمد في المسند.

(٢) الحديث رواه الترمذي وهو حديث مشهور.

حكمةُ القضاء والقدر

من هنا يظهر لنا بجلاء، أن كلَّ ما يجري في الكون من أحداث، وحروب، وفواجع، وفيضانات، وزلازل، وما يحصل من البشر من أعمال، خيراً كانت أو شرًّا، وما يقع من أمراض، وأوصاب، وأحداث مؤلمة، كلُّها يعلمها اللَّهُ قبل حدوثها، كما قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

أي ما تحدث من مصيبة في الأرض، ولا في البشر من (قحط، وزلزال، ومرض، وكرب، وبلاء) إلَّا وهي مكتوبة مثبتةٌ في علم اللَّه تعالى، من قبل أن نخلق الخلق، وننشئ البريَّة، وهي مسجلة في اللوح المحفوظ، وإثبات ذلك ـ على كثرته ـ سهلٌ يسير على اللَّه عزَّ وجلَّ.

ثم بيَّن تعالى الحكمة من الإيمان بالقدر فقال عزَّ شأنه:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

أي أعلمناكم بذلك، كيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، ولكيلا تَبْطَروا بزهرة الحياة الفانية، ولتعلموا أن كل ما يحدث لكم من غنى وفقر، وصحة ومرض، إنما هو بعلم اللَّه، وتقديره وتدبيره، واللَّه تعالى لا يحبُّ كل متكبِّر، يفخر على الناس بما رزقه اللَّهُ، من مالٍ وجاه، وعزٍّ وسلطان. !

والمراد بالحزن والفرح في الآية: الحزنُ الذي يوجب القنوطَ واليأسَ، والفرحُ الذي يورثُ الكِبْرَ والبَطَر.

قال ابنُ عباس: (ليس من أحدٍ إلَّا هو يحزنُ ويفرحُ، ولكنَّ المؤمنَ يجعل مصيبتَه صبراً، وغنيمتَه شكراً)[١].

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير ٣/ ٥٢٩.

يريد أن المؤمن إذا عرف أن كلَّ ما يحدث عليه، من مصائبَ ونكبات، إنما هو بقضاءِ اللَّه، استسلم لحكم اللَّه، فاستراح قلبُه واطمأنَّ، وصبر على المصيبة، فشعر بالراحة والرضى.

ولهذا قال المصطفى ﷺ: (عجباً لأمرِ المؤمنِ!! إنَّ أمرَه كلَّه له خيرٌ!! وليس ذلكَ لأحدٍ إلَّا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ ـ أي نعمةٌ تسرُّه ـ شكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاءُ ـ أي مصيبة تضرُّه ـ صَبَرَ فكان خيراً له)(١).

إنَّ المؤمنَ الصادقَ، يعلم أن ما أصابه من بلاء، إنما كان بقضاءٍ سابق، فيصبر لقضاء اللَّه، ويرضى بما قدَّره اللَّه عليه، فيسعد ويهنأ، أمَّا الكافر الذي لا يؤمن بقضاء اللَّه، فإن المصيبة تعظم عليه، ولا يجد التخلُّص منها، إلَّا بقتل نفسِه بالانتحار، فيزيد كربُه، ويتضاعف عذابه، وكم سمعنا من أناسٍ انتحروا لخسارةٍ فادحة أصابتهم؟ فالإيمانُ عصمةٌ من البلاء، والكفر سببٌ للشقاء.

في المصيبة ثلاثُ نِعَم

قال عمر رضي اللَّه عنه: ما أصابتني مصيبة إلَّا وجدتُ فيها ثلاثَ نِعَم:

الأولى: أنها لم تكن في ديني.

الثانية: أنها لم تكن أعظم مما كانت.

الثالثة: أن اللَّه تعالى وعد عليها بالأجر والثواب العظيم.

وتلا قول اللَّه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

---

(١) الحديث رواه الترمذي وأحمد في المسند.

تعريف القضاء والقدر

حتى ندرك سرَّ معرفة (القضاء والقدر) الذي هو من أهمِّ أركان الإيمان، لا بدَّ لنا أن نفهم معنى القضاء، ومعنى القَدَر، على الوجه الشرعي الصحيح، حتى لا يذهب الوهمُ ببعض ضعفاء الإيمان، أو بعض الجهلة، فيقولوا: كيف يقدِّر اللَّهُ العليمُ الحكيمُ الكفرَ والضلالَ، وفعلَ المنكر والمعصية على الإنسان، ثم يعاقبه عليها؟ أليس هذا يتعارض مع العدل الإلٰهي؟ يحكم عليه بالشقاء، ثم يأخذه بالعقوبة، على حدِّ قول القائل:

أَلْقَاهُ فِي اليَمِّ مَكْتُوفاً وَقَالَ لَهُ   إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالمَاءِ

والجواب: أنَّ هذا جهلٌ بمعنى (القضاء والقدر)، ولو اتَّضحَ للإنسانِ معناه الشرعيُّ على الوجه الصحيح، لذهب ذاك الوهمُ، وانتفت الشبهةُ، ونحن بمشيئة اللَّه تعالى، سنوضِّح الأمر، لنزيحَ عن وجه الحقِّ، ما لَحِقَ به من ظلمةِ الجهل والباطل، فنقول ومن اللَّه نستمد العون:

ما معنى القضاء والقَدَر؟

معنى القضاء: القضاء هو: علمُ اللَّهِ الأزليُّ بما كان، وبما سيكون، وبما هو كائن، حتى يرث اللَّهُ الأرضَ ومن عليها وإليه يُرجعون!

معنى القدر: أمَّا القَدَرُ: فهو وقوعُ الأمور، والأحداث، والنوازل، على حسب العلم الإلهي السابق، الذي سُجِّل في اللوح المحفوظ!!

وتوضيحاً لهذا التعريف نقول: إن اللَّه تعالى قبل أن يخلقنا، يعلم المؤمنَ من الكافرَ، والبَرَّ من الفاجر، والمطيع من العاصي، ويعرف كلَّ ما جرى في الكون، وما سيجري فيه، قبل أن يخلقنا، وقبل أن يخلق السموات والأرض، وقبل أن تقع كلُّ تلك الأحداث المفجعة التي تحيق بالبشر، كما دلَّتْ عليه النصوصُ الكريمة، مثلُ قوله تعالى موضِّحاً علمَهُ الشَّامل الكامل:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۞ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۞ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١٠].

هل عرفنا سعةَ علم اللّه تعالى؟ وهل أدركنا ما تعنيه من حقائق غيبيَّة، لا يصل إليها خيال الإنسان؟

اللّهُ وحده المختصُّ بعلم الغيب

إنه تعالى يبيِّن لنا أنه وحده، الذي اختصَّ بعلم الغيب، فهو الذي يعلم ما تحمله كلُّ أنثى في بطنها، هل هو ذكرٌ أم أنثى؟ تامٌّ أم ناقص؟ حسن أم قبيح؟ يعلم كلَّ شجرة، وكلَّ ثمرة، وكلَّ قطرة تنزل من السماء، ويعلم ما تسقطه أرحامُ الأمهات، فيلد ميتاً، وما يلد على التمام والكمال.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي كلُّ شيء عنده بتقدير وتدبير، لا يتخطَّاه، لأنه الذي أحاط بكل شيء علماً، فهو مرتبطٌ بالقَدَر الإلٰهي المحكم، الذي لا تشذُّ عنه أدنى ذرة.

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي هو سبحانه العالمُ بما غاب عن الأنظار، وبما يشهده الخلائق مما يجري في الليل والنهار، كلُّ ذلك في علمه تعالى، وهو العظيم الكبير، المتعالي على عباده بعظمته وجلاله، وهذا بيانٌ لكمالِ علمه سبحانه، وكمالِ قدرته وسلطانه.

وقولُه سبحانه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

فيه زيادةُ توضيح وبيان، لعلمه التامِّ الكامل، أي يستوي في علمه تعالى، ما أضمرتْه القلوبُ من خفايا وأسرار، وما نطقت به الألسنةُ، يعلمُ من هَمَسَ بالكلام سرًّا، أو نطق به جهراً، ويستوي في علمه من هو مستترٌ في ظلام الليل يعمل القبائح، ومن يأتي بها في وَضَح النهار، لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد!! هذا العلمُ الواسعُ الذي أثبته اللّهُ في اللوح المحفوظ هو (القضاءُ والقدر) لا يختلف مع علمه المحيط بمقدار ذرة.

توضيح ابن كثير لمعنى القضاء والقدر

قال الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وهذه الآيةُ الكريمة، يستدلُّ بها أئمةُ أهل السُّنَّة، على إثبات قَدَر اللَّه السابقِ لخلقه، وهو علْمه الأشياءَ قبل كونها، وكتابتُها لها قبل بَرْئها، وهي من أدلِّ دليل على القَدَريَّة، نُفاةِ علمِ اللَّهِ السَّابق، قبَّحهم اللَّه تعالى[1].

الإنسانُ مُؤاخذٌ بكسبه وعمله

ارتباطُ القَدَرِ بعلمِ اللَّه تعالى، أمرٌ ثابت مقطوع به، فلا يحدث شيءٌ في الكون إلَّا بعلمه، ولا يَنفُذُ قضاءٌ إلَّا بتدبيره، واللَّهُ سبحانه وتعالى، لا يؤاخذُ البشرَ، ولا يعاقبهم استناداً إلى علمه، إنما يجري حسابُهم وعقابُهم، على عَمَلهم وكسبِهم، فللَّهِ تقديرٌ سابق، مرتبطٌ بالعلم، وللعبادِ كسبٌ واختيار، مرتبطٌ بالعمل.

يقول اللَّه تعالى يوم القيامة لأهل الجنة: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

ويقول أيضاً: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

ويقول لأهل النار: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

ويقول للكُفَّار الفُجَّار: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢]. أي هل تُجزون إلَّا بما كسبته أيديكم، من الآثام والإجرام؟

واقرأ قولَ ربِّ العزة والجلال ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

أيْ أيُّ منفعةٍ للَّهِ عزَّ وجلَّ في تعذيبكم، إن شكرتم ربكم وآمنتم به؟ هل يتشفَّى من الغيظ؟ أم يدرك به الثأر؟ أم يجلب به النفع؟ أم يدفع به الضُرَّ؟ واللَّه شاكر لطاعة العباد، عليم بجميع أحوال البشر.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري كما في ابن كثير ٣/ ٥٢٩.

تصورٌ خاطئ قبيح لمعنى القدر

من الخطأ الفاحش والجهل القبيح، أن يتصوَّر مخلوق أنه لولا (القضاءُ والقدر) لكان بمقدور الإنسان أن يصبح مؤمناً صالحاً، مستقيماً على أمر اللّه، سالكاً طريقَ الخير والسعادة، وأن يعيشَ في هذه الحياة، كما يعيشُ المؤمنون الأبرار، على الطاعة والاستقامة، وحبِّ الخير، ولكنَّ القَدَر سَبَق بكتابته في ديوان الأشقياء.

ويقولون: السعيدُ سعيدٌ، والشقيُّ شقيٌّ من الأزل، وليس بالإمكان، تبديلُ ما قدَّره اللّه عليه وقَضَاه!!

والجوابُ عن ذلك: أن هذا التصوُّرَ من وحي الشيطان، الوسواسِ الخنَّاس، وهو كذبٌ وافتراء على اللّه، فاللّهُ تبارك وتعالى، أجلُّ وأحكمُ، وأعدل، من أن يحكم على إنسانٍ بعملِ الشر، وفعل القبيح، ثم يعاقبه عليه، وهو القائل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

هذا جهلٌ بالحقيقة، وعدوانٌ على العدالة الإلٰهية، فالربُّ جلَّ جلالُه، بيَّن للعباد الطريقَ، ومنحَ الإنسانَ القدرةَ على فعل ما يختارُه، من كفرٍ وإيمان، أو طاعة وعصيان، مع كمال الاختيار، لفعل ما يشاء، بعد أن رَزَقه العقلَ، وأرسل له الرسل، مبشِّرين ومنذرين، وأرشده إلى الطريق القويم ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

احتجاج الكفار بالقضاء والقدر باطلٌ

احتجَّ المشركون على كفرهم وإجرامهم، بالقضاء والقدر، وزعموا أنَّ ما هم عليه من الكفر والإشراك، واقعٌ بمشيئة اللّهِ، وكذلك ما هم عليه من المعاصي والآثام، كلُّها بقضاءٍ من اللّه وقَدَرَ، فهم على زعمهم معذورون عند اللّه سبحانه وتعالى.!

هكذا زيَّن لهم الشيطانُ أن يكفروا ويفسقوا، ثم يتعلَّلوا بالقضاء والقَدَر، لدفع المسؤولية عنهم، وقد حكى عنهم القرآن هذا الباطل والبهتان، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

يقولون: لو شاء اللَّه ما أشركنا، ولا حرَّمنا شيئاً أحلَّه اللَّه، لا نحن ولا آباؤنا الذين سبقونا!!

وغرضُهم أن يتعلَّلوا بالقضاء والقدر، لدفع المسؤولية عنهم، وهذه نزعةٌ جبريَّةٌ شيطانية، يحتجُّ بها السفهاء والفُجَّارُ، عندما تَقْرعُهم بالحجَّةِ، كما يقول المجرمُ والعاصي، والمرتكبُ لأنواع القبائح والمنكرات: هذا قَدَرُ اللَّهِ، قدَّره اللَّهُ عليَّ، لا مهربَ، ولا مفرَّ منه.!

وقد ردَّ اللَّه هذا الباطلَ والبهتان بقوله سبحانه ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ﴾ أي كما افترى هؤلاء المشركون الكذب على اللَّه، كذلك افترى من سَبَقهم من الفُجَّار الكذبَ، كذَّبوا أنبياءهم بمثل مقالتهم، حتى ذاقوا بأسنا الشديد، بإهلاكهم وتدميرهم، فلم يُفلت منهم أحد.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي هل عندكم حجة أو برهان، على صدق مزاعمكم فتظهروه لنا؟ ما تتَّبعون في هذه الدعوى، إلَّا الظنون والأوهام، وما أنتم إلَّا كَفَرةٌ فَجَرة، تكذبون على اللَّه، وتفترون عليه.!

الردُّ على المزاعم الباطلة

ردَّ تعالى على مزاعمهم الباطلة من وجهين:

الأول: أن هذه المقالة الباطلة، مقالةُ من سبقهم من الفجرة المكذِّبين لرسل اللَّه.

الثاني: أنهم كَذَبوا على اللَّه، وخَلَطُوا صدقاً بكذب.

نعم، إن أفعال البشر، واقعةٌ بقضاءٍ وقَدَر، هذا حقٌ لا يخالف فيه مؤمن، ولكنْ من أينَ لهم معرفةٌ وعلمٌ، بأنَّ اللَّهَ قدَّر عليهم هذه المعاصي والقبائح؟

هل اطَّلعوا على اللوح المحفوظ، فرأوا بأمِّ أعينهم، أن اللّهَ كتب عليهم الشقاءَ والضَّلالَ، فسارعوا إلى تنفيذ قضاء اللّه، ليكونوا مطيعين لربهم؟

ومن الذي أخبرهم أن اللّه تعالى إذا كان يعلم كفرهم وعصيانهم، يقبل ذلك منهم ويرضى عنهم؟ وهو سبحانه القائل: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ...﴾ الآية [الزمر: ٧].

قضاءُ اللّه تابع لعلمه

إنَّ قضاءَ اللّه تابع لعلمه، وعلمُه تعالى لا يدلُّ على الرضى، كما إذا عَلِمَ السلطانُ خروجَ بعضِ الجيشِ والجنودِ عليه، وقيامَهم بثورةٍ ضدَّ حكمه، فهل هذا العلمُ يكون عذراً لهم، يُعفيهم من المسؤوليةِ والعقوبة، بالخروج على السلطان، ومخالفة القانون والنظام؟

هذا مَثَلٌ ـ وللّهِ المَثَلُ الأعلى ـ فاللّه تعالى يعلمُ كفرَ الكافر، وعصيانَ العاصي، وقد سُجِّلَ هذا العلمُ في اللوح المحفوظ، وعلمُهُ سبحانه ليس فيه حجةٌ أبداً للإنسان، لأن اللّه تعالى يحبُّ الطاعةَ، ويُبْغِضُ العصيان، ولهذا ختم الآياتِ بقوله سبحانه: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

أي قل لهم: لقد قامت حجةُ اللّه البيِّنةُ الواضحةُ على العباد، في أمر التكليف، فلم يبق لأحدٍ عذرٌ ولا حجة، أرسلَ الرُسلَ، وأنزل الكتب لهدايةِ البشر، وأعطى كلَّ إنسانٍ حرِّيةَ الإرادة والاختيار، ليسلك الطريق الذي يحبه ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. ليتمَّ التكليفُ، ولو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين، ولا إكراهَ لأحدٍ على طاعة أو عصيان.

زبدةُ القول في القضاء والقدر

كلمة بديعة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه

وزبدةُ القول: أنَّ الاحتجاج بالقضاء والقدر، حجة باطلة باتفاق كلِّ ذي عقلٍ ودين، والكفارُ يعلمون بفطرتهم وعقولهم، أن هذه الحجة باطلة من الأصل، فإنَّ أحدهُم لو ظَلَمه شخصٌ، أو أراد سلبَ مالِهِ، أو قَتْلَ ولده، أو الزنى بزوجته، فقاومه وقاتَلَه، فاعترضَ عليه المعتدي، وقال له: لو شاء اللَّهُ ما فعلتُ ذلك!! لم يقبل أحد منه هذا القول، بل ضحكوا منه وسخروا!! وهو نفسُه لا يقبل هذا الكلام من غيره، فكيف يحتجُّ الإنسان بالقضاء والقدر؟ فهي حجة باطلة من الأساس، وإنما يحتجُّ بها المحتجُّ، دفعاً للَّوم عن نفسه، ليرفع عنه المسؤولية، وهي قولةٌ باطلة، لا تستند إلى منطق سليم. اهـ.

قصة فُكاهيَّة لسارقٍ يحتج بالقدر

يُحكى أنَّ أحد القضاة، جيء له بشخصٍ شرب الخمر، وسطا على أهل دارٍ، ليسرق متاعَهم، وأمسكه الشرطةُ وهو متلبِّسٌ بالجريمة، ولمَّا أراد القاضي معاقبته، وإقامة الحدِّ عليه، بكى وأخذ يتشفَّع للقاضي ليعفوَ عنه، ويقول له: واللَّهِ يا حضرةَ القاضي، هذا الشيء لم أفعله بإرادتي، وإنما هو أمرٌ كَتَبه اللَّهُ عليَّ وقدَّره، وهذه أولُ جنايةٍ ارتكبتُها في حياتي!!

أَمَر القاضي بجلده للسُّكر ثمانين جلدةً، وباعتبار أنه قُبض عليه، قبل أن يسرقَ شيئاً من المنزل، ترك إقامةَ حدِّ السرقة عليه، ثم أخذ القاضي يعتذر إليه، ويقول له: لا تؤاخذني يا حبيبي، فأنا لم أفعل بك شيئاً، وما حَدَث منيّ، هو أمرٌ قدَّره اللَّهُ عليَّ وقضاه، فأنا غيرُ مسؤولٍ عمَّا وقع عليك، وإن شاء اللَّه تنال الأجر على ما نالك لطاعتك للَّهِ، حيث أردت تنفيذ قضاء اللَّه وقدره!! وكانت صفعةً له أمام الحاضرين أَخْرَسَتْ لسانَه!

الإنسانُ بين دائرتي: التَّسْيير والتَّخْيير

ينبغي أن نعلم أن الإنسان في هذا الكون، واقعٌ بين دائرتين اثنتين:

الأولى: دائرةٌ لا دخلَ له فيها، ولا مشيئةَ ولا إرادة، ولا اختيار، يسير ضمنها بِسُنَنٍ كونيَّةٍ، وضَعَها الخالقُ جلَّ وعلا، تسمى (دائرة التَّسيير) أي أن الإنسان فيها مسيَّرٌ لا مخيَّر.

الثانية: دائرةٌ له فيها كسبٌ واختيار، يعمل فيها بمحض إرادته واختياره، دون إكراهٍ ولا إجبار، هذه الدائرة تسمى (دائرة التخيير) وهي التي تقع فيها (المسؤوليةُ) ويُبْنى عليها (الثوابُ والعقاب) فالإنسانُ فيها مخيَّر، يفعل الشيء فيها باختياره، وما يحدث على الإنسان من مصائب، وأسقام، وأوجاع، وأمراض، وما يُبْتلَى به من ضياع المال، وفقدِ الولد، وموت الحبيب، وأمثالِ ذلك، كلُّها داخلة في الدائرة الأولى (دائرة التسيير) أي إن الإنسان فيها مسيَّرٌ غير مخيَّر، وهو في هذه الدائرة غير مسؤول.

أمثلة على ذلك

اللَّهُ تعالى خَلَقك بهذا اللون، وبهذه الصورة، خلقك طويلاً أو قصيراً، أبيضَ أو أسود، لن يسألك يوم القيامة لماذا أنت قصير لا طويل؟ ولماذا كنتَ رجلاً؟ ولماذا أنت أسود لا أبيض؟ هذه أمور اختصَّ اللَّه تعالى بعلمه وحكمته بها، وليست من عملك، فلست مسؤولاً عنها، لأنها من اختصاص الخالق جلَّ وعلا: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

بيَّن تعالى في هذه الآية، أنه هو المتصرِّف في الكون، والمالك له، يخلق ما يشاء من الخلق، حسب حكمته وتدبيره، فيخصُّ من يشاء بالإناث، ويخصُّ من يشاء بالذكور، أو يجعلهم من النوعين (ذكوراً وإناثاً) فيجمع للإنسان بين البنين والبنات، ويجعل من يشاء عقيماً، لا ذرية له ولا نسل، فهل يُسأل يوم القيامة: لماذا لم تُنْجبْ ذريَّة!؟

كذلك حياةُ الإنسان وموتُه، متى يلدُ؟ ومتى يموت؟ ماذا سيحدث عليه من أحداث، تصيبه في نفسه، أو ولده، أو ماله، هذه كلُّها يكون فيها الإنسانُ

مسيَّراً غير مخيَّرٍ، لأنها ليست بإرادته، ولا بكسبه أو اختياره.

أمَّا الدائرة التي يكون فيها مسؤولاً مسؤوليةً كاملة، فهي الدائرة التي يكون له فيها عمل، ويكون له فيها كسبٌ واختيار.

هذا ما قرَّره القرآنُ في تشريعه الحكيم العادل، فَنَسَب للإنسان الإرادة لفعل الخير أو الشرِّ، وللطاعةِ أو المعصية، ولنيلِ رضوانِ اللَّه أو سخطه، حين قال سبحانه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

هكذا بكل وضوح نَسَب إلى الإنسان الإرادة ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾: ورَبَطَ تعالى الثوابَ والعقاب بالإرادة، فمن شاء أن يعمل للجنَّة، فالطريقُ أمامَه ميسَّرٌ، ومن أحبَّ أن يكون حطباً لجهنم، فالطريقُ أمامه أيضاً ميسَّرٌ، وقد ترك اللَّهُ للإنسان حريَّة الإرادة والاختيار.

رفعُ المسؤولية عند الإكراه

وفي بعض الحالات يفعلِ الإنسانُ الشيء دون إرادةٍ منه ولا اختيار، وذلك في حالة (الإكراه)، فإذا أُجْبِر الإنسانُ وأُكره، على فعل شيءٍ محرَّم، كشرب الخمر، أو الردة عن الإسلام ـ والعياذُ باللَّه ـ أو فعلِ عملٍ قبيح، حتى ولو كان كبيرةً من الكبائر، فإنَّ اللَّه تعالى يغفره له، ولا يعاقبه عليه، لأنه كان بدون إرادةٍ منه، وبدون اختيار، فعند الإكراه يرتفع الإثم عنه، لماذا؟ لأنه لا اختيار له ولا إرادة في هذا الأمر، واللَّه أكرمُ وأعدلُ من أن يعاقب إنساناً أُجبر على فعلٍ قبيح محرَّم، لم يكن له فيه إرادة، دلَّ على ذلك قولُه تعالى، عن الزانية التي قارفَتْ فاحشة الزنى مكرَهةً على ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

أي ومن يكرههنَّ على الزنى، فإن اللَّه سيغفر لهنَّ، وينتقم ممن أكرههنَّ شرَّ انتقام.

أرأيتم كيف رفع اللَّه عن الزانية المكرهة (حدَّ الزنى)؟ وجعل العقاب على من أكرهها على فعل الفاحشة؟ لأنها لم تفعله بإرادتها بل بالإكراه والإجبار.

سبب نزول الآية الكريمة

روى الإمام مسلم عن جابر رضي اللَّه عنه أنه قال: (كان عبد اللَّه بن سَلُول ـ رأسُ المنافقين ـ يقول لجاريته: اذهبي فابغينا مالاً، ويجبرها على الزنى، فأنزل اللَّه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾.

أي على الزنى) رواه مسلم(١).

الإكراه يرفع المسؤولية والإثم

حتى الكفرُ باللَّه، الذي هو أعظمُ الذنوب والجرائم، إذا أُجبر عليه الإنسانُ، ارتفع عنه الإثمُ، لعدم الإرادة، بل أباح اللَّه تعالى للإنسان أن ينطق بكلمة الكفر، ليدفع عن نفسه العذاب، الذي لا صَبر للإنسان عليه، أو يدفع عنه القتلَ، قال اللَّه تعالى:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

نزلت هذه الآية الكريمة في (عمَّار بن ياسر) رضي اللَّه عنه، أخذه المشركون فعذَّبوه عذاباً شديداً، وأخذوا أباه (ياسراً) وأمَّه (سُمَيَّة) فعذَّبوهم ليرتدوا عن الإسلام، قُتل الأبُ تحت وطأة العذاب، واستشهدت الأمُّ بطعنةٍ من حَرْبة، ضربها بها (أبو جهل) اللعينُ في قُبُلها ـ أي فرجها ـ فقُتلت، وهما أول شهيدين في الإسلام.

أمَّا (عمَّار) فكان ضعيفَ الجسم، لم يُطقِ العذابَ، فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، وهو سبُّ الرسولِ ﷺ، وذِكْرُ أصنامهم وآلهتهم بخير، ثم أتى رسولَ اللَّه ﷺ وهو يبكي.

فقال له الرسول ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: أجده مطمئناً بالإيمان،

---

(١) انظر صحيح مسلم.

فقال له ﷺ: إن عادوا فعُدْ ـ أي إن عادوا إلى تعذيبك، فعُدْ لهم بما أكرهوك عليه، وفيه نزلت هذه الآية الكريمة.

لم يشرطِ اللَّهُ عزَّ وجلَّ على المكْرَه على الكفر، إلَّا شرطاً واحداً، هو أن يكون قلبُه مطمئناً بالإيمان، أي أن يكون قلبُه مملوءاً إيماناً ويقيناً، فيكون كفرُهُ قاصراً على اللسان، دون القلب، أمَّا من طابت نفسه بالكفر، وانشرح له صدرُه، فله عذاب جهنم الخالد، وقد ارتدَّ عن الإسلام فعلاً، قَلْباً، وقالَباً.

ورُوي أن (عماراً) لمَّا أعطاهم ما أرادوا مكْرَهاً، قال بعضُ المسلمين: لقد كفر عمَّار، فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: إنَّ عمَّاراً مُلِئَ إيماناً من فَرْقه إلى قَدَمه، واختلَط الإيمانُ بلحمِهِ ودمه، ونهاهم أن يقولوا عنه ذلك(١)، وفيه نزلت الآية الكريمة.

الإنسان غير مؤاخذ حالة الاضطرار

مثال آخر: حرَّم اللَّهُ على المسلم أكلَ الميتة، ولحمَ الخنزير، وما ذُبح لغير اللَّه تعالى، واستثنى حالةَ الإكراه والاضطرار، ورفع عنه الإثم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥].

فكيف يُجْبرُ اللَّهُ مخلوقاً على المعصية، ثم يعاقبه عليها؟ هذا مستحيل، بل هو كذبٌ وافتراء على اللَّه، ولهذا قال في الآية بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

فالاحتجاج بالقضاء والقدر على المعصية، باطلٌ شرعاً وعقلاً، لا يقول به أحدٌ عن قناعةٍ وإيمان، إنما يقوله ليدفع المسؤولية عن نفسه بالباطل، ونحن نقول لهذا المكابِر المعانِد:

لماذا يحتجُّ الإنسان بالقدر في اقتراف الجريمة، وفعلِ الشرِّ، ولا يحتجُّ بالقَدَر في عمل الطاعة وفعلِ الخير؟

إذا شرب إنسانٌ الخمرَ، أو سَرَق، أو زنى، أو قتلَ النفس، يقول: اللَّهُ قَدَّر ذلك عليَّ، ولا يقول: اللَّهُ قدَّر عليَّ أن أبني المسجد، أو أُنفق على

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

الفقراء، أو أُعينَ هذا الضعيفَ المسكين فأبني له بيتاً!! بل ينسب الخيرَ إلى نفسه، فيقول: أنا الذي بنيتُ المسجدَ، وأنا الذي أنفقتُ على الفقراء والمساكين، وأنا أولُ من أسهم في بناء مستشفى خيري، وأنا بنيتُ مدرسةً لأبناء الشهداء، وهكذا ينسب الشرَّ إلى اللَّه تعالى، وينسب الخير لنفسه!! هل اللَّهُ عزَّ وجلَّ، قدَّر الشرَّ عليك فقط، ولم يقدِّر عليك فعْلَ الخير؟

إنَّ الخير والشرَّ، كلٌّ ذلك حاصلٌ بقضاءٍ وقَدَر، كما قال جبريل لرسول اللَّه ﷺ: (وأن تؤمن بالقَدَر خيره وشرِّه من اللَّه تعالى)[1]!!

قَدَرُ اللَّه وقضاؤه مرتبط بالعلم

نعم إنَّ القَدَرَ مرتبطٌ بعلم اللَّه تعالى، فاللَّهُ عزَّ وجلَّ قبل أن يخلق الكون، وقبل أن يخلق البشر، علمَ ما سيفعله كل إنسانٍ، من خير أو شر، فسجَّل ذلك العلم عنده في كتاب، وجرى به قَلمُ القَدَر، فلا يقع شيء في الكون إلَّا بعلمه، واللَّهُ سبحانه وتعالى، لن يحاسبَ أحداً على علمه، إنما يحاسبُ النَّاسَ على أعمالهم.

ومن رحمته سبحانه بالخلق، أن أرسل لهم الرسُلَ، وأنزل عليهم الكتب السماوية، وألزم على نفسه ـ تفضلاً منه وكرماً ـ بيانَ طريق الخير والسعادة لجميع الخلق، وَتَرَكَ للإنسان حريةَ الاختيار ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

أي بيَّنا له وعرَّفناه طريقَ الهدى والضلال، ثم خيَّرناه وتركنا له طريق الإرادة والاختيار، فإمَّا أن يسلكَ طريقَ الخير والإيمان، فيكون شاكراً، وإمَّا أن يسلك طريقَ الفجور والطغيان فيكون فاجراً، والأمرُ مفوَّضٌ للإنسان باختيار أيِّ سبيلٍ شاء!!

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه، وكان هذا السائل (جبريلُ) عليه السلام، جاء إلى رسول اللَّه ﷺ في هيئة أعرابي من أعراب البادية، يقول عمر في روايته: (كان شديدَ بياض الثياب، شديدَ سواد الشعر، لا يعرفه أحدٌ منَّا، ولمَّا انتهى من سؤال الرسول ﷺ، انطلق فقال النبي ﷺ لأصحابه: ردُّوه عليَّ، فخرجوا فلم يجدوا أحداً، فقال لهم ﷺ: أتدرون من السائل؟ قالوا: اللَّهُ ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم، وقد جاء فيه (وأن تؤمن بالقَدَر خيرِه وشرِّه من اللَّه تعالى) والحديث مشهور.

إرسال الرسل للبشر لقطع الحجة

وإنما أرسلَ اللَّهُ الرسل الكرام لهداية الناس، لئلا يبقى لأحدٍ حجةٌ على اللَّه تعالى يوم القيامة، فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، وهذا هو الذي وضَّحه القرآنُ، في بيان الحكمةِ من إرسال المرسلين، حيث قال تقدَّستْ أسماؤه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ولو أنَّ اللَّه تعالى أدخل أهلَ النَّارِ النَّار، وأهلَ الجنَّةِ الجنَّة، على حسب علمه الأزلي، بالسعداء والأشقياء، وبمن يؤمن به ومن يكفر، ولم يرسل لهم رسلاً، لإرشادهم إلى طريق الإيمان، لكان لهم عذرٌ عند اللَّه تعالى في عدم الإيمان، إذ كيف يعرفون اللَّهَ ويعبدونه، ويعرفون صفاتِهِ الجليلة؟ وكيف يميِّزون بين الحقِّ والباطل، وبين الهدى والضلال، ولم يأتهم من يرشدهم إلى الدين الحقِّ؟

هذا ما وضَّحه القرآن الكريم في بيانه الحكيم، حيث قال سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤] أي لو أنَّا أهلكنا هؤلاء الكفار، من قبل إنزال القرآن، وبعثة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام، لقالوا يا ربَّنا: هلَّا أرسلتَ إلينا رسولاً، حتى نؤمن به ونتَّبعه؟ من قبل أن نذلَّ بنزول العذاب، ونفتضح على رؤوس الأشهاد!؟

أراد تعالى أن يبيِّن أنه لا حجة لأحدٍ من الخلق على اللَّه، بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، فلم يترك لأحدٍ حُجَّةً ولا عذراً.!

ما هي فائدة الإيمان بالقدر؟

لقد بيَّن لنا الكتابُ العزيزُ، فائدةَ الإيمان (بالقضاء والقَدر) الذي هو أحدُ أركان الإيمان، وبيَّن لنا الحكمة منه، فإنَّ المؤمنَ إذا عَرَف أنَّ كلَّ ما يحدث عليه، من مصائبَ، وكوارثَ، ونكباتٍ، إنما هو بقضاءٍ من اللَّهِ وقَدَر، وأنَّ جميعَ الأمور مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ، استسلم لحكم اللَّه، فاستراح قلبُه واطمأنَّ، وشعَرَ بالراحة النفسيَّة، والرضى بما حدث له، فتخفُّ المصيبةُ عليه، ويستسلمُ لقضاءِ اللَّه، ويلهجُ لسانُه بالشكر والصبر، فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فيكون هذا الإيمانُ سلوى لنفسه، وراحةً لقلبه، وهذا ما أرشد إليه القرآن للكريم، في قول الحقِّ جلَّ وعلا:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

أي ما تحدث من مصيبة في الكون ولا في البشر (من قحطٍ، وزلزالٍ، ومرضٍ، وكربٍ، وبلاء) إلَّا وهي مكتوبةٌ مثبتةٌ في علم اللَّه تعالى، من قبل أن نخلقَ الخلق، وننشئَ البريَّة، وهي مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ، وإثباتُ ذلك سهلٌ يسير على اللَّه تعالى، كيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم الدنيا، ولكيلا تبطروا بزهرة الحياة الفانية، واللَّه تعالى لا يحبُّ كل متكبِّر، يفخر على الناس بما أعطاه اللَّه ومنحه من مالٍ وجاه.

والمرادُ بالحزنِ والفرح في الآية الكريمة: الحزنُ الذي يوجب القنوطَ واليأسَ، والفرحُ الذي يورث الأشَرَ والبطر.

قال ابن عباس: (ليس من أحدٍ إلَّا وهو يحزنُ ويفرحُ، ولكنَّ المؤمنَ يجعل مصيبتَه صبراً، وغنيمتَه شكراً)[١].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧/٢٥٨.

ولهذا قال المصطفى ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمرَهُ كلَّه له خيرٌ، وليس ذاكَ لأحدٍ إلا للمؤمن، إنْ أصابته ضرَّاءُ صَبَر، فكان خيراً له، وإن أصابته سرَّاءُ، شكر فكان خيراً له)(١) رواه مسلم.

قال بعض الصالحين: (من عَرَفَ سرَّ اللَّهِ في القَدَر، هانتْ عليه المصائبُ).

وللَّهِ درُّ (الفاروق عمرَ بنِ الخطَّاب) رضي اللَّه عنه الذي نوَّر اللَّهُ بصيرته، فكان يقول: (ما أصابتني مصيبة، إلَّا وجدتُ فيها ثلاث نِعَمٍ:

الأولى: أنها لم تكن في ديني، لأن المصيبة في الدين أعظمُ المصائب.

الثانية: أنها لم تكن أعظمَ ممَّا كانت، إذْ ما من مصيبة إلَّا وهناك عند اللَّهِ، ما هو أعظم منها!!

الثالثة: أن اللَّه تعالى وَعَد الصابرَ على المصيبة بالأجر العظيم، والرحمة والمغفرة والرضوان، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وفي الحديث القدسي: (إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه ـ أي عينيه ـ فصَبَر، عوَّضتُه الجنَّةَ)(٢).

هذا ثواب من صَبَر على فقد بصره، فكيف بمن عظُمت عليه المصائب؟ واللَّهُ تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠] فجزاء الصابرين لا يُحصى ولا يُحصر، يُعْطون ثوابهم بغير عَدَدٍ ولا ميزان.

هذه هي حكمة الإيمان بالقضاء والقدر: الراحةُ للقلبِ، والاطمئنانُ بوعدِ اللَّه، والاستسلامُ لحكمه وقضائه، وبذلك تهون على المؤمن المصائبُ، بخلاف من لا يؤمنُ باللَّه، ولا يعتقد بالقدر، فإنه عند اشتداد المصائب، وتفاقم الكروب والبلايا، وفَقْده للاحتساب والصبر، قد يقدم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في الزهد رقم (٢٩٩٩).

(٢) رواه البخاري في المرضى ١٠/ ١٠٠ باب فضلِ من ذهبَ بصرُه، والترمذي رقم (٢٤٠٢).

على الانتحار، فيخسر دنياه وآخرته ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

اللَّهم ارزقنا الشكر على نعمائك، والصبرَ على بلائك، والرضى بحكمك وقضائك، ولا تحرمنا فضلك وإنعامك، يا أللَّهُ يا أكرَم الأكرمين.

عودة إلى موضوع القَدَر

نرجع إلى موضوع القضاء والقدر فنقول: إن جميع الأمور والأحداث معلومة للَّهِ عزَّ وجلَّ، من أصغرِ ذرَّة، إلى أكبرِ مجرَّة، فلا يخفى على اللَّه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، يعلم ما تكسب كلُّ نفس، ولا يغيب عن علمه شيء، ولو كان أصغرَ من الذَرَّة ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١٠].

السرُّ والعلنُ عنده سواء، يعلم ما أضمرته القلوبُ، وما لَهَجتْ به الألسنةُ، ومن همَس بالكلام سرًا، أو نطقَ به جهراً، ويستوي في علمه سبحانه، من هو مستترٌ في ظلام الليل، يعمل القبائح، ومن يأتي بها في وَضَح النهار، فكيف تغيب عنه أعمال البشر؟ وهو الرقيب الحسيب، الذي لا تخفى عليه خافية!!

قضاؤه تعالى مرتبط بالعلم

قضاؤه تعالى مرتبطٌ بعلمه، فمن قبلِ أن يخلق اللَّهُ الخلقَ، علِمَ ما سيعملون، وسجَّل علمه هذا في كتابٍ عنده، هو (اللوحُ المحفوظ) الذي سُطِّرت فيه جميعُ الأقوال، والأفعال، والأحداث، التي تحدث في الكون، أو تقع من البشر ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي عِلْمُ أحوالِ الخلائق، عند علَّام الغيوب، لا يعلمها إلَّا ربُّ العزة والجلال، لا تخفى عليه سبحانه ولا ينساها، واللَّهُ سبحانه لا يحاسبنا يوم القيامة على علمه، إنما يحاسبنا على أعمالنا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ومن هنا ندرك مفهوم (القضاء والقدر) على الوجه الشرعي الصحيح،

وهو ما حكاه علماء الشريعة الغراء، وأيَّدته نصوص القرآن العظيم.

تعريف القضاء

تعريف القضاء: القضاءُ: علمُ اللَّهِ الأزليُّ القديمُ بما كان، وما سيكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة، إلى أن يستقرَّ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأهلُ النَّار في النار!!

قال اللَّه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾[الروم: ١٥، ١٦].

﴿مُحْضَرُونَ﴾ أي مساقون إلى نار الجحيم، ليحضروها ويُحرقوا فيها، ولا يكون الإحضارُ إلَّا للمجرم، أي كالمجرم الذي يُساق إلى السجن لينال العقاب.

تعريف القَدَر

تعريف القدر: أمَّا القَدَرُ فهو: حدوثُ الوقائع، والأمورِ، والأحداثِ، في الأزمنةِ، والأمكنةِ، والأشخاص، كما عَلِمها اللَّهُ تعالى، من غير تبديلٍ ولا تغيير، وكما سُجِّلت في اللوح المحفوظ.

فاللَّهُ تعالى يعلم أنَّ (أبا جهلٍ) لعنه اللَّهُ، لن يؤمنَ، وسيعيش كافراً، ويموت كافراً، وسيبقى طيلة الحياة، معادياً لدين الإسلام، فقضى اللَّهُ عليه بالكفر، مع أن عدوَّ اللَّه من قرارة نفسه، كان يعتقد بصدقِ محمد عليه الصلاة والسلام، ولكنه لطغيانه وفجوره، أبى أن يقول: (لا إلٰه إلَّا اللَّه) وأن يشهدَ لمحمد ﷺ بالرسالة.!

نقول: هل علمُ اللَّهِ بكفر أبي جهل، وبقاؤه على الكفر، حتى يموت كافراً، هل يكون له عذراً يوم القيامة، ينجيه من عذاب اللَّه تعالى؟ لا، لن ينجيه من عذاب اللَّه، لأنه كَفَر باختياره، ثم أصرَّ على الكفر، دون إكراهٍ ولا إجبار، فهو مسؤول عن فجوره وطغيانه.

أبو جهل يشهد بصدق الرسول ﷺ

ولْنَستمعْ إلى سبب إصراره على الكفر، من هذه القصة العجيبة، فقد رُوي أنَّ رجلاً من أبناءِ مكة، لقيَ (أبا جهل) في أَحَد طُرُقاتِ مكة، فاستوقَفَه، وقال له: يا أبا الحَكَم - كنية أبا جهل - ليس هنا غيري وغيرُك: أنشدُكَ باللَّه، هل محمد صادقٌ في دعوى النبوة، أم هو كاذب؟

فقال له أبو جهلٍ: واللَّهِ إنَّ محمداً لصادقٌ، وما كَذَب قطُّ!!

فقال له الرجل: إذاً فلماذا تعادونه وتحاربونه؟

فقال له أبو جهل: ويحك يا هذا!! لقد تقاسمنا الزَّعامَةَ نحنُ وبني هاشم؟ - يريد أنَّه من بني مخزوم، والرسولُ من بني هاشم - فأطعموا فأطْعَمنا، وسَقَوْا فسقينا، وأجارُوا فأجرنا - أي أدخلوا بعض الناس إلى جوارهم ففعلنا مثلَهم - حتى كنَّا كفرسَيْ رِهانٍ، لا نسبقهم ولا يسبقوننا في المفاخر والمآثر، ثم بُعثَ فيهم محمدٌ، فافتخروا علينا، فقالوا: بُعث فينا نبيٌّ!!

فمن أين نأتيهم نحنُ بنبيٍّ، حتى نساويهم في المفاخر؟ واللَّهِ لا نؤمن به ولا نصدِّقه، ولا نقرُّ برسالته أبداً!!(١)

فأنزل اللَّهُ فيه هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

أي قد علمنا تكذيبَهم لك يا محمد، وحزنَك الشديدَ على إصرارهم على الكفر والتكذيب لرسالتك، وتأثُّرَك بما يقولون! فإنهم في الحقيقة لا يكذِّبونك، لأنهم من قرارةِ نفوسهم يعتقدون صدقَك، ولكنَّهم لفجورهم وطغيانهم، يكذِّبون بآيات اللَّه، وينكرون رسالتك، عناداً وطغياناً، فاتركْ أمرهم إلى اللَّه، وسوف نريك ما نفعل بهم.!

---

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ٢/ ١١٧ والتفسير الواضح الميسر ص٣٠٤.

ومثلُ هذا كفرُ (أبي لهب)، و(الوليدِ بنِ المغيرة) ـ والدِ خالد بن الوليد ـ و(أُبيِّ بنِ خَلَف)، و(العَاصِ بنِ وائل) ـ والدِ عَمْرو بن العاص فاتح مصر ـ وغيرهم من عُتاة الكفر والضلال، كان كفرهم عن عنادٍ وطغيان، لا عن شكٍّ وجهالة، فكيف تُرفع المسؤوليةُ عن هؤلاء الفراعنة المتغطرسين؟ وهل يُقبل منهم الاحتجاجُ بالقضاء والقدر؟ ليقولوا يوم القيامة: لقد علمتَ يا ربَّنا أننا سنكفُرُ بدينك، ولا نؤمنُ برسولك، فلماذا تعاقبُنا على ذلك؟

هل هذا ينجيهم من العذاب؟ وقد أخبرهم اللَّه بأنه لا يرضى منهم البقاء على الكفر، ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

ضربُ مثلٍ للقضاء والقَدَر

ولْنضربْ للقضاءِ والقدر، بمثَلٍ بسيط، يدركه العاقلُ والجاهلُ، والذكيُّ والغبيُّ، لأنه مَثلٌ واقعيٌّ من الحياة، وللَّهِ المثلُ الأعلى وهو العليمُ الحكيم.! أستاذٌ في مدرسةٍ ثانوية، يلقي الدروسَ على الطلاب، ويبذل قُصارى جهده لإفهامهم، يتوجَّه في محاضراته بالمعلومات إليهم جميعاً، دون تمييزٍ بين واحدٍ وآخر.

في الفصل طالبٌ مجدٌّ نشيط، ينتبه للمدرِّس، ويُلقي بالاً لكلِّ ما يسمعه من أستاذه، ويؤدِّي واجباتِهِ المدرسيَّة على الوجه الأكمل.

وهناك طالبٌ آخر، خاملٌ كسولٌ، لا يلقي بالاً للدَّرس، ولا يؤدِّي وظائفَه المدرسيَّةُ، ويشاغبُ أثناء سماع المحاضرة، بل يزيد في اللهو والعبث، فيؤذي رفاقه، مع كثرة ما حلَّ به من العقاب من جهة الإدارة!!

يتوقَّعُ الأستاذُ ـ بعلمه المحدود ـ أن ينجح الطالبُ الأول، المجدُّ النشيطُ، وأن يرسبَ الآخرُ الكسولُ الخاملُ، وحَدَث ما توقَّعه الأستاذُ في نهاية العام الدراسي، حيث نجح الطالبُ الأولُ بامتياز، ورسب الثاني بوجهٍ مخزٍ ومخجل، وجاء هذا الأبلهُ الأحمقُ، يحتجُّ عند الأستاذ ويقول له بكل وقاحة: يا أستاذُ أنت تعلم أنني سأرسب، فالذنبُ ليس عليَّ، أنتَ حكمتَ برسوبي فرسبتُ!!

هل يَقبل أحدٌ مثلَ هذا المنطق والاحتجاج؟ كذلك علمُ اللَّهِ تعالى، علمٌ أزليٌّ كاشفٌ لما سيعمله الإنسان، قبل أن يحصل منه ذلك، وعلمُه تعالى الذي سجَّله في اللوح المحفوظ، ليس حجةً للكافر، أو العاصي الفاجر، حتى يحتجَّ به ذاك الشقيُّ، لأن اللَّه تعالى قَطَعَ الأعذارَ، بإرسالِ الرُّسلِ، وإنزالِ الكتب، لهداية البَشَر، فلم يبق لأحدٍ حجة عند اللَّه، قال تعالى عن الكفار، وهم يُعذَّبون في نار الجحيم:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

أي وهم في جهنم يصرخون ويستغيثون قائلين: يا ربنا أخرجنا من نار جهنم، وردَّنا إلى الدنيا، لنعمل بطاعتك، عملاً صالحاً يُرضيك، غير ما كنَّا نعمله من قبيح الأعمال!!

ويأتيهم الجواب سريعاً من قِبل الجبَّار: أولم نُمهلكم في الدنيا، ونعمِّركم فيها عُمُراً مديداً، يكفي لأن يتذكَّر فيه من يبغي النجاةَ والسعادةَ لنفسه؟ وجاءكم الرسولُ المنذرُ محمد ﷺ، فماذا صنعتم في هذه المدَّةِ الطويلة التي عشتموها؟ فذوقوا العذاب الشديد على كفركم وإجرامكم، فليس لكم اليوم شافعٌ يشفع، ولا ناصرٌ ينجيكم من عذاب جهنم المؤبَّد!!

هل المحوُ والإثباتُ يجري في اللوح المحفوظ؟

وهنا يرد سؤالٌ لا بدَّ من الإجابة عليه، وهو: قد يظنُّ البعضُ أن (المحو والإثبات) يجري في اللوح المحفوظ، في قول اللّٰه عزَّ وجلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩].

والجوابُ عن ذلك: أنَّ ما سُجِّل في اللوح المحفوظ، هو علمُ اللّٰه تعالى الأزليُّ، وهو لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، فلا يجري في اللوح المحفوظ شيءٌ من المحو والإثبات، إنما يكون في الشرائع والأحكام، وفي صحف الملائكة الكرام، فيبدِّل اللّٰهُ ويغيِّر من الأحكام ما يشاء، حسب الحكمةِ والمصلحةِ، فينسخُ اللّٰهُ ما يشاء نسخَه من الأحكام التشريعية، ويُبقي ما يشاءُ إثباتَه دون تغيير أو تبديل، كما يمحو سبحانه ما يشاء من صحف الملائكةِ الكرامِ، فيغني ويُفقر، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويدفعُ البلاء بالتضرُّع والدعاء، وعندَه جلَّ وعلا اللوحُ المحفوظ، الذي سُطِّر فيه علمُ اللّٰهِ الأزليُّ، فهذا لا يتبدَّل ولا يتغيَّر.

وهذا معنى قولِ ابنِ عباس رضي اللّٰه عنهما: (يُبدِّلُ اللّٰهُ ما يشاء فينسخه، إلَّا الموتَ والحياةَ، والشقاءَ والسعادةَ، فإنه قد فُرغ منها)[١].

قال العلَّامة ابن عطية في المحرر الوجيز: (والذي يتلخَّصُ من هذه الآية، أن الأشياءَ التي دبَّرها اللّٰهُ في الأزل، وعَلِمها، لا يصحُّ فيها محوٌ ولا تبديل، بحالٍ من الأحوال، وهي التي كُتبت في (أمِّ الكتاب) وسَبَق بها القضاءُ.!

وهذا مرويٌّ عن ابن عباس وغيره من أهلِ العلم، وأمَّا الأشياءُ التي أخبر اللّٰهُ تعالى أنه يُبدِّل فيها وينقل، كمغفرة الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آيةٍ بعد تلاوتها، ففيها يقعُ النسخُ بعد الإثبات، فيما يسجِّله له الحفظةُ ـ أي الملائكةُ ـ

---

(١) انظر مختصر ابن كثير ٢/ ٢٨٢ وصفوة التفاسير ٢/ ٢٨٢.

ونحو ذلك، وأمَّا إذا رُدَّ الأمرُ إلى القضاء والقَدَر، فلا محوَ ولا إثبات)[١].

والخلاصة: هناك كتابان: كتابُ الملائكة على الخلق، فهذا محلُّ المحو والإثبات، وكتاب اللوح المحفوظ، فهذا لا يتبدَّل ولا يتغير، وليس فيه محو ولا إثبات، لأن فيه علمَ اللَّه الأزلي، وهو لا يتغيَّر.

❁ ❁ ❁

(١) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيَّة ٨/ ١٨٢.

الفصل التاسع

الإسلامُ دينُ جميع الأنبياء والمرسلين

الفصل التاسع

الإسلامُ دينُ جميع الأنبياء والمرسلين

- هذا الدِّين العظيم ـ دين الإسلام ـ الذي أكرمنا اللَّه به، واختاره لنا ديناً، ليس هو دين محمد ﷺ فحسب، وإنما هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، ومن الخطأ الجسيم، أن يعتقد الإنسانُ بأن دينَ الإسلام خاصٌ بالمسلمين، بل هو دينُ جميع المرسلين، لأنه دينُ (التوحيد الخالص) وهي الدعوة التي اشتملت عليها دعوة جميع الرسل.

قال اللَّهُ جلَّ ثناؤه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

- وشعارُ هذا الدين (لا إله إلا اللَّه) وهي كلمة التوحيد، ومعناها لا معبود بحقٍّ سوى اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

إنَّهُ الدِّينُ الذي ارتضاه اللَّه لعباده ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَٰمَ دِينًا ... ﴾ [المائدة: ٣].

- إنها رسالةُ التوحيد (لا إله إلا اللَّه) اجتمعت عليها دعوةُ جميع الرُّسلِ، فما من رسولٍ بعثه اللَّهُ إلى أمَّةٍ من الأمم، إلَّا كانت دعوتُه إلى توحيد اللَّه عزَّ وجلَّ، والإقرارِ له (بالألوهية) و(الربوبيَّة) و(الوحدانية).

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

- هذه عقيدةُ المسلم، يعيش من أجلها، ويضحِّي في سبيلها، ويجعل صلاته، وعبادته، ونُسُكه وجميعَ أعماله، خالصةً لوجه ربه الكريم، ليلقى جزاءه في الآخرة، وينالَ مغفرتَه ورضوانه.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

- إنها الدعوة التي جاهد من أجلها الرسلُ، ودعوا أقوامهم إلى اعتناقها، والتضحية من أجلها (لا إلٰه إلا اللّه) دعا إلى هذه الكلمة الطيبة، جميعُ الرسل دون استثناء.

وهي الكلمة التي ضرب لها القرآن هذا المثل البديع ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: (الكلمةُ الطيبة): كلمةُ الإيمان لا إلٰه إلا اللّهُ، و(الشجرةُ الطيبة) قلبُ المؤمن، الذي غُرست فيه كلمة التوحيد.

- وهذا مثلٌ ضربه اللّه تعالى لكلمة التوحيد ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أصلُها راسخٌ في قلب المؤمن، «لا إلٰه إلَّا اللّه» ﴿وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي وأغصانها ممتدةٌ نحو السماء، يرفعُ اللّه بها عملَ المؤمن إلى السماء، فيزداد خيرُه، ويزداد أجرُه وفضلُه.

- **مثَّل تعالى لكلمة التوحيد (لا إلٰه إلَّا اللّه)** التي هي في قلب المؤمن، بشجرة مثمرةٍ طيِّبة، فالمؤمنُ طيِّبٌ كمثل الشجرة الطيِّبة، طابت تربتها، فطاب ثمرُها وفاكهتها، ورسخت أصولُها في الأرض، وامتدت أغصانها في الهواء، فأعطت ثمارَها زاهيةً، وافية، ناضجة.

- **ومثَّل لكلمة الكفر والإشراك**: بالشجرة الخبيثة، **ولهذا قال تعالى**: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

أي ومثلُ كلمة الكفر، كمثل شجرة خبيثة، وهي (شجرة الحنظل) المُرَّة البشعة.

استؤصلت من جذورها من الأرض، فلا خير فيها ولا بركة، ولا نموَّ لها ولا ثمر، وذلك مثلُ الكافر، وعملِه الخبيث، لا يقبل اللّه منه عملاً، ولا يصعد إلى اللّه تعالى منه دعاء، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت، ولا فرع إلى السماء صاعد.

- وهذا كلُّه على التمثيل والتشبيه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي ليتذكُّروا نعمة الإيمان، ويفقهوا الأمثال التي ضربها لهم القرآن ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقد شبَّه المصطفى ﷺ المسلمَ، الذي عاش على الإيمان والتوحيد، بقريبٍ من هذا المثل الذي ضربه القرآنُ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه عن عبد اللَّه بنِ عُمَر رضي اللَّه عنهما أنه قال:

(كنَّا عند رسولِ اللَّه ﷺ يوماً، فقال لأصحابه: أخبروني عن شجرةٍ هي مَثَلُ المسلمِ، لا يتحاتُّ وَرَقُها، صيفاً ولا شتاءً، وتُؤتي أُكُلها كلَّ حينٍ بإذن ربها!؟

قال ابن عمر: فوقَعَ في نفسي أنها «النَّخْلَةُ» ورأيتُ أبا بكرٍ، وعمرَ، لا يتكلَّمان، فكرهتُ أن أتكلَّم بحضورهما، فلمَّا لم يقولوا شيئاً، قال رسولُ اللَّه ﷺ هي النخلةُ!!

فلمَّا قمنا من مجلس الرسول ﷺ، قلتُ: يا أبتَاه واللَّهِ لقد وقع في نفسي أنها النخلةُ! قال: ما منعَكَ أن تتكلَّم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهتُ أن أتكلَّم، أو أقول شيئاً!! فقال لي أبي: لأن كنتَ قلتَها أحبُّ إليَّ من كذا وكذا)(١).

❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه وقد تقدم الحديث.

رسالةُ التوحيد دعوةُ جميع الأنبياء والمرسلين

إلى هذه الكلمة الطيبة (لا إلٰه إلَّا اللَّهُ) كلمة الإخلاص والتوحيد، ومن أجل هذه الرسالة الربانية (الإيمان بوحدانية اللَّه) بعث اللَّهُ جميع الأنبياء والمرسلين، فما من رسول بعثه اللَّه في أمة من الأمم، إلَّا كانت مهمته الأصلية والأساسية، الدعوة إلى توحيد اللَّه وإخلاص العبادة له ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

والطاغوتُ: كلُّ معبودٍ من دون اللَّه، والمعنى: اتركوا كلَّ معبود من وثنٍ، أو بشرٍ، أو كاهنٍ، أو شيطان، أو لكل من دعا إلى الضلالة ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

دعوة نوح عليه السلام

أولاً: هذا نبيُّ اللَّه (نوح) عليه السلام، يوضّح اللَّهُ رسالتَه التي أُرسل بها، فيقول تبارك وتعالى عنه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

دعاهم إلى توحيد الخالق جلَّ وعلا، ثم أنذر وحذَّر، بالعذاب الشديد الذي سيحيق بهم، إن لم يؤمنوا باللَّه الواحد الأحد.

دعوة هود عليه السلام

ثانياً: وهذا نبيُّ اللَّه (هود) عليه السلام، يدعو قومه إلى الإيمان بوحدانية اللَّه تعالى، فيقول لهم محذِّراً، ومنذراً ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠] أي ما أنتم في عبادتكم للأصنام، إلَّا كاذبون على اللَّه، لأنه لا إلٰه إلَّا اللَّه.

دعوة صالح عليه السلام

ثالثاً: **وهذا نبيُّ اللَّه (صالح) عليه السلام**، يذكِّر قومه بنعم اللَّه عليهم، ويحذِّرهم من عبادة غيره، ويدعوهم إلى الإيمان بوحدانية اللَّه جلَّ وعلا: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] معنى ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي جعلكم سُكَّانها وعُمَّارها تسكنون فيها، بعد أن أهلك من سبقكم من المكذبين.

دعوة شعيب عليه السلام

رابعاً: **وهذا رسولُ اللَّه (شُعيب) عليه السلام**، يدعو قومه إلى توحيد اللَّه جلَّ وعلا، ويُحذِّرهم من البخس في المكيال والميزان، خشية الهلاك بالعذاب المحيط الذي لا ينجو منه أحد ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [هود: ٨٤].

دعوة عيسى عليه السلام

خامساً: **وهذا خاتمُ أنبياء بني إسرائيل (عيسى بنُ مريم) عليه السلام**، يقرِّر لقومه بني إسرائيلُ، رسالته التي بعثه اللَّه بها، وهي عبادةُ اللَّه وحده، والكفُّ عن دعوة التثليث، التي اخترعها النصارى، وهي تعارض دعوة التوحيد التي جاءهم بها من عند اللَّه، بل أوَّلُ كلمة نَطَق بها (عيسى) عليه السلام، وهو طفل رضيعٌ في المهد ـ وكانت معجزة له ـ أن قال: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۞ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٢].

- وهذه الكلمة الصادقة منه عليه السلام، تهدم عقيدة النصارى في (ألوهية المسيح) فإنه قال لهم: (إني عبدُ اللَّه) ولم يقل لهم: (أنا اللَّه) إقراراً منه بالوحدَّانية للَّه عزَّ وجل.
- **ومَوقفٌ آخرُ للسيِّد المسيح عليه السلام، يقرِّر فيه عبوديته للَّهِ عزَّ وجل،** في

مشهدٍ حافلٍ على رؤوس الأشهاد، يوم الحشر الأكبر، حيث يلتقي فيه جميع البشر، ويسأله ربُّ العِزَّة والجلال ويقول له: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾؟ [المائدة: ١١٦].

- ويأتي الجواب منه صريحاً جليًّا قاطعاً، بالبراءة من هذا البهتان، الذي نَسَبه إليه من زعم ألوهيته، فيقرُّ معترفاً بالعبودية للَّه ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

- وفي هذا القول اعتذارٌ وبراءة، من ذلك القول الشنيع، الذي نسبه إليه الظالمون، واعترافٌ بما دعاهم إليه، من توحيد اللَّه جلَّ وعلا، والإقرار بالعبودية له، كما أمره بذلك الخالق الجليل ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾.

صفوة القول في دعوة المرسلين

- **وصفوةُ القول في هذا الموضوع**: أنَّ (التوحيدَ) أصلُ رسالة جميع الأنبياء والمرسلين، فما من نبيٍّ بعثَه اللَّهُ، ولا رسولٍ أرسله إلى الخلق، إلَّا بدعوة التوحيد، وإعلانِ الوحدانية للَّهِ جلَّ وعلا، ونبذِ الكفر والإشراك، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

- **وكلمةُ التوحيد هي الأصلُ في نجاة الإنسان من عذاب اللَّه**، ودخولِهِ جنَّات النعيم، وبدونها سيخلَّد الكافر في نار الجحيم، كما قال القرآن الكريم على لسان السيد المسيح (عيسى بن مريم) عليه السلام.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

- **وهذه الكلمة الطيبة (لا إلٰه إلَّا اللَّه) مفتاحُ الجنة**، من قالها معتقداً بها، مخلصاً في إيمانه، ويقينه بوحدانية اللَّه، كانت سبباً لدخوله الجنة، كما قال

سيِّد الخلق محمد ﷺ (من كان آخرُ كلامهِ لا إلٰه إلَّا اللَّه دخل الجنة)[١] رواه أبو داود والحاكم.

- ولقد بشَّر الرسول ﷺ بهذه البشارة العظيمة أمته، حين قال لأبي هريرة (اذهبْ فمن لقيتَه من وراء هذا الحائط ـ يعني البستان ـ يشهد أن لا إلٰه إلَّا اللَّه، مستيقناً بها قلبُه، فبشِّره بالجنة...)[٢] الحديث رواه مسلم.

- والإسلام دينُ جميع الرسل، وبعد بعثة محمد خاتم المرسلين ﷺ لا يقبل اللَّه ديناً سوى الإسلام، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

❁❁❁

---

(١) الحديث رواه أبو داود رقم (٣١١٦) ورواه الحاكم في المستدرك ١/ ٣٥١ وصحَّحه.

(٢) هذا طرف من حديث طويل رواه مسلم في صحيحه.

الإسلام دينُ جميع الأنبياء والمرسلين

- لقد جاء الأنبياء والمرسلون جميعاً بدينٍ واحد، وبرسالة واحدة، لا يختلف فيها رسول عن رسول، أمَّا الدينُ فهو الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩].

وأمَّا الرسالةُ فهي توحيدُ الربِّ جلَّ وعلا، والإقرارُ له بالوحدانية أي أنه الواحدُ الأحد، الفردُ الصمد، لا يشاركه أحد في ألوهيته، ولا في ملكه.

- لم يكن بين الرسل اختلافٌ في الدين، إنما كان الاختلافُ في الشرائع، فلكل أمة شريعةٌ خاصة بها، تختلف عن غيرها من الأمم، كما قال سبحانه: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].
- ذلك لأن الشرائع هي (الشعائر الدينية) التي كلَّف اللَّهُ بها عباده، من (صلاةٍ، وصيام، وحجٍّ، وزكاة)، وغير ذلك من أنواع العبادات.

كلُّ ذلك (فروعٌ) تختلف باختلاف الشعوب والأَمم، فلا حرج أن يقع فيها اختلاف في الطقوس والشعائر، وأداءِ الطاعات والعبادات.!

- **أمَّا الدينُ فهو (أصولٌ وأركان)** لا تختلف فيه أمةٌ عن أمة، فجميعُ الأمم مكلَّفةٌ بالإيمان باللَّه، وباليوم الآخر، وبالكتب، والرسل، وبسائر أركان الإيمان كما قال سبحانه:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الدِّينُ الذي شرعه اللَّه هو الإسلام

- والدينُ الذي شرعه اللَّهُ لعباده، دينٌ واحد، لا يختلف من أُمة إلى أُمة، وهو

الذي وصَّى به سبحانه جميع الرسل، وأمرهم بالاستمساك به، وعدم الاختلاف فيه.

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

- هذا الدينُ الذي شرعه اللّه لجميع الأنبياء والمرسلين، هو (الإسلامُ) فدينُ (إبراهيم) الإسلامُ، ودينُ (موسى) الإسلامُ، ودينُ (عيسى) الإسلامُ، ودين (نوح) الإسلامُ، وهكذا جميعُ الرسلِ دينُهم واحدٌ هو الإسلام.

نبيُّ اللّهِ نوح يدعو إلى الإسلام

- **اقرأ معي قولَ اللّه عزَّ وجلَّ عن نوح عليه السلام**، وهو يعرضُ رسالته على قومه، ويخبرهم بأنه مأمورٌ بالإسلام.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢].

نبيُّ اللّهِ إبراهيم يدعو إلى الإسلام

- **واقرأ قول الحقِّ جلَّ جلالُه عن إبراهيمَ عليه السلام** ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

- **واقرأ قولَه سبحانه عن إبراهيم وإسماعيل**، وهما يبنيان البيت العتيق، ويدعوان بهذا الدعاءِ المبارك.

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

- **بل إنَّ وصيَّة خليلِ الرحمن (إبراهيم) عليه السلام، لجميع أبنائه وذريته**، الذين يتعاقبون من بعده، هي التمسك بالإسلام، اقرأ قولَه تبارك وتعالى:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

نبيُّ اللَّهِ يعقوب يدعو إلى الإسلام

- **ونبيُّ اللَّهِ (يعقوبُ) عليه السلام (ابنُ إسحاق بنِ إبراهيم)** المسمَّى (إسرائيل) الذي ينتسب إليه اليهود (بنو إسرائيل) ويفخرون بأنهم على ملَّته ودينه، كان دينه الإسلام، ولم يكن يدين باليهودية كما يزعمون، اقرأ معي قول الحقِّ تبارك وتعالى عنه:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

نبيُّ اللَّهِ عيسى يدعو لدين الإسلام

- **وكذلك دينُ (عيسى بن مريم) عليه السلام هو الإسلامُ**، وليس النصرانية كما يزعمُ النصارى، فقد دعا عليه السلام أتباعه وأنصاره الحواريين، إلى التمسك بالدين الذي جاءهم به وهو (الإسلام) اقرأ قول اللَّه عزَّ وجلَّ عنه ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۞ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣].

- إذاً كانت دعوةُ عيسى إلى الحواريين لنصرة دين اللَّه، وكان جوابهم له: نحن أنصار اللَّه، واشهدْ يا رسول اللَّه يا عيسى بأنَّنا (مسلمون) على الدين الذي جئتنا به.

نبيُّ اللَّهِ موسى يدعو إلى الإسلام

- **وهذا نبيُّ اللَّه (موسى بنِ عمرانَ) عليه السلام**، يدعو قومه إلى الاستمساك بالدين الذي جاءهم به من عند اللَّه، وهو الإسلامُ، فيقول عنه القرآن الكريم:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۞ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤، ٨٥].

أي لا تجعل الكفار يفتنوننا عن دينك الحقِّ، الذي جاءنا به موسى وهو الإسلام.

نبيُّ اللَّهِ سليمان يدعو إلى الإسلام

• **وهذا (سليمانُ بن داود) عليه السلام**، يدعو مَلَكة سبأ إلى الدخول في دينه (الإسلام)، فيقول ما حكاه عنه القرآن ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١] وهي دعوة صريحة إلى الدخول في الإسلام.

ويقول عن نفسه تحدثاً بنعمه اللَّه عليه ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

نبيُّ اللَّهِ يوسف يدعو إلى الإسلام

ونبيُّ اللَّه (يوسف الصِّديق) عليه السلام، بعد أن ذاق حلاوة الدنيا ومرارتها، ونعيمَها وضُرَّها، ونال من العزِّ والسلطان، ما لم يكن في الحسبان، فلمَّا تمَّ له المُلْكُ، وعلمَ أن الدنيا لا تدوم لأحد، اشتاق للقاء ربه، وطلب منه أن يرزقه الموت على الإسلام، فقال في تضرعه ودعائه ﴿۞ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الدينُ الذي ارتضاه اللَّهُ هو الإسلامُ

وهنا ندرك سرَّ قول الحقِّ ربِّ العزة والجلال، وهو يقرِّر الدينَ الحقَّ الذي بعث به جميع الأنبياء والمرسلين، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وندرك أيضاً معنى قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] لأنه الدينُ الذي تضافرت عليه رسالات جميع أصحاب الشرائع السماوية، وسمَّى اللَّه أتباعه بالمسلمين حيث يقول سبحانه:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] أي اللَّهُ جلَّ جلالُه سمَّاكم بالأمة المسلمة وصدق اللَّه

العظيم حيث يقول في كتابه العزيز: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ...﴾ [المائدة: ٣].

فهل بعد قول الحقِّ من قول؟ وهل بعد هذا التوضيح الساطع، والبيان القاطع من بيان؟

اللهمَّ كما هديتنا إلى الإسلام، نسألك أن تحفظه علينا، حتى نموت مسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين، وصلَّى اللَّه وسلَّم على خاتم أنبيائه سيد الأولين والآخرين والحمد للَّه رب العالمين.

حكمة بليغة للنورسي

يقول الإمام بديع الزمان النَّوْرسي رحمه اللَّه:

- لا يتنوَّر الفكرُ من دون ضياء القلب.

فإن لم يمتزج ذلك النورُ بهذا الضياء، فالفكرُ ظلامٌ دامس، يتفجَّرُ منه الظلمُ، والجهلُ، والضلال.

- في عَيْنيك بياضٌ، لكنَّه بياضٌ مظلم، وفيها سوادٌ لكنَّه سواد منوِّر، فإن لم يكن فيها ذلك السَّوادُ المنوِّر، فلن تقدر على الرؤية.

- لا قيمة لِبَصَرٍ دون بصيرة، فإن لم تكن هناك بصيرة، فلا عقل، ولا قلب ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

رسائلُ النور للنَّورسي

۞۞۞

قصة قصيرة لبيان الفارق بين المؤمن والكافر

إن كنتَ ترغبُ أن تعرفَ ما في الإيمانِ من سعادة وراحة، ولذَّةٍ ونعمة، وما في الكفرِ من شقاوةٍ وتعاسة، وعذابٍ وبلاء، فاستمع إلى هذه الحكاية القصيرة.

(**خرج رجلان ذات يوم، من أجل السياحة والتجارة!!**

فمضى أحدهما وكان رجلاً (أنانياً) فوضوياً إلى جهة.

ومضى الآخر وكان متفائلاً سعيداً إلى جهة أخرى.!

أما الأول الأنانيُّ الأحمق، الذي كان متشائماً فوضوياً، فإنه دخل بلداً غريباً، أهلُه في غاية الفساد والسوء، والفوضى والاضطراب، فكان لا يرى في طريقه، إلَّا أناساً يعربدون ويصرخون، ورجالاً قُساةً طغاة، يبطشون بالناس بلا شفقة ولا رحمة.

ولا يَسْمع إلَّا صرخاتِ الألم والحزن، والبكاءِ والعويل، حتى أصبحتْ هذه البلدةُ وكأنها (مأْتمٌ عامٌ) وأهلُها وسُكَّانها كأنهم وحوشٌ ضاريةٌ، يفترسُ فيها القويُّ الضعيفَ، ويبطشُ المستبدُّ بالعاجز.

فلم يجدْ أمامه علاجاً، لهذه الحالة المؤلمةِ المظلمة، غير أن يشغَلَ نفسه بالسُّكْر، ومقارفةِ الخمر، ليزيل هذا الكابوسَ، والمنظرَ المخيف عن ذهنه، فرمى نفسه في نشوة الخمرة، لكيلا يشعر بهذه الحياة التعيسة، إذ صار كل واحدٍ من أهل هذه البلدة، يتراءى لنظره أنه عدوٌّ يتربَّص به، ووحشٌ مفترس يريد أن يبتلعه، فظلَّ في عذاب مؤلم، ولم يذق طعم السعادة والراحة، إلَّا بالانغماس في اللذائذ والشهوات، وشرب المسكرت، ظناً منه أن ذلك ينجيه، من هول ما يرى حوله من الظلم، والطغيان، والفوضى، والاضطراب.!

أمَّا الرجل الثاني: المؤمن المحبُّ للخير، فقد كان رجلاً عاقلاً رشيداً، ذا أخلاق حسنةٍ حميدة، فقد لقي في رحلته بلدةً (أهلُها طيّبون) في غاية اللطف والأنس، يحبُّون الغرباءَ، ويكرمون الضيوف، ويتسابقون لاكتساب الفضائل، ويبذلون جهدهم للإحسان لكل إنسان.

فرأى في هذه البلدة الجميلة، مهرجانات ضخمة، للترحيب بكل قادم، ورأى في كل محلة سروراً، وفي كلِّ طرفٍ منها حبوراً.

حتى لقد صار يرى أن كلَّ واحدٍ من أهل هذه البلدة المضياف، صديقاً له صَدُوقاً، وأخاً له حبيباً، فاستأنس بلقياهم، وحمد اللَّهَ، وشكَرَه على أنه رأى في سفره، من يعيش بينهم بأمنٍ وأمان، وراحةٍ واطمئنان، ومن يُنسيه ألَمَ الغُربة عن الوطن، فقد وَجَد ضالته المنشودة، في العيش مع هؤلاء القوم الكرام.

فعاش سعيداً، لم يلق من الألم والكَدَر، ما لقيه الأول من آلام الغُربة والسفر، وما آل إليه حالُه من البؤس والشقاء والبلاء.

هذا مَثَلٌ للمؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، فالمؤمنُ يرى أن كل الناس إخوةٌ له في (الإنسانية) والبشرية، إخوةٌ أصدقاء يعيش معهم في السراء والضراء، ولا يشعر بغربةٍ في هذه الدنيا، لأنه يعيش بين أهله وإخوانه، وأما الكافر فيشعر أن الناس كلهم أعداء، يتربصون به السوء والشرَّ، ويريدون أن يبطشوا به، فلا يشعر بالراحة والأمان، فالإيمان للإنسان راحة، والشركُ والكفر بؤسٌ وشقاء).

الفصل العاشر

خاتمةُ البحث

ما هي عقيدتنا الإسلامية؟

الفصل العاشر

خاتمةُ البحث

ما هي عقيدتنا الإسلامية؟

في نهاية المطاف حول العقيدة الإسلامية نقرِّر الآتي:

- عقيدتُنَا ناشئةٌ عن الإيمان بإلهٍ واحدٍ، لا شريكَ له.
- خالقٍ لهذا الكَوْن، لا شيءَ مثلُه، ولا أمرَ يُعجِزُه، ولا إلٰهَ غيرُه.
- قديمٌ بلا بداية، دائم بلا نهاية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾.
- لا يفنى ولا يموت، وكلُّ الخلائق مصيرها الفناء ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۞ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].
- قادرٍ على كل شيء، متصف بصفات الجلال والكمال، منزَّهٍ عن صفاتِ العجز والنقص ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].
- ليس له والد ولا ولد، ولا يعرف حقيقةَ ذاتِه أحد، وليس له مع الخلق حَسَب ولا نَسَب ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۞ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ الكُفُوُ: المثيلُ والنظير.
- نؤمن بإلهٍ واحد، حكيم عليم، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء في الأرض، ولا في السماء ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].
- كلُّ شيء يجري بتقديره ومشيئته، وتدبيره وحكمته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۞ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: ٣٠، ٣١].
- ونؤمن بصفات اللّٰه جميعاً، كما وردت في كتابِ اللّٰه العزيز، من (السمع،

والبصر، والقدرة، والإرادة، والكلام، والعلم، والحياة) وسائر الصفات، التي وَصَفَ تعالى بها نفسه، أو وَصَفه بها رسولُه الأمين ﷺ، مع الاعتقاد الجازم، بعدم مشابهة تلك الصفات لصفات أحدٍ من المخلوقين، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، كما هو اعتقاد السلف الصالح.

لَا ذَاتُـهُ يُـشْـبِـهُـهَـا الـذَّوَاتُ   وَلَا حَـكَـتْ صِـفَـاتِـهِ الـصِّـفَـاتُ

أي لا تشابه صفات اللَّه صفاتِ أحدٍ من الخلق.

• فللَّه سبحانه سمعٌ لا يشبه سمع المخلوقين، وله كلامٌ، وبَصَرٌ، وعلمٌ، وقدرةٌ، وإرادةٌ، لا يشبه شيءٌ منها صفاتِ الخلق مطلقاً، متمسِّكين ومعتصمين بقول الحقِّ جلَّ وعلا.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ وقوله سبحانه في بيان عدم مشابهته لأحد من خلقه.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي ليس له شبيه، ولا مثيل، ولا نظير أحد من البشر، وكلُّ ما خَطَر بالبال، فاللَّهُ منزَّه عن المِثال.

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

• **ونقول في صفات الخالق جلَّ وعلا**، ما قاله إمامُ أهل السنة والجماعة، الإمام (أحمد) رحمه اللَّه تعالى: (أخبارُ الصفات ـ أي صفات اللَّه جلَّ وعلا ـ تُمَرُّ كما جاءت، بلا تشبيهٍ ولا تعطيل، فلا يُقال: كيف؟ ولِمَ؟ نؤمن بأن اللَّه على العرش كما شاء، وكيف شاء، بلا حدٍّ ولا صفةٍ يبلُغها واصِفٌ، أو يحدُّها حادٌّ، نقرأ الآية والخبر، ونؤمن بما فيها، ونَكِلُ ـ أي نترك ـ الكيفية في الصفات إلى علم اللَّه عزَّ وجلَّ) تفسير محاسن التأويل ٧/ ٢٧٠٨).

• **قال الحافظ ابن كثير**: (نسلك في آيات الصفات مذهبَ السلف الصالح، وهو إمرارُها كما جاءت، من غير تكييفٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تعطيل، والظاهرُ الذي يتبادر إلى أذهان المشبِّهين، منفيٌّ عن اللَّه، فإنَ اللَّهَ لا يشبهه أحدٌ من خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

• **والأمر كما قال (نُعَيمُ الخُزاعي) شيخ البخاري**: (من شبَّه اللَّهَ بخلقه فقد

كَفر، ومن جَحَد ما وَصَفَ اللَّهُ به نفسه فقد كَفر، وليس فيما وَصَف اللَّهُ به نفسَه ولا ما وصف به رسولُه ﷺ تشبيهٌ، فمن أثبت للَّهِ تعالى ما وردت به الآياتُ الصريحةُ، والأخبارُ الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال اللَّه وعظمته، ونفى عن اللَّه النقائصَ، فقد سلك سبيل الهدى) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٥.

- **نؤمن بوحدانية اللَّه تعالى**، فهو سبحانه موصوفٌ بصفات الوحدانية (لا إلٰه إلَّا هو) أي لا معبود بحقٍّ سواه، هو الخالقُ، الرازقُ، المحيي، المميتُ، لا يقدر على شيءٍ من الخلق والعطاء سواه، لذلك نوحِّده في ألوهيته ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

- **ونوحِّده في ربوبيته**، فهو الربُّ المعبود، صاحبُ الفضل والجود، خَلَق الخلقَ بقدرته، وربَّاهم برعايته، ولطفه، وبرِّه.

أفاض على الخلق فنونَ نعمائه وكرمه، فهو الخالقُ لجميع الأشياء، المتصرِّفُ في شؤون العباد كما يشاء، ربُّ الملائكة، والإنس، والجنِّ، والطير، والوحش، والأنعام، وسائر المخلوقات ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

- **ونوحِّده في أسمائه وصفاته**، لا نَصِفه إلَّا بما وَصَف به نفسه، وَوصَفه بها رسوله ﷺ، مع اعتقادنا بتنزيهه سبحانه عن مشابهته لأحدٍ من الخلق ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

- **ونؤمن بأن القرآن كلامُ اللَّهِ**، قديمٌ بقدم اللَّهِ، غيرُ حادثٍ ولا مخلوق، أنزله على أشرف خلقه، محمد سيد الأولين والآخرين، بلسانٍ عربي مبين ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥].

- **من زَعَمَ أنَّ في القرآن زيادةً أو نقصاً**، أو أنه لا يتلاءم ولا يتماشى مع الزمان والعصر، فقد انسلخ عن الإسلام، وكَفَر بالرحمن، وفَقَد العقلَ والبَصِيرَة

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

- **ونؤمن بأن محمداً عبده ورسوله**، أرسله اللَّه بين يدي الساعة، بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى اللَّه بإذنه وسراجاً منيراً، وختم به رسالة الأنبياء والمرسلين، فلا نبيَّ بعده.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

- **ونؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين**، ولا نفرِّق بين أحد منهم ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

- **ونحبُّ جميع المسلمين**، ولا نكفِّر أحداً منهم، هذا هو هديُ نبينا ﷺ، فقد قال عليه أفضلُ الصلاة والتسليم: (ثلاثة من أصلِ الإيمان:

١ ـ الكفُّ عمن قال (لا إلٰه إلَّا اللَّه) لا نكفِّره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل.

٢ ـ والجهادُ ماضٍ منذ بعثني اللَّه، إلى أن يُقاتِلُ آخرُ هذه الأمة الدجَّالَ، لا يُبطله جورُ جائر، ولا عدلُ عادل.

٣ ـ والإيمانُ بالأقدار). رواه أبو داود في سننه.

تمَّ تأليف هذا الكتاب في البلد الأمين (مكة المكرمة) حَرَسَها اللَّهُ

وذلك في غرة رمضان المبارك لعام ١٤٢٦هـ الموافق ٤/ ١٠/ ٢٠٠٥م

والحمد للَّه في البدء والختام

خادم الكتاب والسّنّة

الشيخ محمد علي الصابوني

النادي الشبابي

فهرس المحتويات

الفصل الثاني

الإيمان بوحدانية اللّه جلَّ جلاله

الفصل الثالث

الإيمانُ بالرسل والأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم

الفصل الرابع

الإيمانُ بالكتب الإلهية السماوية

الفصل الخامس

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان

الفصلُ السادس

الإيمانُ بالدار الآخرة

الفصل السابع

الإيمانُ بالأمور الغيبيَّة

نعيمُ القبر وعذابُه

الفصل الثامن

الإيمان بالقضاء والقدر

الفصل التاسع

الإسلامُ دينُ جميع الأنبياء والمرسلين

الفصل العاشر

خاتمةُ البحث

النادي الشبابي

آثار المؤلف

١ ـ صفوة التفاسير
٢ ـ المواريث في الشريعة الإسلامية
٣ ـ من كنوز السنة النبوية
٤ ـ روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن
٥ ـ قبس من نور القرآن الكريم
٦ ـ السنة النبوية المطهرة قسم من الوحي الإلهي المنزل
٧ ـ موسوعة الفقه الشرعي الميسر
٨ ـ الزواج الإسلامي المبكر سعادة وحصانة
٩ ـ التفسير الواضح الميسر
١٠ ـ الهدي النبوي الصحيح في صلاة التراويح
١١ ـ إيجاز البيان في سور القرآن
١٢ ـ موقف الشريعة الغرّاء من نكاح المتعة
١٣ ـ حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن
١٤ ـ التبيان في علوم القرآن
١٥ ـ عقيدة أهل السنة في ميزان الشرع
١٦ ـ النبوة والأنبياء
١٧ ـ رسالة الصلاة
١٨ ـ المهدي وأشراط الساعة
١٩ ـ المقتطف من عيون الشعر
٢٠ ـ كشف الافتراءات حول صفوة التفاسير
٢١ ـ درة التفاسير (على هامش المصحف)
٢٢ ـ جريمة الربا أخطر الجرائم الدينية والاجتماعية

٢٣ ـ التبصير بما في رسائل بكر أبو زيد من التزويد
٢٤ ـ شرح رياض الصالحين
٢٥ ـ شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول
٢٦ ـ رسالة في حكم التصوير
٢٧ ـ معاني القرآن (للنحاس)
٢٨ ـ المقتطف من عيون التفاسير (للمنصوري)
٢٩ ـ مختصر تفسير ابن كثير
٣٠ ـ مختصر تفسير الطبري
٣١ ـ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان (للبروسوي)
٣٢ ـ المنتقى المختار من كتاب الأذكار (للنووي)
٣٣ ـ فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (للأنصاري)
٣٤ ـ تفسير الدعوات المباركات (للآيديني)
٣٥ ـ نكاح المتعة في الإسلام حرام (للحامد)
٣٦ ـ الإبداع البياني في القرآن الكريم
٣٧ ـ صفحات مشرقة من حياة الرسول ﷺ وصحابته
٣٨ ـ الجهاد والخطأ الدارج في فهمه
٣٩ ـ العقيدة الإسلامية ـ آمنت باللّه
٤٠ ـ الشرح الميسر لصحيح البخاري

النادي الشبابي